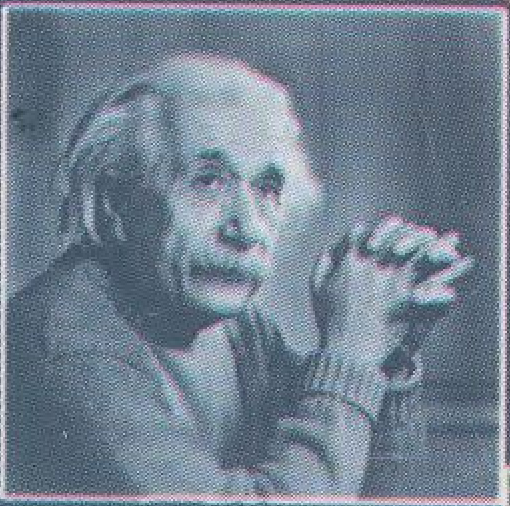
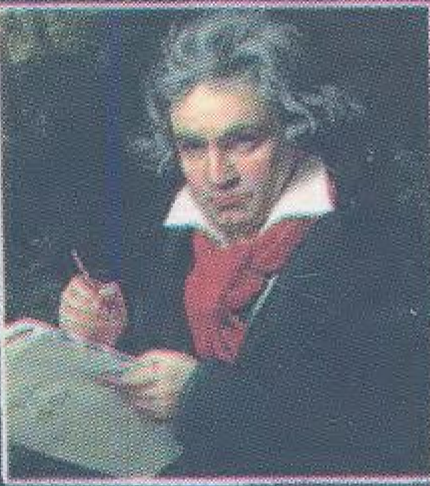
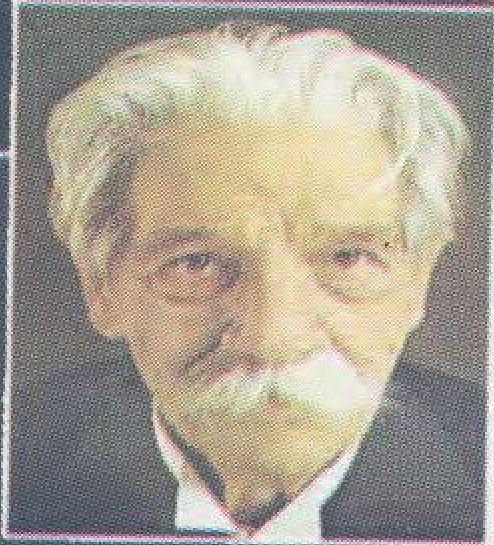
١

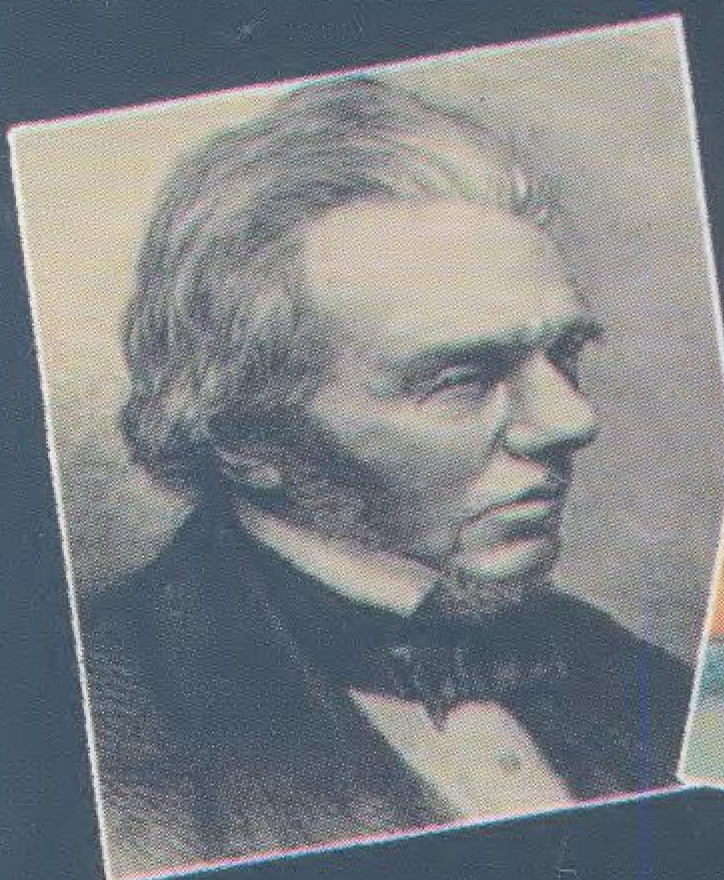
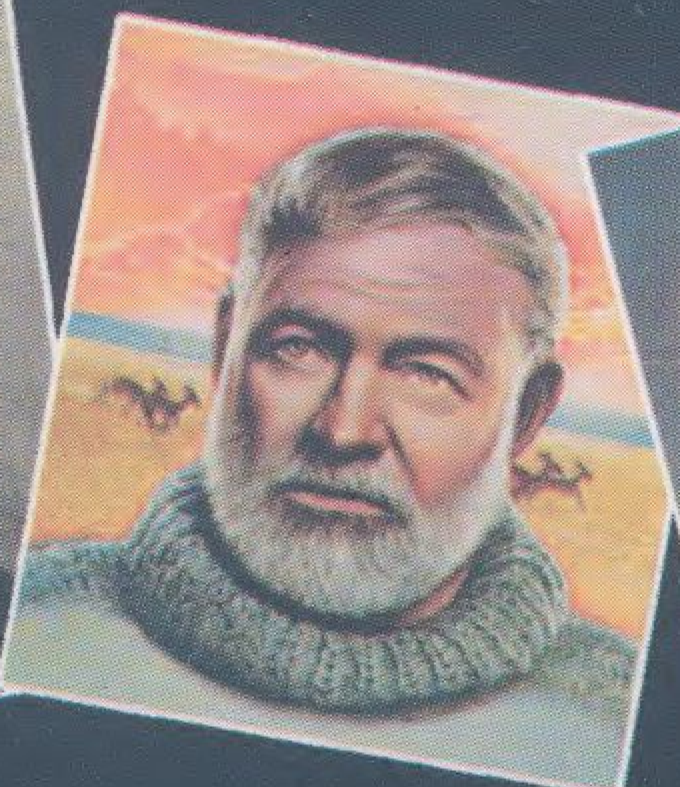
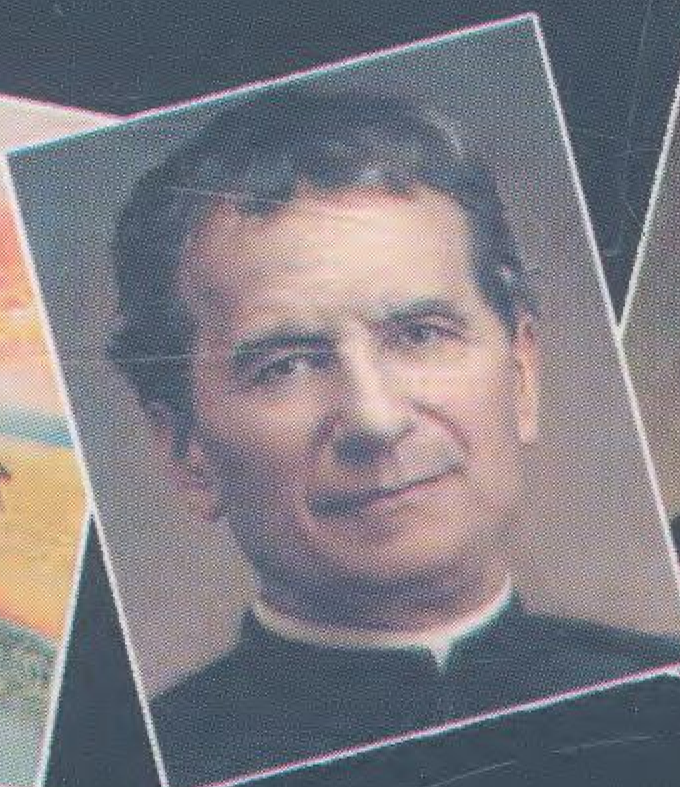
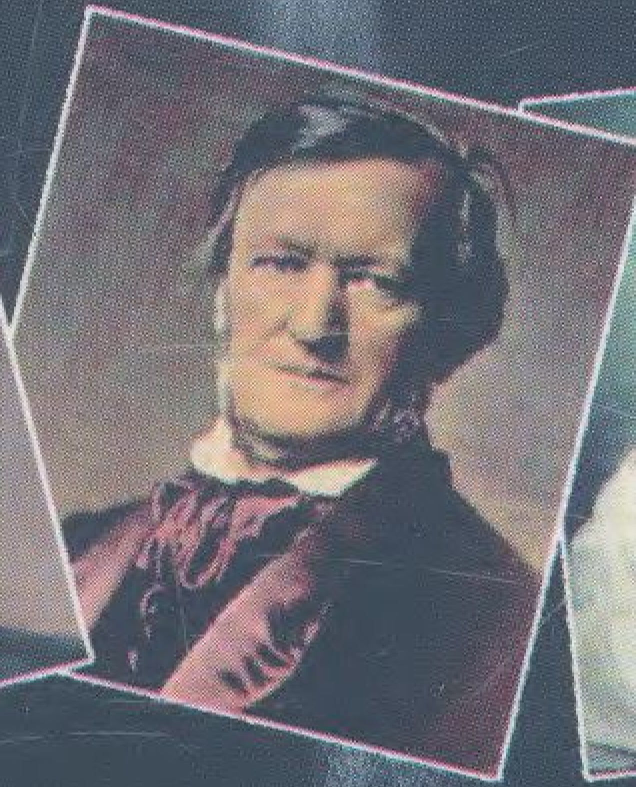
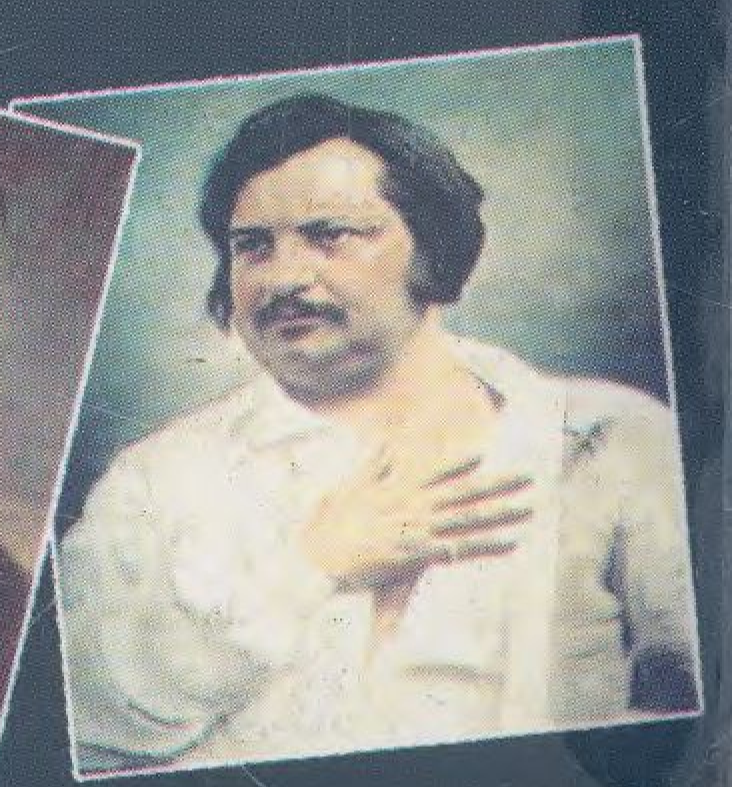
شخصيات لا تُنسى ..





سمير سواني

شخصيات لاتنسى ..

" الجزء الأول "

✍ بقلم

سمير سوانى

اسم الكتـــــاب : شخصيات لا تُنسى .. (جزء ١)
بقلــــــــم : سمير سوانـــــى - القاهـــرة
الناشــــــر : سمير سوانـــــى - القاهـــرة
الجمع والتنفيـذ : مؤسسة بيتر للطباعة والتوريـدات
١ ش جمعية الشباب – عين شمس الشرقية (ت : ٢٤٩٠١٠٦٥)
www.peterprintes.com
E-mail : mail@print1979.com

رقم الإيداع : ١٠٠١٤ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى: 977- 17-8888-4

تليفون : ٢٥٧٧٦٩٦٩
محمول : ٠١٢٨٨٢٠٠٨٧
E-mail : samir.sawany@yahoo.com
www.samirsawany.do-talk.com

تقديم

" شخصيات لا تُنسى .. "

نعم .. لازال التاريخ يذكرها .. والإنسانية أيضاً .

إنها قصص واقعية ، تتناول حياة رجال معروفين ومجهولين حقق بعضهم شهرة واسعة ، على حين مات بعضهم الآخر مغموراً . ومع ذلك كان لهم دور بارز فى أحد الجوانب المؤثرة على المجتمع البشرى والإنسانية .

" شخصيات لا تُنسى .. "

به قصص خاصة بالمرأة من واقع الحياة أو من سجل التاريخ . تعكس واقع النفس البشرية للمرأة بكل ما فيها من الإيجابيات والسلبيات ، قد تتعاطف أنت معها ، أو قد ترى نفسك من خلالها ، أو أحداً من المحيطين بك ، كما أنها قد تكون مثلاً أعلى أو تحذيراً وعبرة ..

" شخصيات لا تُنسى .. "

من كل بلاد ودول العالم القديم والحديث - ضحوا ، بذلوا ، ثابروا ، عانوا ، كافحوا ، إنتصروا ، إكتشفوا ، إخترعوا ، إبتكروا - أصحاء أو معاقين - لازال التاريخ يذكرها .

إن الذين كافحوا وناضلوا وتعبوا من أجل الإنسانية كانوا يجتهدون دائماً إلى تحقيق هدف معين غير عابئين بما يوضع أمامهم من عوائق وبما يلاقونه من صعوبات ، ولو ألقوا بالاً إلى ردود فعل البشر ما إستطاعوا الإستمرار فى طريقهم ، ولكنهم أصموا آذانهم عن نقد الآخرين لهم وسخريتهم منهم ، وواصلوا جهادهم وإصرارهم حتى النهاية .

فتحققت أخيراً أهدافهم وأفادت الإنسانية بكفاحهم ، وسُجلت أسماؤهم وأعمالهم فى سجل الخالدين .

" شخصيات لا تُنسى .. "

كتاب مكون من جزءين بمحتوى سبعون شخصية عالمية من النساء والرجال

فى شتى المجالات العلمية والأدبية والإجتماعية والإنسانية والفنية والطبية والرياضية والبطولية والمعجزية ... إلخ .

وإستقينا مادة هذا الكتاب من مجلة " هو وهى " بدءاً من أواخر السبعينيات حتى أوائل التسعينيات .

سمير سوانى

شخصيات لا تنسى ..

(١) إدجار هولمز

جامع الروبابيكيا

كلما إشتدت برودة الشتاء القارسة تذكّر الناس بالخير بطل قصتنا ؛ فقد بعث الرجل الدفء فى أجساد الآلاف من الفقراء والمرضى والعجائز والأطفال ، وفتح الباب أمام فاعلى الخير لمشاركة فقراء العالم فى بعض ما لديهم من نعم الله .. هذا الرجل هو ، " **إدجار هولمز** " الأمريكى " **جامع الروبابيكيا** " .

• • •

وتبدأ قصة حياة " إدجار " فى بيت فقير ، حيث حاولت أمه ، أن توفر له الحد الأدنى من الحياة الكريمة ، وكان " هولمز " من جانبه نشيطاً ومجتهداً إلى أن إلتحق بالجامعة .

غير أن الحياة فى الجامعة كانت صعبة للغاية ، إذ أنه بدأ دراسته الجامعية وليس معه من النقود سوى مائة دولار فقط هى كل ما إستطاعت الأم الحكيمة أن تقتصده .

وكان عليه أن يقسمها على مصروفات الدراسة وتكاليف الطعام والمسكن والملبس وغير ذلك من حاجاته المختلفة .

لذلك عرف " إدجار " طعم الجوع وألم الحاجة ، وفى تلك الليالى الباردة كان يشتهى أكلة مطهية ساخنة كتلك التى كانت تعدها أمه ، ولكنها أصبحت الآن بعيدة المنال ! .

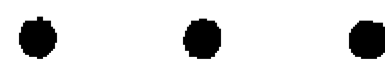
وتعلم كيف يعمل عملاً شاقاً ليكتسب ثمن الورق الذى يكتب عليه أو يدفع إيجار الحجرة المتواضعة التى يقيم فيها ؟ .

وكانت الحاجة والمعاناة كفيلتين أن تنضجا شخصية " إدجار " ، وتكسباه الصلابة ، وتؤهلاه للرسالة التى كان الله يعده لها .

كانت مدرسة الألم هى أفضل ألوان الدراسة ، ومنها إتجه " إدجار " إلى الصحافة الإجتماعية ، إذ كان قد تأهل للدفاع عن ذوى الحاجات - وأصبح قادراً على تبنى قضاياهم والحديث على لسانهم .

ونجح الرجل فى ذلك نجاحاً عظيماً يسترعى الأنظار فقد كان إهتمامه بالمظالم الإجتماعية ، ونقده لها وجرأته فى الحديث عنها وشدته فى التنديد بها - كانت هذه جميعها سبباً فى شهرته التى دفعت مشاهير الرجال لترشيحه للعمل السياسى .

وكما أن بعض الأسماك لا تعيش إلا فى المياه المالحة ، ولا ينبت الصبار إلا فى الأراضى الجافة - فإن حياة " إدجار " كانت من ذلك النوع الذى لا يترعرع إلا فى الضيق والألم ، لذلك لم ينجح بطلنا فى الإتجاه السياسى وعاد للعمل بين الفقراء ! . إلى حيث كانت إرساليته فى الحياة .



كان الله قد أعد " إدجار هولمز " للأيام القادمة :

فقد تعرضت الولايات المتحدة فى أوائل هذا القرن لأزمة إقتصادية حادة تركت آثارها على الفقراء والأغنياء على السواء ، وصار من الصعب على الفقير أن يجد ما يكفيه على حين أصبح من العسير على الأغنياء أن يقدموا المساعدات المالية ! .

وفى ذلك الوقت كان " إدجار " قد أصبح الملجأ الوحيد لأعداد غفيرة من فقراء بوسطن يلتفون حوله ويعهدون له بالدفاع عن قضاياهم .

كان " إدجار " قد تعود إنتزاع حقوق الفقراء منددا بالمظالم المرتكبة ضدهم . كان صوته مدوياً برغم ما يتعرض له من تهديدات ، وكثيراً ما كان يوفق إلى إسترداد بعض الحقوق ، أو يحصل على بعض المساعدات .

لكن الحالة اليوم تختلف : ففى تلك الأيام الخانقة لم يعد هناك من يستطيع أن يعطى مالاً أو يهب منحه لأحد ، ورأى " هولمز " أصدقاءه الفقراء يرتعشون داخل أسمالهم .

وإرتعب الشاب الطيب داخل ملابسه الأنيقة ، لقد أدرك أن خطبه المدوية لم تعد تناسب الموقف وأن الكلمات النارية لا تستجلب الدفء للعراة الحفاة حوله .

وقضى " إدجار هولمز " ليلة حبيس غرفته يصلى مع زوجته ضارعين إلى الله أن يكشف لهما طريقاً يفرج كربة المكروبين .

• • •

وفى صباح اليوم التالى رأى الناس فى الشوارع شاباً وسيماً أنيق الملبس يحمل على كتفه جوالاً فراغاً من الكتان كذلك الذى يحمله المتسولون ، ويندفع فى الطريق متجهاً إلى أبواب المنازل حيث يسكن الموثرون .

وإلى سيدات البيوت كانت رسالة " إدجار " قصيرة موجزة لكنها قوية مؤثرة .. كان الرجل يقول فى إنكسار ووقار : **" أنا لا أطلب مالاً ، أنا أحتاج إلى فائض خزائنكم من الملابس القديمة لأغطى بها أجساداً ترتعش فى العراء " ! .**

وكانت كلمات الشاب الصادقة ووجهه المهيب وتأثيرات الصلاة التى يرفعها لله وهو يطرق الأبواب . كانت هذه جميعها تترك أثراً عميقاً على السامعين فتمتلئ الأكياس بالثياب .

ويذكر " هولمز " كيف دفعه سائق الأتوبيس رافضاً أن يصعد إلى السيارة بهذه الجوالات المنتفخة ، فإضطر أن يحملها على دراجة صغيرة إلى حيث يلتقى هو وأخوته الفقراء ! .

ومع أن جمع الملابس كان عملاً صعباً يكلف " إدجار " جهداً نفسياً وعضلياً ، فإن توزيع الثياب كان أصعب كثيراً من جمعها : فقد كان عليه أن يكون أميناً فى التوزيع دقيقاً فى إكتشاف الحاجات ، وفوق كل ذلك كان حريصاً غاية الحرص على الإحتفاظ بكرامة هؤلاء البسطاء ، إذ لم تكن إعادة إستعمال الملابس المستخدمة شيئاً معروفاً فى ذلك الوقت .

• • •

ومرة أخرى صلى " إدجار " لله ، ليرشده إلى الوسيلة المثلى لتوزيع العطايا وخاصة بعد أن رأى مجموعة من الفقراء يختطفون الملابس ويتشاجرون لإمتلاك أشياء لا يحتاجون إليها ! .

وقد إستطاع الرجل أن يبتدع نظاماً رائعاً :

فقد أعلن عن إنشاء مؤسسة أسماها **" الإرادة الطيبة "** ودعا جميع الراغبين

فى العمل من السيدات والرجال إلى الحضور إلى مقر المؤسسة حيث عرض عليهم طبيعة العمل ونوع الأجر .

أما العمل فهو : تفريغ الجوالات الكثيرة الملأى بالملابس والأغطية (القديمة) ، ثم تقسيمها على حسب أنواعها ومقاساتها المختلفة على أن يقوم فريق ثان بإصلاح ورتق الثياب الممزقة أو البالية ، ويتولى فريق ثالث غسلها وكيها .

ودعا فريق الرجال إلى إصلاح بعض قطع الأثاث التى تبرع بها بعضٌ أيضاً ..

أما عن رواتب العاملين فقد كانت دائماً عينة من بعض الثياب المستصلحة - يأخذونها مقابل العمل بعض ساعات النهار .

وبهذا الأسلوب الفريد إستطاع " إدجار هولمز " مبتكر جمع " الروبابيكيا " بهذه الطريقة أن يوفر الكساء والكرامة لأصدقائه .

• • •

لكن أعظم ما خلفه " إدجار هولمز " :

كان عدوى الخير التى بعثها فى الناس من حوله حتى أصبح الآن فى الولايات المتحدة وحدها ٣٣٠٠ مؤسسة " للإرادة الصالحة " .

(٢) راءول فوليرو

يوم حرب من أجل السلام

شهد مطلع القرن العشرين مولد " راءول فوليرو " كان ذلك بالتحديد فى آب أغسطس من عام ١٩٠٣ ، وهو شاعر ومؤلف فرنسى شهدت المسارح عدداً من مؤلفاته مجسمة على خشبتها .

وفوليرو من الرجال الذين سجل لهم التاريخ بعضاً من آثار أياديهم البيضاء لعطائهم من أجل كل صاحب صرخة ألم فى البشرية ! .

إتجه فوليرو منذ حداثته ليخصص قلمه لمحاربة الفقر وظلم المجتمع والتعصب على إختلاف أنواعه .. **عمل على إذكاء روح المحبة سائلاً كل من يأكلون ثلاث مرات فى النهار : هل أنتم موقنون أن الكل يفعل ذلك ؟ . هل كل فرد يملك أكلات ثلاثاً فى اليوم ؟ .**

• ساعة واحدة كل عام ! :

تأثر " فوليرو " كثيراً بما خلفته الحرب العالمية الثانية على البشر ! . رأى فى ذلك موكباً حزيناً للبؤس والخراب والحرمان ... رأى فى الحرب إستئصال سعادةٌ وذبول أمل .

وفى إحدى القرى الفرنسية وجه " فوليرو " هذا السؤال للشعب الفرنسى وشعوب العالم : من يستطيع أن يبنى من جديد وأن يسعف وأن يحب ؟ .

ولم ينتظر " فوليرو " إجابة من أحد وقال :

بإستطاعة جميع البشر أن يقدموا يد المساعدة ، فقد يخطو العالم خطوة حقيقية نحو السلام لو أنه يكرس لسعادة الجميع جزءاً ـ مهما كان يسيراً ـ من الدم والعبقرية والمال الذى ينفقه بتبذير فى القتل والدمار فى الحرب ! .

وطالب " فوليرو " كل واحد بتخصيص ساعة فى السنة ! . ساعة من دخله أو أجرته لمساعدة المحتاجين - إنه عمل بسيط لا يصعب تنفيذه يحمل فى ذاته معنى مؤثراً .

• الصدقة والإهانة :

وأكد " فوليرو " أنه لا يريد بهذه (الساعة) هبة تقدم لفقير ، إنما هى تكريس وقت من حياتنا لأجل إخوتنا ، إنها عمل حب لا غير ، فكثيراً ما تكون الصدقة إهانة إن لم تُعط بحب .

" إن ساعة الفقراء " عمل أخوى لا يتميز فيه الأغنياء من الفقراء إلا بقدرتهم على عمل خير أكبر فى الوقت نفسه .

وكانت إستجابة المجتمع الفرنسى لندائه طيبة : فقد بلغ ما ساهم به الناس بصندوق (ساعة الفقراء) فى هذه الفترة ٢٥٠ مليون فرنك إسْتُخدمت فى تمويل ٥٠٠ مشروع خيرى .

وقد أخذت شخصيات وجمعيات عن فكرة " فوليرو " وعملت بها فى دول مختلفة تحت إسم (ساعة الفقراء) أو إسم آخر .

• من أجل الأقلية التى أكثر تألما وظلما !! :

وإمتدت يد " فوليرو " البيضاء لخدمة قطاع آخر من المعذبين من البشر ، وهم الذين يعانون من مرض البرص الذين كانوا يُطردون إلى أماكن نائية ، ويمنع دخولهم إلى المدن أو القرى الآهلة بالسكان !.

تألم " فوليرو " لآلام هؤلاء الناس النفسية فضلاً عن آلامهم الجسدية ، ولا ذنب لهم إنهم مرضوا بذلك المرض ؛ كما أن أى سليم من سكان المدينة أو القرية التى نبذتهم معرض للإصابة به ! .

ومن أجل هذه الفئة التعسة من البشر قام " فوليرو " بإثنتين وثلاثين جولة حول الكرة الأرضية متوقفاً فى ٩٥ دولة مرافعاً عن مرضى البرص .

كما وجه فى مطلع الخمسينيات نداء إلى الأمم المتحدة لإتخاذ قانون دولى لرعاية مرضى البرص وتحسين ظروف معالجتهم .

وكانت فرنسا أولى الدول الأعضاء بالمنظمة الدولية التى أخذت برأى ، إبنها - البار بالبشرية " فوليرو " - إزاء هؤلاء المرضى لرعايتهم .

ونجح " فوليرو " فى تخصيص " اليوم العالمى للبرص " الذى إستهدف خدمة مرضى البرص كسائر المرضى مع إحترام صفتهم الإنسانية وإزالة شبح الخوف الذى يسيطر على الأصحاء إزاء هذا المرض والمصابين به .

وقد إعترفت ١٢٧ دولة باليوم العالمى للبرص تلبية لنداء " فوليرو " ، فتحول هذا اليوم إلى يوم لقاء حب جالباً للمرضى لا المساعدات المادية فقط ، بل الفرح والفخر بأنهم يعالجون كبشر .

• يوم حرب من أجل السلام ! :

ووجه " فوليرو " رسالة إلى الرئيس الأمريكى روزفلت سنة ١٩٤٤ وعنوانها " مدوا الحرب يوماً واحداً ".

وضاعف " فوليرو " نداءاته وإقتراحاته لتحويل سلاح الموت إلى أعمال حياة فقال : عندما تعلن الهدنة ليعط جميع المتحاربين تكاليف يوم واحد من هذه الحرب الطاحنة لأجل أعمال السلام .

وكتب سنة ١٩٥٤ لرئيس الدولتين : الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى :

" لتنزل كل منكما عن طائرة قاذفة قنابل فنستطيع معالجة جميع مرضى العالم " .

وجدد نداءه وتحذيره أيضاً سنة ١٩٥٥ و ١٩٥٩ و ١٩٦٢ قائلاً :

" قنبلة ذرية أو محبة ! ، التحاب أو الفناء وليس من ثالث " ! .

" وإذا تسارعتهم إلى التسلح فأنتم هالكون ونحن معكم وبدون فائدة . على حين لا أحد منكم يريد القتل . إنما تفعلون ذلك لأنكم لا تجدون وسيلة أخرى " ! .

وكتب فى أيلول " سبتمبر " سنة ١٩٦٤ إلى يوثانت السكرتير العام السابق للأمم المتحدة طالباً أن تقرر المنظمة الدولية بمناسبة اليوم العالمى للسلام إقتطاع

نفقة مجهود يوم واحد للتسلح يستعمله كل بلد لمحاربة الجوع وساكنى الأكواخ والأمراض المستعصية التى يتوجع منها عُشر البشرية ! .

وقد أضاف قائلاً :

" يوم حرب من أجل السلام ! ، إن التحول الأول من سلاح موت إلى مشروعات حياة سيكون حدثاً مدوياً قادراً على أن يمهد لخلاص البشرية جمعاء وهى مكبلة اليدين معقودة اللسان تحضر لإنتحارها ولا تدرى شيئاً " .

وقد وقع فى هذا الوقت ثلاثة ملايين من الشباب منتمين إلى ١٢٥ دولة التصريح التالى :

" نحن الشباب من ١٤ إلى عشرين عاماً نتبنى نداء (يوم حرب من أجل السلام) الذى وجهه " راءول فوليرو " إلى الأمم المتحدة ، ونتعهد عندما يحين الوقت بأن نستعمل جميع حقوقنا المدنية والسياسية لنجاح هذا النداء " .

وفى الخامس من كانون الأول " ديسمبر " سنة ١٩٦٩ وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على هذا النداء ، وطلبت إلى كل بلد درس الوسائل للعمل به .

وأكثر من ثلاثة ملايين شاب أرسلوا إلى " فوليرو " ، ويكتبون :

" شبيبة العالم بأسرها هنا بالقرب منك أيها السيد " فوليرو " - تريد أن تحب معك " ! .

" لا تخف أن تتكلم ؛ لأن ملايين من الأصوات الفتية تؤيدك " ! .

إسمح لنا بأن تعلن عن نجاحك فى تخطى حقبة مشاحنات ومراوغات أجيال لتقود الشباب إلى العمل والعطاء والحب لخدمة البشرية .

شخصيات لا تنسى ..

(٣) إجناز سيميلفايس

منفذ الأمهات

بالرغم من أن أوروبا إستطاعت أن تتغلب على الجزام والطاعون فى القرون الوسطى بفضل عزل المرضى بهذه الأمراض فإن بعض الأمراض الأخرى الهامة إستمرت فى الإنتشار مثل الكوليرا والدوسنطاريا وحمى التيفود وقضت على الألوف من الضحايا . حتى أواخر القرن الثامن عشر كانت الإجراءات الصحية بدائية جداً حتى فى العواصم الكبرى ، ولم يكن أحد يهتم بالتخلص من القمامة بطريقة سليمة .

ونتيجة لذلك تكاثر الذباب ، وكانت كل وسائل العدوى مهيأة لنشر الأمراض بطريقة وبائية .

ولنرجع الآن إلى مدينة ڤينا فى عام ١٨٤٠ عندما كان الشعب النمسوى يستمتع بموسيقى يوهان شتراوس وإبنه .

كانت ڤينا فى ذلك الوقت مركزاً طبياً مشهوراً ، ولنذهب الآن إلى إحدى المستشفيات التعليمية المشهورة فى ذلك الوقت ، ولنتوجه إلى عنابر قسم الولادة فى هذه المستشفى حيث كانت تموت سيدة من بين كل ٦ سيدات بعد الولادة . وكانت هذه النسبة المخيفة من الوفيات فى المستشفيات الأخرى فى العالم كله . وكان أطباء الولادة ينسبون هذه الوفيات إلى الإمساك أو الخوف أو الهواء الملوث ! .

وبعد وفاة السيدات كانت تنقل جثثهن إلى المشرحة حيث يحضر الأطباء وطلبة الطب لإجراء الصفة التشريحية على جثث السيدات السيئات الحظ اللواتى فقدن حياتهن قبل ٢٤ ساعة . وبعد أن ينتهى الأطباء والطلبة من هذه المهمة كانوا يتوجهون إلى قسم الولادة لفحص السيدات بدون أن يلبسوا قفازات فى أيديهم ، لأنها لم تكن قد استخدمت بعد .

وحدث في أوائل ١٨٤٠ أن عهد إلى طبيب شاب يدعى " **إجناز سيميلفايس** " بالإشراف على أحد عنابر الولادة ، فلاحظ أن السيدات اللواتى يفحصهن المدرسون والطلبة هن اللواتى يصيبهن المرض ويلاقين الموت بعد ذلك . وبعد ثلاث سنوات من الملاحظة وضع الطبيب الشاب قاعدة معينة تقضى بأن كل مدرس وطالب يشترك فى تشريح جثث السيدات الموتى يجب أن يغسل يديه جيداً بمحلول مطهر قبل فحص السيدات بعنبر الولادة الذى يشرف عليه .

وقبل تنفيذ هذه القاعدة ماتت فى شهر إبريل ١٨٤٧ فى عنبر الدكتور " سيميلفايس " ٥٧ سيدة . وبعد تنفيذ هذه القاعدة إنخفض عدد الوفيات إنخفاضاً كبيراً : ففى شهر يونيه من ذلك العام نفسه ماتت سيدة واحدة من كل ٤٢ سيدة ، وفى شهر يولية ماتت سيدة واحدة من كل ٨٤ سيدة .

وهكذا دلت الإحصاءات على أن العدوى المميتة كانت تنتقل من الجثث إلى السيدات الأحياء .

وفى أحد الأيام بعد أن قام الأطباء والطلبة بتشريح جثث الموتى وغسلوا أيديهم بعد ذلك ذهبوا إلى عنبر الولادة لفحص ١٢ سيدة ، ولكن الذى حدث بعد ذلك أن ١١ سيدة أصابتهن الحمى ، وتوفين على الأثر . وهنا خطرت على ذهن سيميلفايس المتوقد فكرة جديدة :

هى أن لابد أن عاملاً خفياً نقله الأطباء بأيديهم من سيدة إلى أخرى مما أدى إلى إصابتهن بالحمى والوفاة . وكان من المنطقى أن يأمر " سيميلفايس " بعد ذلك بأن كل واحد يجب أن يغسل يديه جيداً بعد فحصه كل سيدة إلا أن أصوات الأطباء إرتفعت إحتجاجاً على هذه المضايقة بالغسيل المتكرر . ولكن ما أن نفذت هذه القاعدة حتى إنخفضت نسبة الوفيات إنخفاضاً ملحوظاً .

هل يا ترى تلقى سيميلفايس الشكر على ذلك ؟ .

على العكس ، فإن الطلبة الكسالى والأطباء المهملين ، والرؤساء الحاسدين - حقروا من شأنه إلى حد أن المستشفى لم تجدد عقده السنوى ، وإستبدلت به طبيباً آخر . وجاء خلفه فألقى بأحواض الغسيل بعيداً وقفزت نسبة الوفيات على الفور إلى الأرقام القديمة المرعبة ، فهل إقتنع الأطباء بعد ذلك بصحة آراء " سيميلفايس " ؟ .

كلا ، فإن العقل البشرى يتعامى عن الحقيقة بفعل الصلف والكبرياء والحقد والحسد والتحيز إلى حد أنه كثيراً ما يتجاهل البراهين الساطعة .

لقد حاول " سيميلڤايس " مدة ثمانية أشهر أن يعود إلى العمل بالمستشفى ولكن بدون جدوى ، كانت الصدمة شديدة الوقع عليه فغادر ڤينا بدون أن يودع أصدقاءه القليلين ، وذهب إلى بودابست مسقط رأسه حيث إلتحق بالعمل بإحدى المستشفيات . وهناك أيضاً كانت نسبة الوفيات بين السيدات بعد الولادة عالية جداً ، فأدخل نظام غسل الأيدى قبل فحص أية سيدة ، وفى الحال إنخفضت نسبة الوفيات ، **إلا أن الحسد والأحقاد تغلبت مرة أخرى على الحق والدليل الساطع ! .**

عندئذ كتب " سيميلڤايس " كتاباً ممتازاً مزوداً بالوثائق والإحصاءات كان أثره الوحيد أن إشتدت حملة الهجوم عليه مما أدى إلى إصابته بالجنون . ومات " سيميلڤايس " فى مستشفى الأمراض العقلية دون أن يتلقى كلمة شكر واحدة على عمله الرائع فى إنقاذ السيدات من الموت .

وبعد موت " سيميلڤايس " وبعد إكتشاف أهمية غسل الأيدى والنظافة والتعقيم فى منع العدوى عرفت الأوساط الطبية فضل " سيميلڤايس " الذى شهد له الجميع بأنه كان فعلاً " **منقذ الأمهات** " ، وكان أول من نبه إلى وجوب إستخدام المطهرات .

إن الإنسان المجتهد المثابر المخلص يقابل دائماً بالحقد والحسد من الآخرين ، ولكن عليه ألا يلقى بالاً لذلك ، بل يجب أن يضع نصب عينيه أنه يعامل الله ، وأنه لا ينتظر الشكر أو الثواب من مخلوق .

إن الذين كافحوا وناضلوا وتعبوا من أجل الإنسانية كانوا يتجهون دائماً إلى **تحقيق هدف معين غير عابئين بما يوضع أمامهم من عوائق وبما يلاقونه من صعوبات ، ولو ألقوا بالاً إلى ردود فعل البشر ما إستطاعوا الإستمرار فى طريقهم ، ولكنهم أصموا آذانهم عن نقد الآخرين لهم وسخريتهم منهم ، وواصلوا جهادهم حتى النهاية ، فتحققت أخيراً أهدافهم وأفادت الإنسانية بكفاحهم** ، وسُجلت أسماؤهم وأعمالهم فى سجل الخالدين وكتب لهم الثواب عند الله .

(٤) هيلين لانج

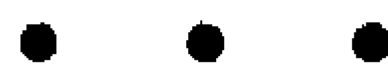
هيلين والأعمى

حين ُرزق بها أبواها لم يكن يتسع رزقهما لتعليمها ؛ فقد كانا من ضيق الحال بحيث أهملاها .

لكن بعد مضى بضعة أعوام على مولدها فى مدينة " أولد نبرج " بألمانيا عام ١٨٤٨ وضحت بعض ملكّات الصغيرة " **هيلين لانج** " من الذكاء الحاد ، والطموح والرغبة فى التفوق ..

ولم يثنها فقر أهلها عن التطلع للتعليم مثل بقية بنات الجيران ، فإتصلت بأحد رجال الدين ، وتلقت على يديه أصول بعض العلوم ، ثم بدأت تدرس وتطالع وتعتمد على نفسها فى تثقيف نفسها حتى أجادت أربع لغات هى : الألمانية والفرنسية واليونانية واللاتينية .

ونهلت من الأدب الكلاسيكى ، وكذلك الأدب المعاصر ، فشد إنتباهها من تركوا آثارهم الواضحة فى المجال الفكرى فى كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، وإستغرقتها الأعمال الأدبية ، وبدت فى محراب الأدب أديبة ناشئة تنهل من المعين إستعداداً لعطاء أدبى .



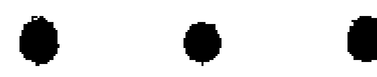
غير أن " هيلين " لم تكن تفكر فى أن تصبح أديبة ، بل تاقت نفسها لخدمة بنات جنسها فى بلدها لرفع شأنهن ، والمطالبة بتحقيق المساواة بين الفتاة والفتى فى حق التعليم ، وحق العمل ، وحق الحياة .

كان إقتناع " هيلين " برسالتها نابعاً من معاناتها شخصياً ومعاناة الفتيات فى بلدها فى ذلك الوقت . فقد كان تعليم الفتيات ناقصاً ، فدخول الجامعات كان محرماً عليهن ، والوظائف الكبرى كانت وقفاً على الرجال ، والمرأة الألمانية

كانت زوجة وأما فقط ، تعيش فى كنف الزوج ، وتعجز عن كسب قوتها إذ عصفت بها الأحداث وتيتمت أو ترملت .

هكذا كان موقف المرأة الألمانية ومعاناتها نصب عين الشابة " هيلين " وهى مستغرقة فى القراءة والتعلم ، لتزود نفسها بالسلاح المناسب حين ينطلق لسانها وساعداها للمناداة بحقوق بنات جنسها .

وفكرت " هيلين " فى كيفية بدء كفاحها ، وأين ؟ ، وتطلعت من بلدتها " أولد نبرج " إلى " برلين " حيث يمكنها أن تنادى بمبادئها عالياً .



وفى هذه الأثناء ألتقت هى وشاب رأت فيه فتى أحلامها ، وتعاهدا على الزواج بعد رباط من العاطفة النبيلة .

وعكفت " هيلين " على تعليم خطيبها ، وزودته بقسط وافر من ثقافتها ، وقررا الذهاب معاً إلى " برلين " للتعاون معاً فى تحقيق هدفها .

غير أن الشاب أصيب فجاة بمرض خبيث فى عينيه أودى ببصره فى بضعة أيام ، فحزنت " هيلين " ولم تدر ماذا تفعل ؟ ، أتقطع علاقتها به أم تمضى فى جهادها وهى زوجة لرجل كفيف ؟ ، فتحمل مسئوليتين وعبأين : **الكفاح وخدمة إنسان كفيف ؟** .

أجابت " هيلين " دعوة الوفاء والحب وتزوجت خاطبها المكفوف ، ثم عملت فترة فى أحد المصانع لكسب لقمة العيش وتوفير بعض المال .

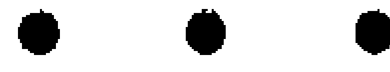
ولما توافر لديها مبلغ من المال سافرت إلى " برلين " فى صحبة زوجها .

وبدأت كفاحها المزدوج بنشاط لا يعرف الكلل ، كانت تخدم زوجها فى البيت كأحسن ما تكون الزوجة والأم ، وتسعى فى خارج البيت لتحقيق حلمها : بدأت تجرى إتصالاتها مع الصحفيين والأدباء وعظماء القوم من جيلها ، وشرعت تكتب الدراسات والمقالات تدافع فيها عن حق المرأة فى التعليم العالى ، وفى الإضطلاع بأكبر وظائف الدولة .

ولم يكن طريق " هيلين " مفروشاً بالزهور ، فقد سخر منها رجال السلطة ، وأوصدوا أبوابهم فى وجهها ، لكنها لم تيئس ، وظلت تكتب وتخطب وتكافح ،

حتى تولت رياسة مدرسة للمعلمات ، أقامت بنفسها معهداً نسوياً للتعليم العالى .

وفى عام ١٨٧٤م أصدرت مجلة " المرأة " التى ذاعت وإنتشرت ونفذت إلى كل بيت فى بضعة أسابيع .



وبعد كفاح دام نحو ثلاثين عاماً بدأت " هيلين " تقطف ثمار جهادها ، فقد تنبه رجال الحكم إلى نقص تعليم المرأة فى ألمانيا ، وتأثروا بالدعوة الصادقة الحارة التى لم تكل " هيلين " فى التبشير بها ، ففتحوا للفتيات أبواب الجامعات الألمانية ، وأجازوا لهن الحصول على الدبلومات العالية توطئة لإدماجهن فى سلك الإدراة وفى الوظائف الحكومية الكبرى .

وبذلك تحقق شطرٌ كبيرٌ من حلم المرأة من أجل أختها فى أنحاء بلدها ، وكان النجاح دافعاً لها إلى نجاح آخر ، وهو العمل من أجل إعادة بصر زوجها ، إذ راودها الحلم من جديد لعلاج بصره .

وبدأت " هيلين " تطوف بأنحاء أوربا بحثاً عن طبيب يعالجه ، ويكون علاجه ناجعاً ؛ فإتصلت بأشهر أطباء العيون ، وأنفقت بسخاء عن طيب خاطر ، وكان الأمل يملؤها بإعادة البصر لعينىْ شريك حياتها .

وتحققت المعجزة ، وأجرى أحد جراحى العيون الحاذقين عملية جراحية له ، فعاد إليه البصر ! .

وكان لعودة بصر زوج " هيلين " وقع عجيبٌ على حياتها ، فقد عكفت على إرضاء زوجها ، وشعرت بأن رسالتها الإجتماعية فى كفاحها من أجل حقوق المرأة قد تمت ، فتناست رسالتها ، وإستيقظت فيها شخصية المرأة . وأرادت أن تتجمل وتتحلى من أجل زوجها المبصر .. وتعيش الترف والمرح فى صحبته ..

لكن الزوج أبى أن تتخلى زوجته عن رسالتها ، فردها إلى صوابها ، وشجعها على مواصلة العمل فى مجلتها ، وفى الكلية التى كانت ترأسها ، وفى وضع الكتب التى كانت قد بدأت فى تأليفها ، فعادت إلى التبشير برسالتها وإستطاعت أن تنشئ أكبر جمعية للمدرسات وأكبر معهد لتعليم المهن والحرف للبنات فى ألمانيا .

ولما تقدمت بها السن ، وحلت محلها فى الجهاد إحدى تلميذاتها ركنت هى إلى

الحياة الوادعة فى بيت صغير فى الريف ، وإنقطعت لأعمال الفكر .

وهناك فى رفقة زوجها الحنون وتحت رعايته ووفائه وإخلاصه ، وضعت " هيلين لانج " مؤلفاتها الأربعة : دليل " الحركة النسوية " و " تطور التعليم النسوى فى ألمانيا " و " الفلسفة فى شعر شيلر " و " دراسات فى الأدب الفرنسى " .

فكانت هذه المؤلفات الأربعة إستكمالاً لنصرها وإضافة لخلود إسمها فى سجل الزوجات الوفيات ، والمناضلات من أجل حقوق بنات جنسها والريادة الفكرية لجيلها بين الأدباء .

ثم أصيبت " هيلين " فجأة بمرض فى القلب وتوفيت بعد أن كانت المثل الكامل فى الوفاء والإخلاص لزوجها ونفع بنات جنسها .

وعاش الرجل بعدها فى شيخوخته يكتب عن " هيلين " ، وينشر مؤلفاتها .

شخصيات لا تنسى ..

(٥) دميان دى فوستر

فى جزيرة مولوكاى

الصرخات تتعالى هنا وهناك .. الجنود تتدافع وسط الأحراج خلف أناس متفرقين .. أكواخ تحترق فى العراء .. الطلقات النارية تخترق الأجسام ... الصبية يبكون على أجساد تمددت على الأرض .. بالسلاسل يجرون أجساداً تكاد تكون عارية .. بالعصى يدفعون أمامهم البقية الباقية .. يطئون بأقدامهم دماء سالت على الصخور فإذا بها بصمات لإجرام البشر فى حق الإنسانية .

وكالغنم دفعوا بهم إلى الميناء .. إقتربوا نحو سفينة راسية .. صرخوا فيهم : إبتعدوا .. الأيدى مكتوفة ، الأجساد تترامى على حين أن العيون ترقبها . صرخات الألم المكبوتة ترتفع فى حين أن الآذان تسمع ولا تبالى .. آذان ليست كآذان البشر وإنما هى كالقبور الجوفاء تندفع فيها الصرخات فتدفن دون أن تثير أى إحساس ..

وعلى قطع خشبية ترابطت بعضها وبعض . أجبروهم على الصعود .. وتحركت السفينة تجرهم خلفها وهدأ كل شئ رغماً عن الأمواج المتلاطمة ! ، وبقيت الأجساد ساكنة كأنها التماثيل تتناثر عليها قطرات المياه .

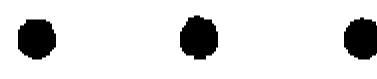
إرتفع صوت قبطان السفينة أمراً بإلقاء الخطاف وهنا أمر القبطان بأن يقطع الحبل الواصل بين قطع الخشب الحاملة الأجساد والسفينة ، وما إن أعلن الأمر حتى بدأت الصرخات تتعالى من هذه الأجساد الساكنة فقد كانت السفينة قد إقتربت من جزيرة " **مولوكاى** " إحدى جزر الهاواى وسط المحيط الهادى .. إنها المنفى الذى تقرر أن يكون لمرضى الجذام ! .

كان هذا هو نوع الرحمة الذى إستعمله المجتمع مع مرضى الجذام بعد أن كانوا يموتون جوعاً أو قتلاً أو دفنا أحياء ! . وكم كانت تحرق منازلهم بأكملها بمن فيها ، ولم تكن هذه الجزيرة أكثر رحمة : فقد ظل المرضى يعانون فيها من

المرض والألم والحرمان والجوع القاتل . مرض بلا شفاء يتأزم من يوم لآخر .. أطفال يولدون فى " مولوكاى " ليحكم عليهم بهذا المرض القاسى الذى لا يعرف الرحمة بحكم الإختلاط فى هذه البيئة المريضة .

أكثر من ٨١٦ مريضاً كانوا يعيشون حياة بلا أمل سوى أمل واحد هو الموت الذى ينجيهم من هول المعاناة . ورغماً من أن هذا هو الحال فإن المطامع البشرية لم تخمد والميول العدوانية لم تهدأ .

نعم .. كان هناك حقد جماعى على المجتمع بأسره الذى حرمهم حقوقهم ولم يهتم بهم ولكن الغريب أن تتحرك المطامع البشرية والميول العدوانية فى أفراد هذه الجماعة ضد الجماعة التى نفسها تعيش المعاناة . فقد كان " بلوك " أحد مرضى الجذام يتحكم فى أهل الجزيرة .. شخص لا يعرف الرحمة كان هو وأعوانه والمرض على أهل الجزيرة .



فى العاشر من مايو سنة ١٨٧٣ يقترب من الجزيرة قارب صغير يحمل رجلاً فى الثالثة والثلاثين من عمره يدعى " **دميان دى فوستر** " لم يكن كالباقين .. الإبتسامة تعلو شفتيه هدوءٌ عميقٌ ترقبه فى عينيه .. سأل عمن يحكم الجزيرة فأرشدوه إلى دار " بلوك " كان هوذا الدار (الوحيدة) فى الجزيرة بناية نظيفة من الخشب أما الباقون فيعيشون فى أكواخ .. ومنهم من يعيش فى جحور بين الصخور ، وبالقرب من دار " بلوك " سمع نقاشاً عالياً :

- أريد أن آكل .
- أين ما تبادلنى به ؟ .
- لم يبق معى شئ .. كل شئ أخذته منى .
- لكن بقى معك خنجر أعطنى إياه فأعطيك سمكة .

ولم يملك الرجل نفسه ودفع بالخنجر تجاه " بلوك " ، ولكن " بلوك " إنحنى قليلاً فجاز الخنجر بعيداً عنه ، ثم رفع مسدسه وأطلقه على الرجل فإندفع " **دميان** " نحو الرجل الملقى على الأرض فسأله بلوك على الفور :

- من أنت ؟ .
- " دميان دى فوستر " .

وضحك بلوك عالياً هو والنساء المرضى الذين جمعهم حوله وقال :

- جديد فى " مولوكاى " .. أليس كذلك ؟ .

- نعم .. ولكنى أفكر فى المجئ إليكم منذ سنوات .

- منذ أن أتاك المرض ! .

وإبتسم " دميان دى فوستر " إبتسامة هادئة .

- أنا لست مريضاً .

بدت الدهشة على الجميع إلا " بلوك " الذى قام من مجلسه وصرخ فيه .

- ولماذا أتيت ؟ .

- أنا جئت لأجلكم .

- يجب أن تعرف أنى أنا الذى أحكم هنا .. ولا تظن أنك تستطيع أن تنتزع السلطان من يدى .

- مع الأيام ستعرف لماذا أتيت ؟ .

وخرج " دميان " من بيت " بلوك " وتحرك فى الجزيرة . كل شئ يبدو سقيماً .. وجوه مشوهة .. آهات من هنا وهناك .. ثياب ممزقة .. جحور قذرة تطل منها رءوس سرعان ما تختفى مرة أخرى ، **ورغماً عن كل هذا فإن الإبتسامة لم تغب عن وجه " دميان "** .. وجلس إلى جوار شجرة مرهقاً بعد أن فشلت كل محاولاته فى التحدث مع أى من أهل الجزيرة وأخرج طعامه ليأكل .. وهنا تحولت العيون ترقبه ، فمد يده بالطعام إليهم بإبتسامة هادئة وروح صادقة لم يعتادوها ، ولذا فقد ظلوا بعيدين لا يصدقون أن شخصاً فى" مولوكاى " يعطى الآخر . فقام " دميان " من مجلسه وقدم إلى كل منهم ..

وفى ساعات كان قد عرف " دميان " طريقه إلى القلوب وبدأت الإبتسامة ترتسم على الوجوه من حوله ولم يخفها إلا آهات صدرت من خلف الأشجار ..

كان هناك شخصاً يريد أن يأكل لكن جسده كان قد تغشى فيه المرض لدرجة أنه تحلل وصارت تنبعث منه رائحة كريهة حتى إن مرضى الجزيرة أنفسهم كانوا يخافون النظر إليه .. طلب أن يضعوا له شيئاً من الطعام على صخرة فيأتى ويأخذه ولكن الطعام وزع ولم يبق شئ فى سلة " دميان " ولكنه رفع السلة وكأنه على يقين من أنها ستمتلئ .. فبدأ كل من الأشخاص يقوم مما يأكل ويضع فى

السلة وربما قدم أحدهم الشئ قبل أن يتذوقه .. وأخذ " دميان " السلة ليذهب تجاه الشخص ليقدمها له ، ولكن الباقين صرخوا خائفين على " دميان " هدأهم ، **وبروح الحب الذى لا يعرف الخوف تقدم نحو المريض وأعطاه الطعام قائلاً :**

- أحب أن نتقابل مرة أخرى .. أريد أن أحدثك يا أخى الحبيب .

كان هناك شئ غامض قد تطرق إلى هذه النفوس ليغير تماماً ما بها وليفتح فيها أبواباً جديدة للحب كانت قد أغلقتها قسوة الأيام ..

• • •

مع صباح اليوم التالى كان " دميان " يسير على شاطئ الجزيرة حين رأى قطعاً خشبية تحمل مجموعة من المرضى وهنا ألقى ما بيده وإندفع بملابسه فى المياه مرحباً بهم وسحبهم إلى الشاطئ .. والغريب أنه وجد بينهم شاباً أبكم ولكنه ليس مريضاً ، لذلك قرر " دميان " - خوفاً عليه - أن يبعده عن المجموعة حتى لا يصاب بالعدوى .

لم يتعرف " دميان " على كل جوانب الجزيرة ، لذا حاول أن يكمل جولته فى هذا اليوم .. كان الجانب الآخر أسوأ حالاً ، فمن شدة الرطوبة فيه كان المرضى يعيشون بين الصخور وهذا المكان هرب إليه كل من ساءت حالتهم . وحين تقرب " دميان " من المكان سمع صراخاً عالياً . سأل فعرف أن هناك إمرأة مريضة تلد ، زحف " دميان " إلى الجحر وخرج ومعه طفل وليد حمله على يديه ، وقرر فتح دار للأطفال تبدأ بهذا الطفل وعهد بها إلى الأبكم .

وبذلك أدخل " دميان " ولأول مرة فى التاريخ نظام المصحات الوقائية بعد أن كان يحكم على الأطفال أن يصيروا مرضى من صغرهم بحكم البيئة وتأثير العدوى .

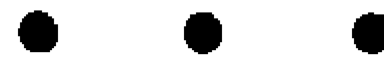
بعد مشقة النهار الطويل ركع " دميان " على الأرض ليرفع صلاته وشكره إلى السماء .. تقرب من حوله الكثيرون وبدأت الأفواه تردد معه ، وتكرر الأمر فى الأيام التالية ، وهكذا بدأ ، الإيمان يتطرق إلى قلوب كانت قد فقدت صلتها بالسماء بعد أن أفقدوها صلتها بالأرض .

إلا أن " بلوك " لم يطق هذا الأمر فحمل بندقيته وإندفع نحو " دميان " وجمهور المصلين فما كان من " دميان " إلا أن إستقبله بإبتسامة مرحباً به ،

ولكن " بلوك " طلب منه أن يغادر الجزيرة فوراً وإلا قتله .. في هذه اللحظة زحف الأبكم وسحب قدم " بلوك " فوقع على الأرض وأخذ أحدهم البندقية من يده وحاول أن يطلقها على " بلوك " ولكن " دميان " أمسكها من يده وإبتسم " لبلوك " قائلاً :

- أعرف قلبك المحب يا " بلوك " .. أشكرك لأنك أتيت إلينا .. إسمح لي أن آتي أزورك غداً وأرد لك بندقيتك .

وخفض " بلوك " رأسه وسار مبتعداً دون أن تصدر منه كلمة ..



كانت أخبار " **دميان دى فوستر** " قد إنتقلت إلى أنحاء العالم بعد سنوات قضاها بين المرضى وبدأت الصحف تتحدث عنه مشيدة بأعماله وداعية لمعاونته .. ولهذا السبب إجتمع مجلس وزراء جزر " هاواى " إجتماعاً عاجلاً بدعوة أحد الأعضاء الذى بدأ يقرأ عليهم ما كتبت الصحف عن دميان إلا أن الأعضاء وصفوا " دميان " بأنه رجل معتوه ، لأنه ألقى بنفسه في جزيرة معزولة عن العالم مع بشر لا تستطيع الأعين النظر إليهم ! .

وقام العضو من مكانه وفتح الباب الخلفي لحجرة الإجتماع ليرى كل الجالسين . " دميان " واقفاً بالباب .. وقاموا جميعاً خوفاً من عدوى المرض فطمأنهم قائلاً :

- لا تخافوا ! . ممكن أن تسمعوني من بعيد .. أنا لست مريضاً .. ولم ينتقل إلىَّ المرض . ورفع لهم أكمامه ، والملابس عن أقدامه ليؤكد سلامته ، فقال أحدهم :

- يجب أن نوقع عليك الكشف الطبي لنتيقن سلامتك وعندئذ نقبل عودتك .

- لم آت لأطلب البقاء عندكم لكني أتيت لأقول لكم شيئاً واحداً .. هناك في " مولوكاى " أناس مثلكم تماماً يحسون ويشعرون ، أناس مثلكم كانت لهم آمال عريضة والآن يموتون جوعاً بلا عناية ولا إحترام .. " مولوكاى " تطلب حبكم قبل أن تطلب معونتكم .

ودمعت عينا " دميان " وقال لهم بنبرة من الأسى :

- أطمئنوا لم ألمس هنا أى شئ .

- إذن إسترح هنا أسبوعاً .

- هناك مرضى كثيرون لابد أن أسافر غداً ، وفتح الرئيس درج مكتبه ليخرج قصاصات الجرائد التى تتحدث عنه ، ولكن " دميان " أمسكها بيده وركنها جانباً :

- ما أسهل الكتابة على الورق ! .

وإبتسم الرئيس قائلاً :

- معك الحق .. تعالَ معى .

وإتجها نحو إحدى الحجرات وفتحها الرئيس .. كانت الحجرة مملوءة بالأدوية والأطعمة والملابس .

- هذه كلها من جمعية عالمية رفضت أن يذكر إسمها .

- إذا كانت الحال هكذا فلن أنتظر للصباح يجب أن أسافر الليلة .

• • •

عاد " دميان " إلى الجزيرة وبدأ فى علاج المرضى وكان أولهم " بلوك " الذى ذهب إليه فى منزله وبدأ يعالجه .. وسأله " بلوك " على الفور :

- كم تريد ؟

- لا أريد شيئاً .

- ولكنى لم أتعود أن أشكر أحداً .

- ولا أريد الشكر .. يمكنك أن تشكره هو ورفع " دميان " يده مشيراً إلى السماء ..

بقى " دميان " ثلاثة أيام ثم إنتقل إلى الجانب الآخر من الجزيرة ليقدم العلاج والطعام والملابس إلى المرضى هناك وحين ذهب " دميان " خرج خلفه " بلوك " وأعوانه ليتيقنوا ذهابه .. ثم إتجهوا نحو منزله وهدموه .. وبدءوا فى بناء بيت جديد .

عاد " دميان " ليجد بيته الجديد ، وكم كان سروره عندما عرف أن " بلوك " هو الذى بناه ، فترك كل شئ وإنطلق مسرعاً نحو بيت " بلوك " .

- أشكرك يا " بلوك " لأنك قبلتنى صديقاً لك .

- من قال لك هذا ؟

- أنت الذى تبنى البيت الجديد ؟ .

- هذا شئ أمام شئ .. من الآن ليس لك فضل علىَّ ، صنعت لك أكثر مما صنعت لى ..

إقترب " دميان " من " بلوك " وربت على كتفه قائلاً :

- أنت لست شريراً يا " بلوك " .

- لقد رأيتنى وأنا أقتل .

- ولكن هذا لا يعنى أن تبقى شريراً .. من الممكن أن تتغير . حين تعرف أنك شرير وتحتاج أن تتغير أطلب من الله وتضرع له معترفاً بإثمك وهو سميع مجيب .

• • •

مع مطلع ١٨٨٢ إقتربت سفينة الملكة " **كابيولانى** " ملكة " **هاواى** " إلى جزيرة " مولوكاى " حيث أتت الملكة مع الحاشية لزيارة الجزيرة وتشجيع " دميان " .. وسُرت كثيراً لمشاهدتها التحسينات التى أدخلها ، وقد وجدت فى المصح ٣٠ ولداً و ١٣ بنتاً يتمتعون بصحة طيبة وطلبت الملكة أن تتولى تربيتهم فى " هونولولو " عاصمة " هاواى " .

أثارت تضحيات " دميان " الأثر الحسن فى النفوس وإنتقل إلى الجزيرة شخص آخر لمعاونته كما إنتقل العالم " **موريتز** " وقبطان السفينة التى نقلت " دميان " لأول مرة للمعاونة فى جزيرة " مولوكاى " - ورحب بهم " دميان " وقدم لهم الطعام ثم علق قائلاً :

- هذا الطعام للإحتفال بكم .. لكن لا تظنوا أننا نستطيع هنا أن نأكل كل يوم ! .

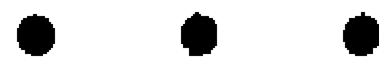
• • •

وذات يوم عاد " دميان " متعباً من السير ودخل إلى بيته فوجد إناء به ماء وضع به قدميه ليغتسل وحين وضع يديه لإستكمال غسيل رجليه إكتشف أن الماء ساخن جداً وهو الأمر الذى لم يدركه بقدميه ، فأطلق صرخة - عرف أن المرض قد أصابه وبدأ الحزن يتطرق إلى قلب " دميان " .

ومع الأيام إستفحل المرض فى جسد " دميان " ولكنه لم يتوقف عن المواصلة

فى بذل نفسه إلى اليوم الذى أتى فيه رسام مشهور من لندن خصيصاً ليرسم " دميان " تكريماً لأعماله .. وما أن إنتهى من الصورة ورآها " دميان " حتى بدت عليه الدهشة .. كان المرض قد شوه صورته تماماً فبدا بشعاً بعد أن كان وسيماً .. وبينما هو فى دهشته دخل رجل ليخبره بأن هناك مرضى قد أتوا حديثاً إلى الجزيرة فإعتذر للرسام .

- آسف لابد أن أذهب لإستقبالهم .



فى يوم ١٥ من إبريل سنة ١٨٨٩ كان المرض قد قسا على " دميان " حتى أنه أقعده عن الحركة وبدأت أنفاسه تخرج بصعوبة .. فطلب منهم أن يرى كل أهل الجزيرة .. وتجمعت كل الجزيرة وكان الحزن يعلو الوجوه .. والدموع تتكاثف فى الأعين .. ولكنه طلب منهم أن يصلوا معاً وما إن إنتهت الصلاة حتى قال :

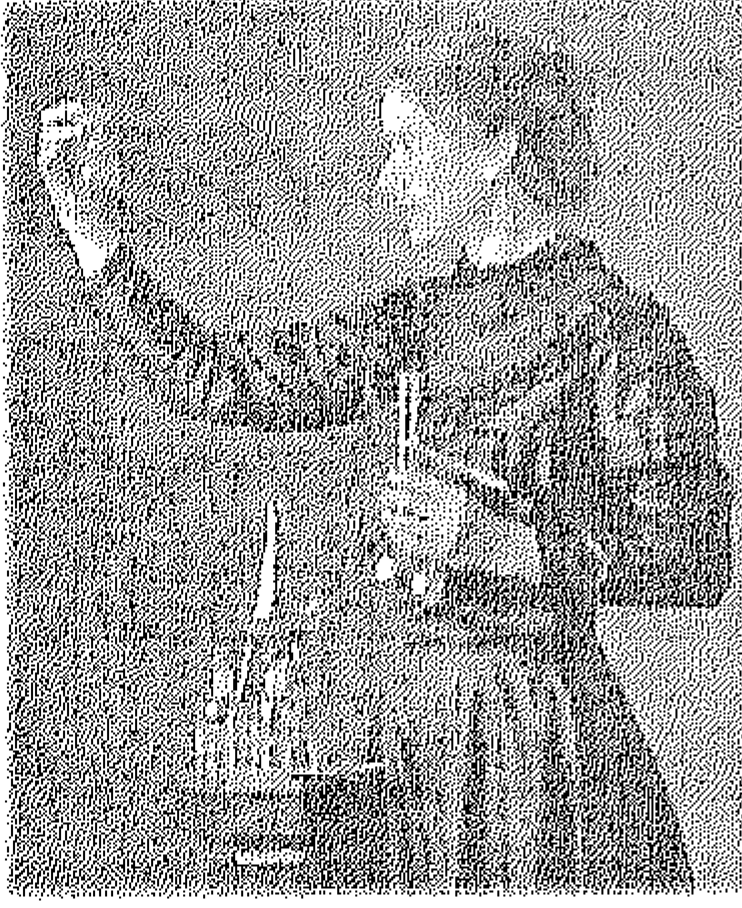
- أريد كل أهل الجزيرة .

- كلهم الآن هنا .

وهز " دميان " رأسه .. ليس جميعهم .. ولكن فى هذه اللحظات كان " بلوك " قد عرف أن " دميان " على وشك أن يفارق الحياة فأتى إليه .. فحاول " دميان " أن يرفع نفسه عن الفراش وقال بأنفاس متقطعة :

- أشكرك يا " بلوك " لأنك أتيت .. الآن جميعهم هنا .

ولفظ " دميان " أنفاسه الأخيرة ولأول مرة بكى " بلوك " راكعاً إلى جوار فراش " دميان " .. وهكذا فقدت جزيرة " مولوكاى " الراعى الصالح والحبيب الوفى ، لكن الطريق الذى رسمه بكفاحه وتضحياته ظل مضيئاً بأناس آخرين ينثرون الأمل والحب بين نزلاء الجزيرة .



شخصيات لا تنسى ..

(٦) مارى سكلودوفسكا

ففراء فوق طن من القار

المكان : بلدة فارسوفيا بپولندا .

الزمان : عام ١٨٦٧ م .

فى تلك البلدة وفى ذلك العام رزق " **سكلودوفسكا** " أحد علماء بولندة بطفلة أسماها " **مارى** " .

وسجلت طفولة " مارى " شغفاً موروثاً بالعلم ، لكن أحلام طفولتها وشبابها المبكر بأن تكون عالمة فى بلدها مثل والدها لم تزدهر بسبب الظروف السياسية فى البلاد وكفاح شعبها من أجل التخلص من إستبداد حكم القيصر .

وشاركت " مارى " فى معركة الكفاح بقلمها ، فكانت تكتب مقالاتها فى صحيفة " الدعوة " التى كانت تصدر خلسة باللغة القومية حيث كانت اللغة القومية محظوراً إستخدامها إلى جانب اللغة الروسية التى كانت تفرض على قاعات العلم والصحافة والكنائس .

ووجدت " مارى " نفسها تحت رقابة البوليس السرى وتعقبه لها بسبب نشاطها الوطنى . وتحت وطأة مطاردة البوليس السرى لها ، وتضييق الخناق عليها قررت " مارى " أن تهجر بلدها إلى " باريس " .

وفى " باريس " واجهت " مارى " الحياة بسنوات عمرها الشابة فى الرابعة والعشرين ، وبأحلامها فى البحث العلمى ، وبضرورة البحث عن عمل لأجل لقمة العيش . وإرتضت أن تقيم فى غرفة فوق سطح أحد المنازل المتواضعة ، وتعلمت أن تكتفى بما عندها من الملابس والطعام بحيث لا تزيد نفقات اليوم الواحد عن نصف فرنك فرنسى ! .

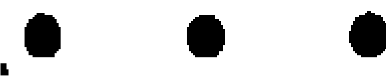
ولم يشكل شظف العيش عقبة فى سبيل حلمها العلمى ، إذ وجدت أن معامل

جامعة السوربون الفرنسية خير مكان لتحقيق هذا الحلم لإتمام دراستها العلمية .

وكانت تعلم أنها فتاة غريبة فقيرة وأن دخول محراب السوربون أمر صعب المنال .. بل شبه مُحال . وإستقر فكرها على أن أفضل الأبواب لدخول السوربون ومعاملها هو الباب الخلفى .. باب الخدم ! .

ووفقت " مارى " فى الإلتحاق خادمة بمعامل هذه الجامعة حيث كانت تغسل أنابيب الإختبار والقوارير والبوتقات بعد إستخدامها فى التحاليل والتجارب العلمية التى يقوم بها طلبة الجامعة .

وكانت طبيعة عملها تتطلب أن توجد بين طالبات وطلبة الجامعة وهم يجرون أبحاثهم وتجاربهم حتى يتسنى لها غسل الأدوات أولا فأولاً وهكذا تابعت إجراء التجارب بلا رقيب ! .

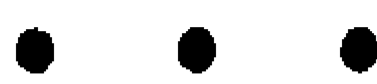


وفى عام ١٨٩٤ أى بعد مضى ثلاث سنين على (تجاربها غير الرسمية) فى معامل السوربون تعرفت على شاب فى الخامسة والثلاثين فى بيت أحد أساتذة الجامعة ، وكان هذا الشاب وقور المظهر جاد الملامح ويعمل باحثاً علمياً تحت إشراف " شوتز نبرجر " مدير معهد العلوم الطبيعية والكيمياوية بالعاصمة الفرنسية .

وتطرق للحديث بين " مارى " وبعض الصديقات والأصدقاء وهذا الشاب ويُدعى " بول كورى " إلى حياة العلم ومدى جدية التفرغ للبحث والتجارب العلمية .

وكان رأى هذا الشاب أن الرجل أجدر من المرأة بحياة البحث ، كما أن الرجل الباحث لا نجد لديه متسعاً من الوقت لإضاعته فى الزواج من إمرأة سطحية .. وإن وجدت المرأة المناسبة وجب أن تكون ذكية وعبقرية .. وقال الشاب : " إن وجود إمرأة بهذه الصفات أمر صعب بل مستحيل ! " .

ودافعت " مارى " عن المرأة ، وأنكرت عليه هذا الرأى .



وتوجهت " مارى سكلودوفسكا " إلى معهد العلوم الطبيعية والكيماوية وسألت

مديرة نبرجر أن يوافق لها على العمل فى المعهد تحت إشراف " بول كورى " .

وحصلت " مارى " على العمل ، وبدخولها المعمل أشاعت به لمسة طيبة من روحها المتعطشة للعلم وبشخصيتها مما ترك أثراً طيباً فى نفوس المحيطين بها من الباحثات والباحثين وبينهم المشرف على أبحاثها " بول كورى " الذى أعجبته شخصيتها وطلب الزواج منها .

وتم زواجهما عام ١٨٩٥م ، وعاشا فى بيت صغير به ثلاث حجرات تم فرشها بأبسط الأثاث وأرخصه . وواصلا عقب الزواج رحلة البحث والدراسة فلم يفضلا قضاء " شهر عسل " فى رحلة فى بلد آخر أو بعيداً عن المعمل ! .

وفى العام التالى لزواجهما ١٨٩٦م أعلن " بول كورى " نتيجة كشف للأشعة السينية التى يستطاع بإستخدامها تصوير العظام .

وفى أحد الأيام المعملية ترك " بول كورى " قطعة من الأورانيوم فوق إحدى صفائح التصوير الفوتوغرافى فى الغرفة الخاصة بذلك ، ولاحظ " بول " أنها تركت أثراً ، فإستعمل مواد أخرى لإختبار الظاهرة نفسها بدون الأورانيوم ، فعرف أن أحد أنواع القار يحتوى على عنصر أشد قدرة من الأورانيوم على النفاذ فى المادة . ورأى " بول " وزوجته " مارى كورى " أن البحث عن هذا العنصر يستحق إجراء الأبحاث والتجارب حتى لو إمتدت لسنين عديدة .

وإشترى " آل كورى " طناً من القار وركزا أبحاثهما عليه فى قطعة أرض فضاء أقيم عليها بناء من الصفيح كان يستخدم من قبل مَخزناً لتقطيع الجثث التى يتم توريدها للمشرحات للتعليم . وكان عملهما طوال كل يوم تسخين كمية من القار إلى أن تغلى ثم يرشحاها ثم يكررا العملية بصبر عجيب بحثاً عن العنصر المنشود الذى له قدرة على النفاذ فى المادة أكثر من الأورانيوم .

وفى العام نفسه (١٨٩٦م) رزقا بأول طفلة لهما وأسمياها " إيرين " (وهى لفظة يونانية تعنى : السلام) . وإكتفت مارى بأسبوع واحد للراحة بعد الولادة ؛ لتستأنف تجاربها العلمية مع زوجها . وشجعها على مواصلة البحث وجود أبى زوجها معهما فى بيتهما بعد وفاة حماتها إذ أخذ الجد على عاتقه رعاية حفيدته فى أثناء وجود أبويها فى المعمل .

وكاد اليأس يتسرب لنفس الباحثين ! . فقد مرت ثلاث سنوات فى عمليات

إغلاء القار وترشيحه بحثاً عن المادة المنشودة دون جدوى ! .

وقبل " بول كورى " عرضاً للعمل فى سويسرا أستاذاً لكرسى الطبيعة فى جامعة جنيف ، وسافر بالفعل ليبدأ عمله ..

ومرضت " مارى " .. لكن مرضها لم يقعدها عن البحث .. بل أقنعت زوجها بالمعمل مرة أخرى لإصرارها على إستخراج تلك المادة المجهولة ! .

وتوج الجهد بالنجاح بكشف تلك المادة أخيراً فى عام ١٨٩٨ وهذه المادة تمثل كشفاً خطيراً فى تاريخ العلم والأبحاث العلمية ، فهى عنصر يفوق الأورانيوم فى تأثيره ٣٠٠ مرة ! . وتم إستخراجه من أملاح البزموت فى شكل معدن النيكل .

وأطلقت " مارى كورى " على العنصر إسم " بولونيوم " تيمنا بإسم وطنها بولندة ، ورحب زوجها الفرنسى بإختيارها . ثم تمكنا من إستخلاص العنصر الفعال من ذلك المعدن ، وكان إشعاعه يخطف البصر لدرجة أن الأنابيب التى كانت تحتويه تسطع فى ظلام الليل ! . ولذلك أسمته " الراديوم " أى " الوهاج " .

وعرف الزوجان العالمان نفع العنصر المُكتشف ، إذ يشع عن قوة كامنة تبلغ ضعف قوة الفحم الحرارية ٢٠٠ ألف مرة ، وإشعاعه يخترق المادة ويقضى على الجراثيم الحية ، ويميت جذور السرطان الخبيث .

وعرف العالم بأسره الإكتشاف الخطير للعالمين ، وشعر العالم بالعرفان للمكتشفين ومنحا جائزة نوبل ووسام الشرف وأختير " بول " أستاذ كرسى الطبيعة فى السوربون ، كما أختيرت " مارى " للتدريس بأحد المعاهد العليا .

ورفض الزوجان العالمان الفقيران تحقيق ثروة من وراء الكشف ، فقررا أن يكون إستخدام الراديوم فى الكشف والعلاج والصناعة حقاً لكل بنى البشر بلا تمييز .

لكن من أين لهما مادة الراديوم لمواصلة البحث عليها وهى غالية الثمن ؟ . وقبلت " مارى " هدية أمريكية هى : جرامٌ من الراديوم لإستكمال بحوثها عليها .

وفى عام ١٩٠٦ إهتز العالم لنبأ مصرع " بول كورى " فى حادث سيارة ..

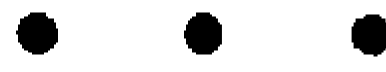
وفجعت " مارى " ..

وكانت مارى أول سيدة تشغل منصب أستاذ بجامعة السوربون حيث تم تعيينها فى مكان زوجها .. وهو المحراب الذى سعدت بدخوله يوماً من باب الخدم لتبدأ كفاحها العلمى .

وحين بدأت عملها بالسوربون .. دخلت إلى قاعة الدرس متشحة بالسواد .. منصوبة القامة .. حزينة .. قوية الملامح وإستأنفت الدرس حيث كان يقف زوجها قبيل مصرعه .. فبدأت فى إلقاء محاضراتها الأولى بقولها :

- فى المحاضرة الماضية سمعتم ...... ونواصل البحث فى ..

وإختنقت العبرات فى حلقها قبل أن تصل لمآقيها فوجدت الدمع فى عيون الكثير من الطلاب .



وفى عام ١٩١٠ **ختمت " مارى كورى " إنتصاراتها العلمية بإستخلاص الراديوم الخالص من أملاحه ، فقدرها العالم مرة أخرى بحصولها على جائزة نوبل للمرة الثانية .**

وأسلمت " مارى كورى " روحها عام ١٩٣٤ وتركت الأطباء والمرضى وذوى قرابتهم يصلون لأجلها وكلهم عرفانٌ بصنيعها العظيم .

(٧) ولبرفورس

العبيد أصبحوا أحراراً

إقتربت السفينة من الشاطئ وألقت بمراسيها وما هى إلا لحظات حتى بدأ الصراخ ينبعث ، إرتبك كل شئ وإنتاب الذعر المكان .. كتل سوداء من البشر تتحرك صارخة .. الأقدام تتحرك ولا تعرف أين تتجه ؟ . أشخاص يقعون تطحنهم الأقدام .. شخص يجرى تصطدمه شجرة .. يقع مغشياً عليه .. آخر يلقى بنفسه فى المياه ولا يدرى إلى أين مصيره ؟ .

إنه الرعب الذى إجتاح هذه البلدة الأفريقية الهادئة .

كل شواطئ أفريقيا الجنوبية كانت تخشى هذا المصير ، أن تقترب سفينة تجار الرقيق من شواطئها وبها " الأبيض " الذى يخرج حاملاً أسلحة غريبة يحطم ويدمر كل شئ ! . يقتل العجوز ويسرق الشاب ، يحرق الأكواخ ويجر النساء إلى رحلة مجهولة المصير ! .

كان الصراخ يدوى فى كل مكان والنيران ترتفع على حين أن البيض يسوقون أمامهم أعداداً كبيرة مما تبقى من أهل المنطقة .. يربطونهم بالسلاسل مجموعات مجموعات .. يلسعون أجسادهم بالسياط .. الدماء القانية تسيل على تلك الأجساد السوداء .. الدموع تملأ العيون .. القلوب تتمزق بعد أن فقدت أغلى ما عندها (الحرية) ! .

الأبيض يسير مبتهجاً يعد غنيمته .. يكاد يطير فرحاً .. يحلم باللحظة التى يصل فيها إلى شواطئ الهند الغربية ليبيعهم ويقبض ثمنهم ، فى حين أن الأسود يتمنى لو تقف الحياة ، ولا تواصل المسير ، فهو الآن يدرك الغد ..

إنه غدٌ بلا أمل نصيبه منه الألم والعذاب ! . إنه من الآن لا يتحرك وإنما يحركونه .. لا يتكلم فقد كمموه ! . لن يسمع إلا شتائم ولعنات سيده .

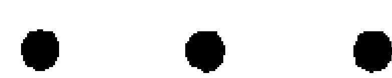
كانت هذه هى دورة الفكر فى عقولهم وهم ينقادون بالقرب من السفينة الراسية ويتطلعون بعيونهم نحو بلادهم التى يتركونها غير آملين فى العودة إليها .. كانوا يسحبونهم لكنهم كانوا يودعون أياماً ! . تسمرت أقدامهم بالأرض .. وعيونهم تعلقت بديارهم المتروكة ، ولم يفيقوا إلا على لسعات السياط وطلقات البنادق . وأسرعت الخطى نحو المصير المحتوم .

أقترب الأول من باب السفينة ، أطبق عليه شخصان كلٌ من جانب وإنطلقت صرخة فزعت لها طيور السماء . لقد دمغوه بالنار فقد كان كل تاجر من تجار العبيد يدمغ بضاعته من البشر بختم ساخن خاص به . وإرتفعت الشهقات من قلوب باكية ، وهوت السياط على الأجساد ! .

وفى السفينة كانت هناك أماكن خاصة للعبيد كل بمفرده . كانت مساحة المكان المخصصة لكل عبد تتردد بين قدمين إلى أربع أقدام ! . ذلك هو المكان المخصص لرحلة طويلة شاقة من المناطق الإستوائية فى أفريقيا إلى جزر الهند الغربية ..

لم يكن أحدهم يستطيع النوم طوال الرحلة أو تغيير موضعه فى الليل أو النهار . فالمكان لا يسمح إلا بالوقوف على الأقدام .. حتى الأيدى والأقدام مكبلة .. وبكل اللوعة كانوا ينتظرون وقت الطعام .. إنه الوقت الوحيد الذى يخرجون فيه من حجراتهم وتفك قيودهم حيث يقدم لهم طعام الأرز جماعات فى وعاء مستطيل ، ومن طول الوقوف فى الرحلة كانت أقدامهم غير قادرة على الصمود ، فكان السوط يلسع الأجساد وإذا لم يصلح السوط بدءوا الكى بالنار وثقب الإبهام بمسامير سوداء غليظة .

ومع دورة الأيام تتوقف السفينة عند جزر الهند الغربية - إحدى المستعمرات البريطانية - حيث يعرض التاجر بضاعته من البشر فى سوق العبيد كأنهم الآلات أو المواشى ! .



وفجأة توقف " إسحاق ملنر " - المدرس فى مدرسة " هلّ " الإبتدائية بإنجلترا - عن سرد هذه القصة وهو يتطلع إلى أحد الصبية فى فصله وقد دمعت عيناه وبدت منه شهقة خافتة ، إتجه نحوه الأستاذ .. سأله عن سبب دموعه ، ولم يكن هناك جواب إلا أن الطفل الذى لم يتعد التاسعة من عمره إرتفعت شهقته .

فأمسك مدرسه بيده وهو يمرر يده بحنان على رأسه ، وخرج به إلى الخارج حيث إستخرج له تصريحاً بمغادرة المدرسة نظراً لتعبه .

مع صباح اليوم التالى إنطلق " ولبرفورس " الغلام الصغير الباهت الوجه وقد أمسك بحقيبة كتبه وهو يسرع الخطى فى طريق مزدحم فى مدينة " هل " البريطانية الكثيرة الحركة .. وبرغم ضعفه فإنه كان فتى جذاب الملامح طلق المحيا ، تبدو عليه دلائل الرزانة وهو يتحرك فى شوارع المدينة بين هذا الجمع المزدحم .

وعلى باب المدرسة كان يقف معلمه " إسحاق ملنر " الذى كان يتطلع إلى كل صبى وهو يدخل المدرسة .. كانت الإبتسامة تعلو شفتيه يتبادلها وتلاميذه ، وكل طفل يمد يده إلى ذلك الرجل الرزين ويضغط يده والبشاشة تعلو وجهه وكأنما هناك شئ هو أكبر وأعمق من الظواهر .

أقترب " ولبرفورس " من المدرسة وإندفع نحو مدرسه .. حياه بإبتسامته الخارجة من عمق قلبه وكأنما هو صديق قديم له لم يره من شهور ! . طلب منه أن يتحدثا فى مكتبه . وهناك سأله عن سبب بكائه ، ونظر إليه الصبى وهو لا يجيب فعاد يكرر سؤاله ويقول :

- هل هناك شئ أستطيع مساعدتك فيه ؟

وهز الصغير رأسه وهو يتطلع إلى عينى معلمه ..

- هل تخجل منى ؟ . لم لا تقبلنى صديقاً لك ؟ . ولبرفورس : إنى أحبك أنت وأصدقاءك ولا أعتبر نفسى مدرساً فقط لكم .. تيقن أنى سأساعدك ، ما الذى دفعك إلى البكاء بالأمس ؟ .

وتمتم الصبى بتردد وصوت لا يكاد يظهر :

- قصتك .

- قصتى أنا .. ؟ ، إذن أنا آسف .

- كلا يا سيدى لكنى أحببت قصتك ..

- غريب ! . وهل حبك لقصتى يدفعك إلى البكاء ؟

- كنت متألماً وأنا أتصور نفسى مكان أحد العبيد .

وعادت دموع الصبى من جديد .. وضمه مدرسه بين ذراعيه وهو يقبل جبهته :

- ولبرفورس .. إنى أحبك أكثر من قبل .. بل إنى أحترمك .

- هل تعرف يا سيدى .. بالأمس ذهبت وقبلت " فانتى " .

- من " فانتى " ؟

- عبد أسود صغير إشتراه أبى من السوق . آسف يا سيدى .. بل هو صديق .. أتعلم أنى شعرت بحبه ؟ .. من أمس بدأت أساعده فى العمل دون رؤية أبى .. إنه فى مثل عمرى . حكى لى كل ما قاساه وأرانى مكان الختم الساخن على ظهره .. تماماً كما رويت لنا .

ودق الجرس وإنطلق الصغير إلى فصله وكلما خطا خطوة توقف ونظر إلى الخلف وتطلع إلى مدرسه الوقور وهو يبتسم له وكأن عينيه أبتا أن يبتعد دون التطلع إليه .

وتوقف " إسحاق ملنر " مكانه متطلعاً إلى لا شئ ساكناً لا يتحرك .

• • •

- كنت أحكى لهم قصة ولكنى لم أشعر بها شعور هذا الصبى .. لقد فكر وبدأ يعمل .. أنا تكلمت فقط . لكنه ترجم إحساسه إلى عمل .. إنى أشعر بضآلتى أمام هذا الصغير ! .

وفى الأيام التالية كان " إسحاق ملنر " يتركه يحدث أصدقاءه من التلاميذ ويشرح لهم ما يجول بخاطره وفى قلبه ، وبالرغم من أنه كان كلاماً بسيطاً غير منسق فإنه كان يدل دلالة واضحة على ما يختلج بقلب هذا الصبى ، فقد كان يحدثهم عن خيالات كثيرة .. فرسان ينطلقون ليحرروا العبيد من قيودهم ...

يحدثهم عن وقت تحرر فيه كل العبيد وصار الأبيض يحب الأسود .. عن وقت توقفت فيه الحروب والكراهية وإنتشر الحب والتضحية .

ولما كان " إسحاق ملنر " يشعر بحب غير عادى لتلميذه " ولبرفورس " فقد شمله بحبه ورعايته وشجعه حتى إنه إتفق له - بعد سنوات - مع إحدى الصحف الصغيرة على نشر أفكار " ولبرفورس " وقصصه بأسلوبه الساذج البرئ كخواطر صبى ! .

كان فجر أحد أيام الشتاء حين خرج " ولبرفورس " من منزله إلى كوخ مجاور حاملاً معه بعض ثيابه وفتح باب الكوخ .. كان هناك " فانتى " مكبلة يداه نحو الحائط وكان جسده عارياً إلا من غلالة من الثياب الرثة على وسطه .. كان كل جسده يرتعش فى هذا البرد القارص .

حياه " ولبرفورس " وفك قيوده .. ولف عليه ملابسه ولكن " فانتى " رفض الثياب بهدوء والحزن يملأ نبرات صوته الباكى .

- كيف يا سيدى تضع ملابسك النظيفة على جسدى الأسود المتسخ ؟ .

ودفن " فانتى " رأسه بين يديه مستنداً إلى الحائط وراح فى البكاء .. وتوقف " ولبرفورس " مكانه لحظة لا يبدى حراكاً وقد تقاطرت الدموع من عينيه .. إلا أنه إستجمع قواه ومسح دموعه ، وذهب نحو " فانتى " وضمه إلى صدره بقوة .

- أخى " فانتى" .. لست أفضل منك فى أى شئ ليتك كنت تعرف القراءة فتقرأ ما أنادى به من أجلكم .

- يكفينى يا سيدى ما أشعر به من حبك ! ، وقطع " فانتى " حديثه وراح فى البكاء مرة أخرى .

- لماذا تبكى مرة أخرى ؟

- كنت أفكر فى إخوتى - هل عندهم سيد نبيل مثلك يخفف من الآمهم ؟ ، كانت أمى كبيرة السن حين أخذونا من بلادنا .. كانت تصرخ وهى ترانا نبتعد .. إلى الآن صوتها يرن فى أذنى .. رأيتها وهى تقع مكانها تنبش تراب الأرض لا أدرى الآن كيف هى ؟ .

- لا تخش شيئاً يا " فانتى " .. سأطلب من أبى أن يتركك تذهب لبلادك كى تراها .

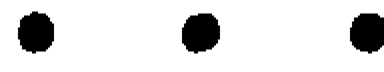
وبرغم أن " فانتى " كان يعرف أن هذا الأمر مستحيل فإنه حاول تقبيل يد " ولبرفورس " شكراً له .

وبالبراءة التى حملها " ولبرفورس " فى قلبه ذهب إلى والده وطلب منه أن يترك " فانتى " يعود لبلاده .

كان هذا الأمر هو آخر الأمور التى تحملها والده .. فقد صبر على ما يكتبه فى

الصحف وحاول منعه ، لأنه شعر أن مثل هذه الأمور تطغى على تفكيره كفرد فى عائلة أرستقراطية ولكن أن يطلب منه أن يترك العبد .. فهذا أمر لا يقوى على إحتماله ..

وعاد " ولبرفورس " يحنن قلب والده بكلمات مؤثرة ولكن هيهات أن تؤثر فيه ، فقد قرر أن يترك " ولبرفورس " مدرسته ويذهب عند عمته فى لندن ليلحق بمدرسة أخرى هناك .



وفى لندن عمدوا إلى إدخاله مدرسة لها دراسة شائقة عنيت قبل كل شئ بالرشاقة والأناقة .

وحفلت عطلاته بالمسارح والمآدب وحفلات الإيناس واللعب . وهكذا إندمج " ولبرفورس " بين أبناء الطبقة الغنية وشاركهم فى اللهو والمرح وهكذا إستمر سنوات إلى اليوم الذى خرج فيه إلى شوارع المدينة ، وصدمته الإعلانات التى ألصقت على جدران شوارع المدينة ، تذكر فيها أسماء العبيد الذين سيعرضون فى السوق للبيع بالمزاد ! .

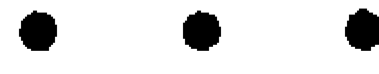
وهنا بدأ الصوت الذى أخفته الأيام فى الظهور من جديد ، وكتب وهو مازال طالباً فى السنوات النهائية من دراسته مقالاً شهيراً فى إحدى الصحف ذكر فيها مساوئ الرق عنوانها " التجارة البشعة الكريهة فى اللحم البشرى " .

ومن وقتها بدأت الأحاسيس تنبض فى صدره من جديد ، وما خفت عاد للظهور رغماً عن أن " ولبرفورس " إلى ذلك الحين لم يكن فى نظر أكثر أصدقائه إلا ذلك الشاب المرح ، خاصة عندما ترك دراسته الجامعية بعد أن أقنعه أساتذته بالعدول عنها ليتنبه إلى ما ورثه عن عمه ووالده من ثروة طائلة .

وفى هذا الوقت قرر " ولبرفورس " أن يدخل البرلمان ورشح نفسه عضواً عن دائرة مدينته " هلّ " ، وكان مضطراً لهذا أن يصادق جميع الناس ليربح أكبر عدد من أصوات الناخبين ، وسافر مرة إلى لندن ليطلب تعضيد ثلثمائة من أهالى مدينته كانوا يعملون فى مرافئ نهر التيمز ، وعلى حسب عادة ذلك العصر كان يولم الولائم الفاخرة فى الأمكنة العامة ليخطب فى الجموع .

وبعد ان أنتخب عضواً عن دائرة " هلّ " مـــال " ولبرفورس " إلى الإمتزاج

ثانية فى الطبقة الأرستقراطية المثقفة التى إمتازت فى هذا العصر - عصر الملك جورج الثالث - بالبذخ وركوب الخيل والصيد والقنص وإحياء الحفلات والمآدب ، وهكذا كان التذبذب فى حياته إلا أن قلبه مازال هو قلب " ولبرفورس " التلميذ البرئ فى مدرسة " هل " الإبتدائية .



وكان خريف سنة ١٧٨٤ حين سافر " ولبرفورس " مع معلمه العزيز وصديقه القديم " إسحاق ملنر " ذلك الرجل الذى أحبه ولم يستطع أن ينساه .. كان قد إتخذ لنفسه أصدقاء كثيرين من الطبقة الأرستقراطية الأنيقة ، لكن " ولبرفورس " ظل يحسب هذا المعلم القديم من أوفى أصدقائه وأحبهم إليه على الرغم من الفارق الصارخ بين الشاب الظريف الأنيق الأرستقراطى وبين هذا الشيخ الهادئ الرزين .

وقد حملت أحاديث " ملنر " إلى " ولبرفورس " ذكريات مدرسة " هلّ " الإبتدائية .

- كنت أعرف أنك ستكون عظيماً ... أحسست من صغرك أنك سوف تعمل شيئاً عظيماً .

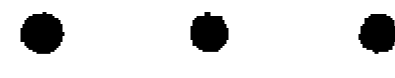
- ما هو ؟

- لست أدرى ولكنى أنتظره .. رغماً من أنك تغيرت كثيراً .

وفى عودتهما قرأ الإثنان كتاباً عنوانه " نهضة الدين وتقدمه " ، وقد حملت قراءته " ولبرفورس " على التفكير الرزين العميق ، وهكذا أخذ " ولبرفورس " يبحث فى معنى الدين .. وأحس إحساساً جاداً أنه عاش الدين على الهامش وكأنه عنصراً إضافياً فى حياته .. أو هو نظريات يحفظها ويؤكد إيمانه به على حين أنه إلى الآن لا يمارسها .. إنه يريد الدين عنصراً جوهرياً فى صميم حياته اليومية .. يتداخل فى كل جزء من أجزاء حياته ..

وعاد إلى عمله ولكن غرضاً جديداً فى حياته ملأ كل وقته .. وحال بينه وبين كثير من صنوف الملاهى والبذخ .. وتاقت نفسه إلى شئ آخر : أن يعرف كيف يترجم حب الله العارم فى قلبه إلى عمل يقدمه إلى إخوته فى الإنسانية وأعتاد فى الأيام التالية أن يبدأ يومه بالتأمل بين الحقول والأحراج مضيفاً إلى تغاريد

الأطيار وإبتسام الطبيعة شكرانه العميق لله ، فكان له من أوقات خلوته العون والتشجيع على مواجهة أتعابه التى إزدحم بها يومه الطويل .



فى يوم مأثور من أيام سنة ١٧٨٦ جلس " ولبرفورس " وصديق له يدعى " وليم بت " يتسامران تحت شجرة من أشجار البلوط فى الغابات التى أحاطت بدار " بت " الريفية وفجأة دوت صرخات من هنا وهناك ..

وبدت زعقات العبيد .. كانت السياط تلهب ظهورهم وهم يعملون تحت حرارة الشمس المحرقة فى الغابات .. وقف " ولبرفورس " وظل ينظر إليهم بعيداً وهو لا يبدى حراكاً .. لقد عاد الصوت الذى خفت فى داخله من جديد .. وأمسك بيد صديقه " بت " وراح يحدثه عن مساوئ تجارة الرقيق .. كان " ولبرفورس " متردداً : هل يثير موضوع الرق فى البرلمان ؟ . هل لديه من القوة ما يؤهله للقيام بالتبعية الخطيرة التى لن يجد فيها إلا قلة من الأصدقاء وكثرة من الأعداء ؟ .

إن الملك والطبقة الأرستقراطية والمحامين والتجار وأعضاء البرلمان ، كل هؤلاء سيقفون ضده ، لأن تجارة الرقيق كانت مورد ثروة لهم .. ولكن لا يهم ! . لقد كتب فوراً عن عزمه :

" آليت على نفسى أن أفصح عن عزمى فى فرصة ملائمة فى مجلس العموم لإثارة موضوع إلغاء تجارة الرقيق " .

لقد أدرك " ولبرفورس " أن العواطف ليست كافية فلابد له من بسط الحقائق الراهنة أمام البرلمان ، لذلك راح فى هدوء وصبر يستجمع الحقائق ، فكوّن لجنة برياسة " **جرانفيل شارب** " الذى كان يفكر دائماً فى مشروعات مختلفة لرفع شأن الأرقاء كما كلف " **توماس كلاركسون** " ، وهو رجل قرأ وكتب كثيراً عن تجارة الرقيق .. كلفه جمع كل المعلومات والبيانات اللازمة ..

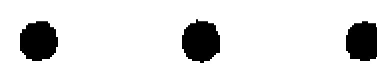
وفتح " ولبرفورس " باب داره على مصراعيه لجميع أصدقائه الذين شاركوه فى رأيه فى قضية الرقيق .. وكان يتحدث ويبحث معهم ساعات طويلة فى الليل . ومرة كل أسبوع كان يتناول العشاء معه أعضاء لجنة مكافحة الرقيق للبحث فيما تم من أعمال إلى اليوم الذى ألقى فيه خطابه فى البرلمان مقترحاً إلغاء تجارة الرقيق بعدما وضع أمامهم الحقائق المدروسة عن مساوئ تجارة الرقيق التى تعد جرماً فى حق الإنسانية .

وهنا ثارت ثائرة التجار ورجال الأعمال وأصحاب المزارع ، وخشوا شر هذه المحاولة التى سيكون من ورائها القضاء على موارد ثرواتهم من تجارة الرقيق ، فراحوا يتهجمون على " ولبرفورس " الذى لم يكن فى قلبه شئ من المصالح سوى ذلك الحب الذى دفعه لهذه المغامرة .

وبكل السبل راح أعضاء البرلمان يثبتون فضل تجارة الرقيق على رقى المستعمرات البريطانية بل فضلها على العبيد أنفسهم الذين كانوا يحملون إلى مواطن الحضارة .. وقالوا : إن الرحلة من أفريقيا إلى المستعمرات البريطانية أشبه بنزهة مريحة يهنأ بها العبيد ويستريحون لها .

وفى الوقت الذى إشتدت فيه المعارضة وبلغت ذروتها تلقى " ولبرفورس " رسالة من الشيخ الوقور **" جون وسلى "** عضو البرلمان :

" إذا كان الله معك .. فمن عليك ؟ . سر على بركة الله وبقوة قدرته حتى يزول الرق الأمريكى أيضاً الذى هو أشنع لوثة شهدتها هذه الأرض " .



ولكن فى هذه الفترة وبالتحديد فى عام ١٧٩٣ إشتعلت نار الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، فإتجهت كل الأفكار نحو هذه الحرب ، ولم يكن ميسراً القيام بأى جهد فى سبيل قضية العبيد .

على أن " ولبرفورس " فكر جاهداً فى خدمتهم بأى من السبل إن كان اليوم لا يستطيع أن يظفر لهم بالحرية المدنية . لذلك إنتقل مع أصدقائه ومناصريه إلى مكان هادئ فى قرية " كلابهام " ، وقد حلا للجميع أن يجتمعوا فى مكتبة دار " ثورنتن " الكبرى التى يقيمون بها للبحث فى شتى المشروعات لخير العبيد .

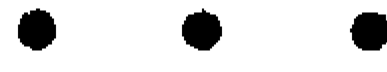
وقد أكد " ولبرفورس " إنه ليس من الكافى منح العبيد الحرية المدنية فحسب ، بل ويثبتون لهم أن الله وحده هو الذى يطلق الناس أحراراً ، ولذلك فكروا فى تكوين بعثة لغربى أفريقيا ، وبدأ تفكيرهم الجاد فى هذا المشروع عام ١٧٩٧ . وكان هدف هذه البعثة :

" نريد أن نعوض لأفريقيا كل ما إقترف ضدها من أخطاء بسبب تجارة الرقيق " .

كان " ولبرفورس " طيلة الوقت يصلى ويجاهد إلى أن يحين اليوم الذى تبطل

فيه تجارة الرقيق .

وأخذت الأمور تسير فى إتجاه موفق .. وأخذ الرأى العام يميل إليه ، فإن مساوئ هذه التجارة البشعة قد فُضحت وعرف الشعب البريطانى من خلال الجمعية التى ضحت بلا مقابل - ما هدف " ولبرفورس " السامى ، وإستيقظ الضمير البريطانى ليكون سنداً لبطل العبيد ، وأخيراً بلغ الصراع الذى إمتد حوالى عشرين عاماً منتهاه .



كانت الساعة العظيمة فى اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٨٠٧ وهو اليوم الذى أقر فيه مجلس العموم البريطانى القانون الذى قدمه " ولبرفورس " لإلغاء تجارة الرقيق . وما أعظمه يوماً ! .

لقد إمتلأت القاعة وإزدحمت الشرفات بالزائرين والصحفيين وإتجهت الأبصار إلى ذلك الشبح الصغير الذى جلس ورأسه بين يديه والناس يهتفون له هتافاً عالياً .

وفى كل أرجاء إنجلترا رفعت إلى الله أدعية الشكر من أجل هذا النصر العظيم . وعرف اسم " ولبرفورس " العظيم ألوف من العبيد فى جنوبى قارة أفريقيا وجميع المستعمرات البريطانية كبطل لهم . ومن مقعده فى مجلس العموم إستطاع هذا القلب الكبير أن يغير عقل بريطانيا كلها فحطم سلاسل الإستعباد ، وأطلق فيما بعد ألوفاً من العبيد أحراراً ليكونوا بشراً كسائر البشر .

تلك كانت ساعة إنتصاره ، على أنه لم يكن فى قلب ذلك الرجل الكبير مكان للفخر والمباهاة ، ولم يعمر قلبه بشئ إلا بشكر الله الذى أعانه فى جهاده ، وقد دمعت عيناه وهو يحتضن معلمه " إسحاق ملنر " الذى راح يردد :

" كنت أعرف أن هذا القلب لابد أن يعمل شيئاً عظيماً " .



شخصيات لا تنسى ..

(٨) الكولونيل هارلاند ساندرز

كنتكى فرايد تشيكن

المكان : منزل متواضع فى مدينة شلبيڤيل بولاية كنتكى الأمريكية ، وبإحدى حجراته يجلس صاحب المنزل .

صاحب المنزل : رجل فى السابعة والثمانين من عمره ، إسمه (الكولونيل) " هارلاند ساندرز " .

مسحة من الهدوء تعلو وجهه المكتنز ، والذى يشبه إلى حد بعيد الوجه التقليدى الذى يرسم على وجهات سلسلة المطاعم المعروفة باسم " **كنتكى فرايد تشيكن** " "Kentucky Fried Chicken" التى تنتشر فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى فى القارات المختلفة .

ملابسه المفضلة : الحلة البيضاء ورباط العنق أسود ، ويمسك بعصا صغيرة ، وحين تراه تتذكر رسماً كاريكاتورياً لإبن الجنوب فى الولايات الأمريكية أو كولونيل أمريكى متقاعد .

وبرغم سنه التى يعتبرها الكثيرون أنها عمر الراحة - يقول الرجل :

" إننى أفضل العمل على الاسترخاء ، فالعمل لا يضر أحداً ، بل على العكس إن الصدأ يتسرب إلى النفس الخاملة بسرعة ! " . وفى هذا التصريح الذى بمثابة شعار لحياة هذا الرجل خلاصة أسلوبه فى الحياة .

بدأ " هارلاند ساندرز " حياته بإخفاقة تلو الأخرى فى أعمال مختلفة . وظل يتنقل من عمل إلى آخر حتى بلغ سن الثامنة والثلاثين من عمره وكل الدلائل تشير إلى أنه يعيش حياة فاشلة فى سبيل تحقيق لقمة العيش .

وحين تبلغ الثامنة والثلاثين تكون أمورك مستقرة أو على الأقل شبه مستقرة ، وخاصة فى مستوى دخل مادى يسمح بحياة عائلية مستقرة بمسئولياتها ، لكن

" هارلند ساندرز " كادت يده تكون خاوية فى تلك السن .

وفى عام ١٩٢٩ إقترض " ساندرز " بعض المال ، وأقام كوخاً على أحد الطرق الصحراوية يقدم فيه الشاى والقهوة للمسافرين بعرباتهم عبر هذا الطريق ... وكان العابرون يتوقفون عنده طلباً للراحة وفنجان من الشاى أو القهوة تعينهم على أستئناف رحلة السفر .

وبدأ " ساندرز " يشعر بأن العائد من القهوة والشاى يعد دخلٌ لا بأس به وأفضل كثيراً من محاولاته السابقة فى العمل .

وفى كل مرة يتوقف صاحب عربة وأفراد عائلته أو أصدقاؤه لتناول الشاى والتماس الراحة كانوا يسألون " ساندرز " هل هناك مطعم فى المنطقة المحيطة يصلح لتناول غداء طيب ؟ .

وفكر " ساندرز " وزوجته فى أن يعدا طعاماً أكثر مما تحتاج إليه أسرتهما لتقديم غداء لشخص أو أكثر من العابرين الطالبين للقهوة والغداء ! . وأختار " ساندرز " لهذه الأكلة الفراخ ، وأخذ هو وزوجته يجريان تجاربهما على أفضل الطرق الممكنة لطهى الدجاج حرصاً على راحة (الزبون) العابر وفتح شهيته ونجحت الفكرة ! . وبدأ المشروع يزدهر بحيث كانا يعدان غذاءً من الفراخ المحمرة يكفى ٤٢ شخصاً وأصبح الربح يكفى تسديد الدين الذى أقاما به الكوخ ولبناء مطعم صغير تقدم فيه الفراخ المحمرة ! .

لكن حدث أن شب حريق وأتى على كل المطعم بما فيه من أثاث ! .

وعاد " ساندرز " يبنى من جديد ! . وتم بناء مطعم جديد بدلاً من المحترق ، وأضاف إليه ٣٥ وحدة تتسع للعربة (موتيلات) .

وذاعت شهرة " ساندرز " صاحب مطعم : **" كنتكى فرايد تشيكن "** ونال إعجاب محافظ الولاية الذى منح " ساندرز " لقب **(كولونيل)** وهو لقب يمنح لتكريم المواطنين البارزين فى الولايات المتحدة ، ومنذ حصوله على هذا اللقب الذى يفخر به بدأ يرتدى زيه المميز والعصا ! .

ولم يكن الحريق هو العثرة " الوحيدة " فى الحياة الاقتصادية لهذا الرجل فى هذه المرحلة من عمره ، فقد تقرر عام ١٩٥٦ إقامة طريق رئيسى آخر غير الذى فيه مطعم " ساندرز " مما تسبب فى تحويل مسار آلاف من العربات إلى الطريق

الرئيسى الجديد الذى يبعد عن المطعم بسبعة أميال مما حول زبائنه عنه . وإضطر " ساندرز " أمام حالة الكساد التى ألمت بمطعمه إلى بيعه فى مزاد علنى .

وعاد " ساندرز " يسدد ديونه ! .

وكان الرجل فى الخامسة والستين حين باع مطعمه وحين بدأ يسدد ديونه ، وحين كان عليه أن يبدأ من جديد ! .

ويقول " ساندرز " : **حين فكرت أن أبدأ من جديد فى هذه السن شعرت بالدوار ، وضاقت الدنيا فى عينى وتوجهت فى صلاتى إلى الله متضرعاً : " . . يا ربى . . هب لى من لدنك النجاح ، أشعر بأن إخفاقاتى السابقة كنت أنا سبباً فيها : فكم أقسمت بإسمك ، وكثيراً ما كان باطلاً ، نقّ فكرى وقلبى ، فكثيراً ما أسب الآخرين ، وكثيراً ما ظننت أن سر النجاح فى الخلطة الخاصة بتوابلى ! . أعطنى أنت النجاح ، علمنى أن أكون أميناً نقياً " .**

ولم يكن لدى " ساندرز " من المال ما يسمح بتمويل بناء مطعم جديد . . ففكر فى شراء (عربة مطبخ) ونفّذ ذلك فعلاً ، وبدأ يجول ومعه عربته التى يطبخ فيها (فراخه الشهيرة) ويعرضها على المطاعم المختلفة لتقدمها " لزبائنها " . وكان يتنقل من مطعم لآخر وفى آخر اليوم ينام فى العربة نفسها . كانت بعض المطاعم تشترى منه الفراخ المحمرة مقابل كسب يسير له ، يبلغ ٥ سنتات ! .

ولم تكن كل المطاعم ترحب به ! . كما حاولت بعض المطاعم معرفة طريقته فى طهى الفراخ بأى ثمن ! . لكنه رفض الإفشاء بسر الصنع الذى توصل إليه بعد جهد متواصل له ولزوجته .

وواصل الكولونيل (المتجول) رحلة لقمة العيش متنقلاً على عربته التى يضع بها صندوقاً كبيراً مملوءاً بالثلج وبه الفراخ قبل تحميرها ، وعلبة ضخمة بها سر الصنع وهو دقيق مخلوط بأحد عشر نوعاً من التوابل والأعشاب ، وهى الخليط الذى رفض بيعه بأى ثمن ! .

وظل " ساندرز " يكافح إلى أن وقف من جديد على قدميه وإستأنف إزدهاره فى كل أنحاء الولايات المتحدة ، وعدد كبير من دول العالم ، وهو يدرك أن سر نجاحه ليس فى خليط الأعشاب وحده ! .

(٩) جلاديس

آى ويه تيه

كانت الحياة تسير هادئة وسعيدة فى قرية " ياشنج " الصينية حتى كان صباح احد ايام ربيع عام ١٩٣٨م عندما سمعت " **أى ويه تيه** " صوتاً خافتاً عرفت انه صوت أزيز طائرات .

أقترب الصوت أكثر وأكثر من سماء القرية دّوت بعدها أصوات إنفجارات تبعتها أصوات إنهيار المبانى ، أخذت الطائرات تقترب من أسطح المنازل وهى تلقى بحمولتها من القنابل ، ولم تغادر الطائرات قرية " ياشنج " حتى تركت معظم مبانيها حطاماً ! . زحفت " آى ويه تيه " من خلال أنقاض حجرتها ، ونظرت حولها فرأت الآخرين يزحفون أيضاً من بين الأنقاض . وقفوا وهم ينظرون بعضهم إلى بعض ووجوههم يعلوها السواد وهم لا يصدقون أنهم مازالوا أحياء ! .

ثم وجدت " آى ويه تيه " أن أسقف غرفتها إنهارت وكل شئ فيها دُمر ، ولم تجد طريقة للخروج إلا من فتحة فى الحائط . عرفت " آى ويه تيه " أن الكثير من مساكن القرية قد دُمر وليس مسكنها فقط . أخرجت صندوق الإسعافات الأولية من بين الأنقاض ، وخرجت إلى الطريق تتبعها صديقتها " روماى " .

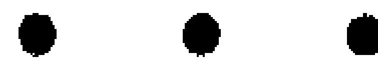
لم يكن أهالى قرية يانشنج يعرفون شيئاً عن الطائرات ، فعندما سمعوا صوتها خرجوا من منازلهم ليستطلعوا الأمر ، فوجدوا الطائرات تشبه طيوراً فضية اللون تحلق من فوق رؤسهم ، وعندما ألقت الطائرات قنابلها كان الأهالى تحت النيران مباشرة بدون أى حماية ! . أدت هذه الغارة الوحشية إلى مقتل وإصابة كثير من أهالى يانشنج . أما من نجوا من الغارة فقد أصيبوا بذهول شديد لعدم معرفتهم شيئاً مما حدث .

وبالرغم أن " آى ويه تيه " لم تشهد غارة من قبل فقد عرفت أن اليابانيين

قذفوا قريتها بالقنابل ، وأنهم ربما يكررون شن مثل هذه الغارة مرة أخرى ، فإنطلقت إلى مكان المصابين وهى تعطى تعليماتها لإنقاذهم أو تطمئن الذين أذهلتهم المفاجأة .

تحركت " آى ويه تيه " خلال شوارع القرية ووجهها جامد والدماء والأوحال تغطى ثوبها الصينى دون أن تسكب دمعة واحدة من عينيها ! . كان المنظر الذى أحزنها بشدة منظر رجل عجوز يحمل جسد طفلة فى الثالثة من عمرها وهو يتوسل إليها أن تفعل شيئاً لإنقاذها ، ولكن " آى ويه تيه " أيقنت أن الطفلة فارقت الحياة ! . فنظرت إلى العجوز وهزت رأسها بحزن ، فعرف الرجل الحقيقة ، فإنطلق بالجثمان وهو يولول . شعرت " آى ويه تيه " بالدموع تنساب من عينيها بالرغم منها .

كيف إستطاعت هذه المرأة الصغيرة أن تعتنى بكل هؤلاء الناس ؟ . من أين لها بكل هذه القوة ؟ . من أين أتت ؟ . يعرف الصينيون عنها فقط أنها تحبهم ، وأنها تبذل حياتها من أجلهم ولكن القليل منهم يعرف : كيف أتت هذه المرأة الإنجليزية لتعيش بينهم .



كانت " **جلاديس** " أكبر أطفال عائلة إنجليزية متوسطة الحال ، وبرغم أنها كانت معروفة فى المدرسة منذ صغرها بسلوكها الطيب وحبها للنظام فى كل شئ فإن والدها أيقن منذ البداية أنها لن تستطيع مواصلة تعليمها .

عندما بلغت " جلاديس " الرابعة عشرة من عمرها وجد لها أبواها وظيفة كمساعدة فى أحد المحال التجارية الصغيرة ، ولكنها لم تمكث فى هذا العمل كثيراً فإنتقلت بعدها ؛ لتعمل كخادمة فى حى " وست إند " بالعاصمة لندن . كانت تعمل كثيراً مقابل مبلغ ضئيل من المال ، ولكنها أحبت المدينة الكبيرة بأضوائها الباهرة ومظاهر الترف فيها ، غير أنها أيضاً كانت تشاهد الأطفال الصغار بملابسهم الممزقة ، وتشاهد بائعى الصحف والامهات وهن يحملن أطفالهن أحبت " جلاديس " كل ذلك .

وفى أحد الأيام سمعت " جلاديس " مجموعة من الأشخاص يتكلمون عن الله ، ومحبته للجميع دون تفرقة ، وأنه يفرح بكل خاطئ يتوب ، عند ذلك شعرت أن الله يحبها وأنه يريدها أن تفعل شيئاً هاماً ، وعندما أدركت أنها

تحتاج إلى الله تغيرت حياتها ، وتجدد قلبها ، وتحمست لخدمة الله بين أناس يحتاجون إلى ما يمكن أن تقدمه .

بدأت " جلاديس " تفكر فى الذهاب إلى الصين بعد أن شعرت بصدق أفكارها بأن الله يريدها أن تخدمه هناك . ولكنها تعرف أنها ليست ممرضة أو مدرسة أو طالبة سوف تدرس اللغة الصينية ، فكرت فيماذا تفعل فى الصين ؟ ، ولكنها صممت على الذهاب إلى هناك .

عندما بلغت " جلاديس " الثلاثين من عمرها بدأت تدخر نقوداً ؛ لتشترى تذكرة تذهب بها إلى الصين ، وعرفت أن أرخص وسيلة للذهاب عن طريق القطار عبر أوروبا وروسيا وسيبيريا برغم أنها وسيلة غير مريحة أو مأمونة تماماً .

لم تعرف " جلاديس " ماذا تفعل عندما تطأ قدمها أرض الصين ؟ ، ولكنها وجدت حلاً لهذه المشكلة عندما ذكر لها أحد الأشخاص أن سيدة إنجليزية إسمها (**مسز لوسون**) تبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً تعيش فى الصين ، وتبحث عن مرافقة لها ، فأعربت " جلاديس " عن رغبتها فى القيام بهذا العمل .

وبعد عدة شهور كانت " جلاديس " تقف فى قرية " **يانشنج** " بالصين أمام منزل " **جافى لوسون** " التى رحبت بها عندما عرفت أنها ستكون مرافقة لها بقية عمرها . قامت " **جافى لوسون** " بتقديم " جلاديس " إلى أهالى " **يانشنج** " وعلمتها بعض العبارات باللغة الصينية وإختارت لها إسم (**آى ويه تيه**) وتعنى فى اللغة الصينية " **السيدة الفاضلة** " .

ومنذ ذلك الوقت بدأت صداقة " آى ويه تيه " بالصينيين ، وإختلطت بالأهالى ، وبخاصة الأطفال . وعندما توفيت " المسزلوسون " بقيت " آى ويه تيه " فى مسكنها الكبير ، ووجدت عملاً لدى الحكومة (كمفتشة أقدام) .

وبسبب إنتشار التقليد القديم فى الصين بأن الفتيات يجب أن تكون أقدامهن صغيرة كانت الأمهات يقمن بربط أقدام البنات عند ولادتهن ؛ لتمنع الأقدام عن النمو ! . وكان إختيار الزوجات فى ذلك الوقت يجرى على أساس صغر الأقدام ، وليس على أساس جمال الوجه أو الجسم ! ، لأن ذلك كان دليلاً على عراقة الأصل والمنبت وعلامة من علامات الجمال .

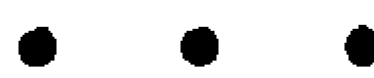
وعندما بدأت الأمور تتغير فى الصين بعد الإطاحة بملكية " شينج " سنة ١٩١٢ صدر قانون يمنع ربط أقدام الصغيرات وقد نُفذ القانون بنجاح فى المدن الكبرى الساحلية والمناطق التى تربطها المواصلات ، ولكن القانون وجد صعوبة فى تنفيذه فى القرى التى فوق الجبال أو فى السهول الزراعية حيث بقيت عادة صغر أقدام الفتيات كدليل على إرتفاع المنزلة ! .

وقد عينت " آى ويه تيه " مفتشة أقدام لتنفيذ القانون الجديد حول قرية يانشنج ، فكان من سلطتها أن تدخل أى منزل ، وتطلب رؤية النساء والفتيات فيه ، وتجلس وتتحدث معهن ، وبمرور الوقت إعتزلت " آى ويه تيه " هذا العمل ، وحلت محلها " روماى " وهى أرملة صغيرة لها ثلاثة أطفال .

وبالرغم من كثرة مشاغل " آى ويه تيه " كانت تشعر بغريزة الأمومة وبحنان شديد نحو الأطفال . وفى أحد الأيام وجدت طفلة رضيعة ملقاه على عتبه منزلها تعرضها أمها للبيع ، ولم يكن أمامها طريقة لإنقاذ الطفلة إلا شراءَها بمبلغ تسعة بنسات ، وهو مبلغ بسيط يعادل نصف ليرة لبنانية ! .

ولم تبق هذه الطفلة (وحيدة) فى منزل " آى ويه تيه " ، بل كانت مقدمة لمجموعة كبيرة من الأطفال وفدوا للإقامة عندها كانوا بحاجة إلى الحنان والعطف .

وبالرغم من أن أهالى قرية يانشنج قبلوا وجود " آى ويه تيه " فى قريتهم وكانت تتحرك بحرية تامة بينهم فإنها كانت تشعر بأنها غريبة عنهم ، وليست واحدة منهم ، ولذلك قررت أن تتخلى عن جنسيتها البريطانية ، فمزقت جواز سفرها ، وقدمت طلباً للحصول على الجنسية الصينية . كل ذلك كان السبب لوجود " آى ويه تيه " فى يانشنج عندما أعلنت اليابان الحرب على الصين .



أصبحت " آى ويه تيه " مشغولة تماماً برحلاتها إلى القرى إلى جانب العناية بأعداد الأطفال الكبيرة التى بمنزلها وفى الوقت نفسه كانت قلقة بسبب إحتمال تقدم اليابانيين فى أراضى الصين .

وبعد الغارة اليابانية الأولى أصبحت " آى ويه تيه " مشغولة أكثر وأكثر بمساعدة الصينيين ، كما أصبح عندها ما يزيد عن مائة من تلاميذ المدارس فى

مسكنها ، كذلك قام كثير من الآباء بإيداع أطفالهم لديها مع إنتشار الأخبار بإحتمال تكرار الهجوم اليابانى .

وبالرغم من أن الأطفال كانوا فى أمان لديها فإنها كانت تتوقع هجوماً عنيفاً لليابانيين على قرية يانشنج فى ربيع هذا العام فقامت بإرسال مجموعة من الأطفال إلى مدينة " سيان " العاصمة القديمة للإمبراطورية الصينية ، وهى تبدو مكاناً لا يستطيع اليابانيون الوصول إليه بسهولة .

أرادت " آى ويه تيه " نقل بقية مجموعة الأطفال برفقتها إلى " سيان " وكانت الطرق الرئيسة فى القرية مغلقة .

فى صباح أحد أيام ربيع عام ١٩٤٠ م بدأت مجموعة مختلفة من الأطفال : بعضهم كانوا من تلاميذ مدرسة فى تيشاو وبعضهم من بعض الأسر حول قرية يانشنج ؛ كما أن بعض الأطفال كانوا من الذين شردتهم الفيضانات والمجاعة والغارات .

بدأ موكب الأطفال يتحرك من القرية عبر البوابات المهدمة والأنقاض ، وبالرغم من صعوبة الظروف فإن الأطفال كانوا فى حالة سرور ومرح .

سار الأطفال خلال الطرق الجبلية الوعرة غير المأهولة وعين " آى ويه تيه " تراقبهم بعناية شديدة ، وفى بعض الأحيان كانوا يمرون بإحدى المدن الصغيرة ، فكانت " آى ويه تيه " تذهب إلى السلطات المحلية وتطلب منها طعاماً للأطفال ، فأحياناً كان الأهالى يعطفون عليهم ويعطونهم بعض الطعام ، وأحياناً كان بعض الجنود الصينيين الذين لا يزالون مرابطين لحماية ظهر الجيش الصينى المنسحب - كانوا يقدمون المساعدة للأطفال اللاجئين وقد حذروهم من أن اليابانيين قادمون ، فكان عليها أن تسرع مع الأطفال عبر النهر الأصفر قبل وصولهم .

أصاب الأطفال التعب من الرحلة الشاقة ، وهبط حماسهم ومرحهم الذى كانوا يتمتعون به خلال الأيام الأولى من الرحلة ، فإستخدمت " آى ويه تيه " كل الطرق معهم لتشجيعهم وحثهم على السير .

إستمر موكب الأطفال المتعبين والأولاد الكبار فى المقدمة لإستطلاع الطريق والأطفال الصغار والبنات يجرجرون أقدامهم من التعب والجميع مشعثو الشعور

وثيابهم متسخة .

وأخيراً بعد أيام طويلة من المعاناة والتعب وصل الجميع إلى شاطئ النهر الأصفر فنظروا إليه فوجدوه واسعاً وعميقاً وأن شاطئه الآخر بعيداً جداً ، ولم تكن هناك أية علامة على وجود قوارب ؛ لتنقلهم عبر النهر . حتى المدينة الصغيرة التى على شاطئه والتى كانوا يتوقعون الحصول منها على طعام ومأوى هجرها سكانها ، ولم يبق فيها سوى بعض الجنود أمدوهم بقليل من الطعام رجعوا بعدها إلى الشاطئ فى إنتظار القارب الذى لم يصل .

نظرت " آى ويه تيه " حولها حيث الأطفال وكانوا جالسين أو ممدى الأجسام ، بعضهم يلعب ، وبعضهم يبكى ، ولكنهم جميعاً جوعى والجميع هى مسئولة عنهم . **إنتظروا يومين وفى اليوم الثالث وأحوالهم تزداد سوءاً حتى سُقطِ فى يد " آى ويه تيه " التى أنهكت وأدركت أن معجزة فقط هى التى تنقذهم من هذه المحنة ، فأخذت تتضرع إلى الله وتقول : كل شئ بيدك الآن يا إلهى لقد إنتهى الأمر يا إلهى ، إفعل شيئاً من أجلنا ، لا تتركنا ، ساعدنا يا إلهى لكى نعبر النهر .**

وبعد هذه الصلاة راحت " آى ويه تيه " أو " جلاديس " فى شبه غيبوبة ولم تعرف كم من الوقت بقيت هكذا ؟ . ولكنها تنبهت على صيحات الأطفال وهم يجذبونها من ملابسها ، فوجدت جندياً صينياً يقترب وسألها بضعة أسئلة ، وذهب إلى حافة النهر ، وأطلق صفيراً ، فظهر قارب .

إصطف الأطفال وتم نقلهم دفعة بعد دفعة إلى الضفة الأخرى .

قضت " آى ويه تيه " بقية عمرها تعتنى بالأطفال وتحب الشعب الصينى ، لقد عرفت أن الله أرادها أن تفعل ذلك وأطاعته فسعت للخدمة بين الكبار والصغار فى الصين وكانت تعمل والإيمان والحب فى قلبها قويان كفيلان بأن يهزما البراكين والغضب والحقد والحرب .

(١٠) الأب ماريو بوريللى

شوجنيزى

" **شوجنيزى** " أو " **المتشردون** " ، هو الإسم الذى كان يسمعه أى عابر بمدينة ناپولى الإيطالية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولفظة " شوجنيزى " بلغة سكان نابولى الدارجة تعنى (المتشردين) .

وكان من ينزل فى تلك المدينة يسمع تلك اللفظة بكثرة . نظراً لكثرة " المتشردين " فى أنحاء المدينة ، فقد كان وجودهم من سن الخامسة فأكثر إحدى النتائج الوخيمة للحرب العالمية الثانية ، إذ تحولت مدينة نابولى الجميلة ذات التاريخ العريق موبوءة بالأحداث المنحرفين ومنهم من حرمتهم الحرب ذوى قرابتهم أو كانوا أبناء غير شرعيين للجنود الذين شاركوا فى معارك الحرب ! . الأمر الذى زاد عدد هؤلاء المشردين بالآلاف بصورة تفزع أهل المدينة أو العابرين بها للتجارة أو السياحة .

كان عمل هؤلاء المشردين هو الشحاذة والسرقة والنشل وضحاياهم من التجار والسياح ، كما كانوا بمثابة الساعد الأيمن للمهربين فى تلك المدينة التى بجنوبى إيطاليا ، ولم تخل السوق السوداء والبغى والمجرمين من نشاطهم ! . لكن تركيزهم كان سرقة السياح والبحارة العابرين .

ووسط هذه الظاهرة التى أصبحت تقض مضجع السلطات والسكان فى نابولى إتخذ الراهب الإيطالى الشاب : " **ماريو بوريللى** " قراراً يعد من أخطر القرارات التى قد يتخذها رجل دين فى عصره أو فى العصور المختلفة ! .

قرر " الأب بوريللى " أن يحاول إصلاح هذه الفئة الضائعة من أبناء مدينته .

وعرض فكرته على رئيسه فى الخدمة الدينية " الكاردينال إسكاليزى " - أسقف نابولى . وناقشا الأمر معاً ، ولم يسعد الأسقف بخطة الراهب ، وخشى

عليه وعلى مركزه كراهب إذ كانت خطته هى : التنكر فى هيئة غلام (متشرد) من النشالين اللصوص . . وأن يخلع زى الرهبان لينزل بينهم ! .

قرر الأب " ماريو بوريللى " أن يصير من الشوجنيزى كى يربحهم ! .

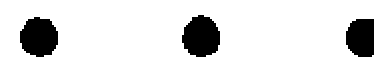
وعاتب الكاردينال " إسكاليزى " الراهب " ماريو " بقوله :

" كيف تصير لصاً بين هؤلاء المجرمين ؟ . إن فى ذلك خطراً عليك إذا كشفوا أمرك ؛ كما أن ذلك يعرض إخوانك الرهبان للخطر والخزى . . " .

لكن الراهب الشاب القصير القامة المتألق العينين إبتسم ورد فى حزم :

- إن هذه التضحية هى السبيل الوحيد لإصلاح أمر هؤلاء الأحداث الأشقياء وإنقاذ المدينة والعابرين بها من شرهم ! . لأننى أخفقت فى محاولاتى السابقة لإصلاحهم .

وأنصت الأسقف لكل حجج " الأب ماريو " ، وأخيراً إقتنع برأيه ، وشد على يده ورفعا صلاة من أجل تتويج مهمته بالنجاح .



وإنصرف الراهب من محضر الأسقف وهو يفكر فى خطته ، وتدور فى ذهنه أحداث نشاطه منذ عام ١٩٤٥ حين كرس حياته لإصلاح أمر شباب وأحداث مدينة نابولى ، والصعوبات التى صادفته وإمكان نجاح مهمته الجديدة برغم أنها محفوفة بالمخاطر ! .

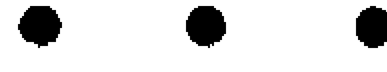
وبعد نحو أسبوع لاحظ الأحداث المشردون الذين يتسكعون عند محطة السكة الحديدية بحثاً عن الأجانب القادمين - أن - زميلاً - جديداً قوياً قد إنضم إليهم ، إنه شاب قصير أشقر الشعر متألق العينين ، يعرف كيف يستجدى بصوت تجتمع فيه نبرات المرح مع الإستعطاف والذلة ؟ .

وكان أيضاً غليظاً عنيفاً ، فقد حدث فى إحدى الليالى أن تقدم إليه زعيم عصابة أحداث المحطة وطالبه بنصف حصيلة اليوم من الإستجداء ، فكان رد " بوريللى " هو أن أنفجر فيه كالبحر الهائج ، وأنهال عليه بالضرب المبرح مما جعل الشاب الآخر يتسمر فى مكانه من فرط الدهشة ! .

وشهد الموقف عدد كبير من (المتشردين) من أتباع زعيم العصابة ، وأشار

أحدهم إليه بأنه جدير باسم " ڤيزوڤيو " نسبة إلى بركان ڤيزوڤ المشهور !

وبذلك أصبح الراهب بين المشردين معروفاً باسم " ڤيزوڤيو " .



وكان " ڤيزوڤيو " يعمل بإنتظام فى عالم " شوجنيزى " يتعبد بالنهار ويخلع الزى الدينى فى المساء ، وإختار قطاع الشحاذة لينتمى لهم . . وظل هكذا كل يوم ولستة أشهر على التوالى .

وكانت الملابس التى يرتديها مساءً قميصاً مهلهلاً قذراً ، وبنطلوناً ممزقاً ، وحذاءً بالياً وطاقية من الصوف ، ولا يفوته أن يلوث يديه ووجهه بالأقذار ! .

وكان على " ڤيزوڤيو " أن ينام بالليل مثل بقية المشردين : فى الشارع بالقرب من (البدرومات) إلتماساً للدفء الذى يتسرب من مدافئها متخذاً من أعداد الصحف القديمة غطاء ومرقداً ! .

وعرف من خلال مشاركته لهم كثيراً عن حياتهم ومشاعرهم ، وما يدور فى نفوسهم ، وأحلامهم ومشكلاتهم . . وفى مقدمة ذلك كله نجح فى أن يجعلهم يشعرون أنه واحد منهم ! . وإعتبر " ڤيزوڤيو " علاقته بالأحداث صداقه أخبرهم بإعتزازه بها ، ونجح خلال إحتكاكه بهم أن يلمس داخلهم ، ويصل إلى أعماقهم .

أدرك الأب " بوريللى " أنهم برغم شراسة طبائعهم يتوقون إلى الحب والحنان ، ويحلمون بالشعور بالأمن والسلام ، وأحس حاجتهم ورغبتهم فى حياة البيت والإستقرار .

ولم يغب عن ذهن " ڤيزوڤيو " أنه معرض للخطر إذا إنكشف أمره ؛ فالمعروف أن مجرمى نابولى سواء الكبار منهم أو الصغار هم أعتى المجرمين فى أوروبا كلها . .

وكان على الأب " ماريو بوريللى " أن يكون على حذر لئلا ينكشف أمره ، ويظنه الأحداث جاسوساً عليهم من قِبَل الشرطة ؛ فقد عرفوا بشراستهم وعنفهم مع جواسيس الشرطة الذين ينكشف أمرهم ، وقد حدث كثيراً أن عثر على جثث بعضهم طافية على أمواج الخليج .

وبعد هذه الأشهر من دراستهم وتقربه لهم بدأ ينفذ الخطوة البناءة الأولى فى

مخططه وهى : إغراؤهم بالإستقرار فى مكان ما ، وهو يمثل أحد أحلامهم التى إستطاع أن يستشفها من معاشرتهم . . .

وفى إحدى الليالى أخبرهم أنه عثر على مكان يمكن أن يأووا إليه . . وعرض عليهم الإقامة فيه ، وكان هذا المكان : كنيسة " **سانت جينا ريللو** " التى دمرتها قنابل الحرب العالمية الثانية . ونجح فى إقناعهم بالسكن فيها بعد تيقنهم أن الشرطة لن يمنعوهم من ذلك .

وقام الغلمان ومعهم " ڤيزوڤيو " برفع الأنقاض وإصلاح أرضية الكنيسة وترميمها ، وحذا الأحداث حذو " ڤيزوڤيو " فإستخدموا حشيه وبطانية فى النوم .. وإن ظنوا ذلك ترفاً فى بادئ الأمر ، ثم أقام " ڤيزوڤيو " موقداً لطهو الطعام ، وأستجلب الخضروات ومواد البقالة وقد كانت فرحة الأحداث غامرة بمأواهم الجديد الذى يعد أول بيت للأحداث بالمدينة . ولم تخف فرحتهم على الأب " بوريللى " ، إذ لاحظ عودتهم للمبيت فى وقت مبكر من الليل كما طرأ تغيير فى معاملاتهم .

وأطلق الأحداث على مأواهم إسم " **لاكازا** " أى " **البيت** " . . ومع الحياة فى البيت تغيرت معاملة ال " **شوجنيزى** " بعضهم إزاء بعض إذ أصبحت أقل شراسة وأقل غلاظة .

وأدرك الأب " ماريو " ضرورة إعلانه لرفاقه حقيقته ، فعاد إليهم مرتدياً ملابسه الكهنوتية ، وما إن وقع بصرهم عليه حتى إنفجروا ضاحكين ، وإحتج عليه أحدهم وإتهمه بإمتهان الدين ! . فما كان منه إلا أن قدم له - برهاناً ودليلاً على صدق كلامه - صورة له مع زملائه الرهبان ، فخيم عليهم الصمت وهم يتبادلون صورته الكهنوتية .

ثم تقدم غلام منه وأمسك بيده وقال وإبتسامه على شفتيه : إننا نرجوك أن تبقى معنا وسنسميك " دون فيزوف " . وبكى فيزوف وهز رأسه موافقاً ومعلناً أن بيتكم سيصبح مؤسسة فإندفع الغلمان يحيطون به ، ويعبرون له عن سعادتهم به بينهم .

وشرع " دون ڤيزوڤ " فى إستكمال المشروع ، بيت المشردين الذى سماه الأحداث (الكازا) وطاف على عربة يسأل الأهالى التصدق على البيت بالأثاث القديم ، وكانوا كرماء معه ، وتحول ملجأ الأحداث بيتاً حقيقياً .

وأدرك " دون ڤيزوڤ " ضرورة تعليم المشردين الأمر الذى فزع له الغلمان أولاً ، ولكنه إستطاع إقناعهم بالذهاب إلى المدرسة أو إمتهان إحدى الحرف ولم يكن الأمر سهلاً ؛ فقد رفض نظار المدارس قبول المشردين فى مدارسهم إلا أن ڤيزوڤ تمكن من إقناعهم ، وإستطاع أن يدخل عدداً من الأحداث فى مدارس مختلفة منعاً لتجمعهم فى مكان واحد .

ولقد عانى المشردون أولاً فى المدارس ، وبعضهم حدثته نفسه بالهروب منها والعودة إلى الشوارع ! ، وعرضوا الأمر على " الأب بوريللى " الذى هددهم بإغلاق البيت وبرحيله عنهم إذا عادوا مرة أخرى إلى الشوارع ، فكسبهم بذلك إلى جانبه واستقطب شر ثورتهم : ولم يكن إلحاق الكبار منهم ببعض الأعمال يسيراً أيضاً ؛ فقد خافهم أصحاب العمل ، وعرض بعضهم على " الأب ماريو " تقديم مساعدات مالية للبيت ، ووافق القليل منهم تحت إصرار " الأب ماريو " على إلحاق بعض غلمانه فى أعمالهم فعملوا سعاة أو عمالاً تحت التدريب بالمصانع والمتاجر والفنادق .

وكان " الأب ماريو " يَفْنى فى حبهم ، ويعانى الأمرين من أجلهم ، وأدرك حاجتهم للحنان والحب بجانب الطعام والملابس .

وأعتبره كل غلام أباً وأخاً وصديقاً : لجأ إليه غلام يوماً قائلاً : أبى . . دون فيزوڤ ، أيمكننى أن أسرق شيئاً من المتجر الذى أعمل به ؟ ، إنى على ثقة أن أحداً لن يرانى ! .

فأمسك الراهب بيده ، وحدق فى عينيه وقال : " إذا سرقت أى شئ ولو كان يسيراً ، فسوف أعرف ما سرقت ، وسأطلب من الشرطة القبض عليك ، بل لن يستطيع أحد من زملائك الحصول على أى عمل يرتزق منه " ! .

وفكر الغلام برهة قصيرة ، ووعد " الأب ماريو " أن لن يسرق أبداً ! .

ومن العجيب أن شهد بعض التجار الذين إستخدموا غلمان " دون فيزوڤ " بأنهم أكثر أمانة وإنتاجاً من غيرهم ، وكانت أجورهم تكفى الإنفاق على بيت الأحداث ، كما كانت تكفى مصروفاتهم الشخصية .

وتغيرت أحوال المشردين تدريجاً ، حتى ضحكاتهم طرأ عليها التغيير ، فغدت - بعد أن كانت خافتة سمجة - ضحكات حلوة نابعة من قلوبهم .

وأصبحوا يغسلون وجوههم فى الصباح ويحلقون أذقانهم فى الأوقات المناسبة .

ويقول الراهب بوريللى :

إن معظم هؤلاء المشردين أذكياء . . وذكاء بعضهم فوق المستوى العادى ، وأى إنسان لابد أن يكون ذكياً ، ليستطيع مواجهة حياة التشرد . والمشكلة كيف توجه هذا الذكاء فى الطريق المستقيم ! .

وإتخذ " دون فيزوفيو " مساعداً له من أحد الرهبان وإستطاع الإثنان أن يخرجا ثلثمائة غلام من بيت الأحداث ، ليواجهوا الحياة فى إستقامة وشرف .

وقد إستمر ثلاثة من كل أربعة فى مواصلة حياة شريفة ناجحة .

وظل " دون فيزوفيو " يرحب بالأحداث من سن الخامسة حتى الرابعة عشرة ثم يبحث لهم عن عمل كساع أو عامل تحت التدريب بالمصانع والمتاجر والفنادق .. وهو يقتطع ثلث أجر الصبى للإنفاق على " بيت الأحداث " ويدخر لهم الثلث الثانى ، ويترك الباقى لمصروفاتهم الشخصية .

و" للكازا " قانون يحترمه الجميع :

أن يعود المقيمون به قبل الساعة التاسعة مساء مهما يكن السبب ..

ويوجه إنذار للغلام الذى يعصى القانون مرة واحدة ، ثم يطرد فى المرة التالية .

ولم يطرد أحد من البيت ، لأن " الأب فوزفيو " عرف عنهم أنهم أصبحوا جميعاً يفضلون الأحذية على الحفاء ، والملابس النظيفة على القذرة ، والطعام الجيد على نفايات الأطعمة ! .

وبذلك أصبحت رغبتهم فى تحسين أحوالهم بأنفسهم هى القانون المطاع بينهم .



شخصيات لا تنسى ..

(١١) سارة بوش جونستون

زوجة الأب

بدأت أحداث هذه القصة عام ١٨١٩ م ، وبالتحديد فى شهر ديسمبر حين توجه " توم " على ظهر جواد من ولاية انديانا الأمريكية إلى اليزابيتون ليطلب يد عروسه .

والعروس أمرأة أرملة فى الحادية والثلاثين من عمرها ، ولها من البنين ثلاثة هم كل أهتمامها منذ رحل زوجها عن هذه الدنيا منذ ثلاثة أعوام .

أما " العريس " فهو أرمل هو الآخر ، إذ توفيت زوجته منذ نحو عام تاركة له إبناً وإبنة لم يبلغهما والدهما أنه مزمع أن يجيئهما بأم أخرى .

• • •

وكانت الأفكار التى تدور برأس " توم " وهو يقطع المسافة بين الولاية التى يعيش فيها ، والمنطقة التي تقيم فيها " سارة " زوجته المرتقبة - أن هذه السيدة منذ عرفها فى طفولتهما طيبة القلب ، راضية تتلقى ما يجئ بصدر رحب شكور .

وكان " توم " يرى فى " سارة " البديل المناسب لأم ولديه ؛ كما أن " توم " نفسه مستعد لتقبل أولادها الثلاثة مع ولديه ، ويصبح هو نفسه بديلاً لوالدهم . . ؛ فالحياة يلزمها بعض التغاضى عن الصغائر لكى تسير ! .

وفكر " توم " فى ظروفه المعيشية الضيقة للغاية ، وكيف يمكن أن يعول أربعة أفواه جدد فضلاً عن ولديه . . والكوخ ضيق وإبنه وإبنته فى إنتظار عودة الأب دون معرفة أن هناك قادمين جُدداً ؟ .

• • •

وإلتقى توم وسارة وشرح لها ما فعلت به الأيام منذ رحلت أسرته بعيدة عن أسرتها ، وكانا بعد طفلين ، وأن له إبنين ، وأنها ستكون خير بديل لأمهما ،

وستكون مفاجأة لهما .

غامت عينا سارة الزرقاوان الثابتتان وهى تفكر فى ذلك ؛ فقد يشعر الطفلان أنها غريبة عنهما ، وقد يريان فيها زوجة الأب غير المرضى عنها ! . وحسم " توم " الموقف بقوله : إن دواء جرح أسرتينا هو فى زواجنا ، وجئتك لهذا الغرض ، وليس عندى وقت أضيعه ، فإذا وافقت تزوجنا على الفور .

وتم عقد القران ، وكدست العروس : " سارة بوش جونستون " كل متاعها فى المركبة التى إستعارها " توم " لهذا الغرض ، وفوق المتاع جلس صغارها الثلاثة وعيونهم ترقب الموقف والأب الجديد والمستقبل غير المعروف فى منطقة بعيدة ! . وكان الجو قارس البرودة ، وعبرت المركبة نهر أوهيو الذى تجمد ماؤه ، وغاصت العجلات فى الثلج . . .

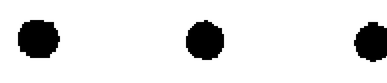
وبعد خمسة أيام بلغوا عش الزوجية الجديد ، وكان كوخاً خشبياً قائماً فى منطقة خلاء تطل على نهر " ليتيل بيجيون " . . ولم يكن للكوخ نوافذ وكان بابه فتحه عليها ستار من جلد الغزال ، وللكوخ مدخنة من الطين المدعم بالعصى ترتفع فوق الجدار .

وعندما بلغت المركبة الكوخ صاح توم ، فخرج إليه من الكوخ صبى يعدو ، وكان نحيلاً كالخيال وعليه قميص مهلهل وسراويل من الجلد البالى ، لكن نظرة عينيه نفذت إلى قلب سارة .. أحست بأنه طفلها الرابع ، ترجلت من على المركبة ، وفتحت ذراعيها له ، وضمته إلى صدرها وقالت أننا سنكون صديقين حميمين . . كيف حالك يا **" إيب لنكولن " ؟ . (إيب لنكولن هو إبراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية ١٨٠٩ – ١٨٦٥ م) .**

ولم يكن لسارة عهد سابق بالبرارى ، وبدأت مهامها الجديدة فى هذا البيت الجديد : كوخ ذى غرفة واحدة أرضه تراب مكبوس ، الفراش به ألواح على قوائم من العيدان ، تعتمد على الحائط وحشيته محشوة بقشر الذرة ، والأغطية من الجلود والثياب البالية .

وكان الغلام " إيب " (إبراهام لنكولن) وهو فى العاشرة ، وأخته التى تكبره بعامين ينامان على أكوام من ورق الشجر فى غرفة مسحورة أعلى الكوخ يصعدان إليها على أوتاد مثبتة فى الحائط . أما أثاث الكوخ فكان بضعة مقاعد لكل منها ثلاث أرجل ، ومائدة شبة محطمة ! .

وكان يعيش بالكوخ مع توم وولديه قبل مجئ سارة وأولادها الثلاثة " دنيس هانكس " وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره وإبن عم زوجة توم الأولى - نانسى هانكس - وكان يحاول أن يطهو الطعام مستعيناً بقدر مكسورة وملعقتين من الحديد . .



توقعت سارة أن يكون المكان أفضل مما هو عليه ، ولم تعلق بشئ على ما وجدته . . بل طلبت من زوجها " توم " إحضار حمل من الحطب لتسخن ماء .

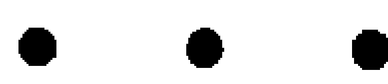
وبدأت ربة البيت الجديدة فى تسخين الماء ، ثم أخرجت من متاعها كيساً به صابون صنعته فى بيتها السابق ، وغسلت الغلام وأخته أمام النار الحامية ، ومشطت شعرهما الملبد بمشطها النظيف الذى أحضرته معها ضمن متاعها . .

وكان بهذا المتاع أشياء غريبة على البيت الجديد : صوان الملابس ! ، ونول وكراسى سليمة ذات أربع أرجل . .

ولما صعد " توم " إلى الغرفة المسحورة فى تلك الليلة لم يجد أثراً لفراش " إيب " وأخته ، إذ قامت زوجة أبيهما بالتخلص من ورق الشجر ، ووضعت مكانها حشية من الريش ووسادة من الريش وأغطية حقيقية ! . . فعلم الأب أن " إيب " إبنه وأخته سيقضيان ليلة هادئة دافئة نظيفة .

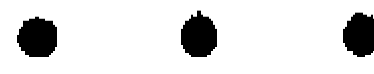
ومع كل صباح جديد كانت يد زوجة الأب تغير شيئاً فى الكوخ حتى تغير تماماً : كانت تعمل قدر طاقتها وإمكاناتها ، مما دفع جميع المحيطين للقيام بالمثل ، فبدأ " توم " فى صناعة باب حقيقى للكوخ ، وشق نافذة ، وفرش الأرض ، وسد الثغرات بهيكل الكوخ بين ألواحه .

وأبدى " إيب " وأخته سرورهما بالتغيير الذى طرأ على الكوخ ، وبدأت أمهما الجديدة تنسج لهما قمصاناً صبغتها بنقيع الجذور وأوراق ولحاء الشجر ، وصنعت لإيب حمالات من الجلد وقبعة من الفرو ! .



وتأملت " سارة " حياتها الجديدة ، فالأمور تسير على نحو غريب فمنذ أربع عشرة سنه رفضت أن تكون زوجة لتوم لنكولن وآثرت عليه دانييل جونستون ، وتزوج توم نانسى هانكس وعاشا معاً اثنتى عشرة سنة ماتت بعد أثر حمى ،

وبعد مرور هذه السنين تصير سارة زوجة له وأماً لأطفاله وأطفالها تطعمهم وترعاهم !



ولم تكن مهمة " سارة " يسيرة : فتحت سقف هذا الكوخ الذى لا تتعدى مساحته ١٨ قدماً مربعة تتولى أمر من بقى من أسرتين ومعهما الشاب اليتيم دنيس هانكس ، وكان على الأم الجديدة أن تجعل المحبة هى الشعور السائد بين أفراد البيت برغم إحتمالات قوية للمتاعب منها : أن فريقين للأطفال لم يرّ كل منهما الآخر من قبل ، وقصص سمعها " إيب " وأخته عن زوجة الأب ، وأخرى سمعها أولادها الثلاثة عن زوج الأم ! .

وكانت سارة فى الأسابيع الأولى شديدة القلق على مشاعر جميع من فى البيت إزاءها ، كان عليها أن تكون زوجة وأماً لستة من الأولاد : أولادها الثلاثة وولدى زوجها وقريب أمهما الشاب اليتيم دنيس ! .

وكان أكثر الأبناء الجدد إقتراباً منها هو " إيب " الذى أبدى سعادة وتقديراً لجهودها برغم حداثته كانت تصنع الكعكات من الذرة الصفراء فى الفرن وكل أبنائها يحبونها وخاصة " إيب " الذى أخذ يتأمل الكعكات وزوجة أبيه تصنعها وقال لها : سأظل أحب هذا الكعك طول عمرى ! .

ثم خرج من الكوخ ، وكان يصعب أن تعرف كنه " إيب " ، وقال عنه دنيس يوماً : " إن فى إيب شيئاً خاصاً غريباً " ! .

كانت " سارة " تصنع الخير وتمنح كل أفراد البيت الحب ، وكان " إيب " من أكثر المحتاجين لعطائها ، إذ كان ينمو بسرعة ، وكانت تعنى بأن يكون طعامه كافياً وخاصة من اللحم والكعك والبطاطس .

كما كانت تسمع لقصصه وآرائه وتشجعه على الدراسة والقراءة ، وكانت تدرك بفطرتها أن لهذا الصبى ملكات تفوق ما لدى أفراد البيت حتى أولادها ! . كانت تشعر أن " إيب " إنسان متميز ، أوسع قدراً من الكوخ والمدرسة والولاية كلها ! .

كانت تشفق عليه حين يقطع تسعة أميال كل يوم إلى " مدرسة الثرثرة " حيث يتعلم التلاميذ القراءة بأن يرفعوا عقائرهم بالكلمات ويكرروها ، ولكن

" إيب " كبر وصار أقوى ، ولم يحفل أبوه بالجهد الذى يبذله ذهاباً وإياباً من المدرسة .

وكان للوالد رأى هو : من الأفضل أن يكف " إيب " عن الذهاب إلى تلك المدرسة ، ويقطع الأشجار للفرن وللمدفأة ، ويذرى القمح أو يستأجره الجيران للتذرية بثلاثين سنتاً فى اليوم ! . لكن سارة كانت تعارضه فى فكرة حرمان " إيب " من الذهاب إلى المدرسة وتفضل أن يتقن عملية قطع الأشجار والتذرية فى وقت فراغه .

ولا شك أن الأب وسارة كانا مزهوين حين يلجأ الجيران إلى " إيب " ليكتب لهم رسائلهم بقلم صنعه بنفسه من مخلب طير ، وحبر صنعه من جذور العوسج ! .

لكن طموح " إيب " كان أوسع من صدره الصغير كان يعكف على القراءة بدلاً من إصلاح الأرض برغم معارضة أبيه ، وكان يشجعه على الإستمرار فى التحصيل مساندة زوجة أبيه سارة ! .

ولولا مساندة سارة لإيب أمام معارضة والده ما أتيح لإيب أن يتعلم ! . . وكان يؤثر القراءة على الطعام ! .

كان يبدأ القراءة فى الصباح ، ويقرأ فى المساء بعد أن يفرغ من عمله ، ويقرأ وهو يحرث الأرض ، حين تستريح الخيل عند آخر الصف .

وكان يمشى ١٧ ميلاً ليستعير الكتب من المحامى " بتشر " فى روكپوت ، فإستعار : " روبنسون كرروزو " ، وحياة واشنطن وروايات شكسبير .

وحدث أن أتلف المطر كتاب " حياة واشنطن " فعمل ثلاثة أيام كاملة ليدفع ثمنه ! .

وكان يقرأ أحياناً على ضوء نار المدفأة مما يثير تذمر توم ، فكانت سارة تقول مدافعة " دع الغلام وشأنه " .

وكانت دائماً تدعه يقرأ ، ويحدث كثيراً أن يغلبه النوم فى نهاية المساء وهو يقرأ ، فتمر عليه وتغطيه فى رفق ! .

وكان " إيب " يستخدم لوحاً للكتابة عليه حتى يمتلئ ، فيمسحه ويكتب من جديد ، وإذا ما أعجبه ما يقرأ كتبه ، وكان يكتب دائماً ، وكان معظم الوقت لا يجد ورقاً فكان يضع علامات بالفحم على لوح رمزاً لما يريد أن يكتب ، حتى إذا وجد ورقاً نقله عليه .

وكان يقرأ بصوت عال لسارة بجانب النار بعد أن ينام كل أهل البيت ويسألها : " هل ذلك واضح ؟ " ، فكانت تشعر بزهو حقيقى حين يسألها عن كتابته ، وكانت تشجعه وتحييه بقدر ما لدى أى إنسان لا يعرف القراءة والكتابة ! .

كانت تسمع له ، وكانت تنتابه حالة من اليأس فلا يصغى إلا إليها ، تؤازره وتشجعه .

وفى عام ١٨٣٠ م قرر " توم " أن يبحث عن أرض أصلح فى ولاية إلينوى ، فإنتقلت الأسرة إلى " كولزكاونتى " وهناك عاون " إيب " أباه على بناء الكوخ ذى الغرفتين حيث قضت سارة وتوم بقية حياتهما ، وتم بناء الكوخ ، ورحل " إيب " عن البيت للبحث عن عمل ، وكان فى الثانية والعشرين وحصل على عمل كاتب فى متجر " دنتون أوفوت " فى مدينة نيوسالم .

وبعد أن حصل " إيب " على عمله كان يكثر من التردد على بيت الأسرة ، ثم صار بعد أن أصبح محامياً يزور البيت فى العام مرتين .

وكانت سارة ترى فيه كل مرة مزيداً من رجاحة العقل وعمق الفكر ، وكان يحدثها عن القضايا التى يتولاها ، ويذكر لها صنيعها معه فى توفير المناخ الملائم له منذ طفولته ، وأنها صاحبة الفضل فى نجاحه كمحام .

وحين أصبح عضواً بالمجلس التشريعى للولاية كان يحدثها عن مهامه كعضو بمجلس النواب (١٨٤٧ - ١٨٤٩ م) ، وعن زواجه عام ١٨٤٢ م من " مارى تود لنكولن " .

ولما توفى والده " توم " فى عام ١٨٥١ م حرص " إيب " على مساعدة زوجة أبيه حتى لا تحتاج لشئ .

وكانت سارة تتابع أخبار فتاها " إيب " ، وتفرح لإنتصاراته المتوالية ، ولما

إنتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٠ م بكت لفرط سعادتها . . وقبل أن يذهب إلى واشنطن (مقر الرياسة الأمريكية) عبر الولاية ليزورها مستقلاً القطار والمركبة فى الأوحال ليودعها وأهدى لها قطعة من صوف ألاباكا لتفصلها ثوباً لها ، وكانت فى نظرها أجمل وأثمن مما يمر فيها مقص . . فإحتفظت بها ذكرى ! .

ولما ودعها " إيب " قاصداً مقر الرياسة الأمريكية وعدها بأنه سيراها قريباً ، لكنها أحست بأنها لن تراه مرة أخرى ! .

وبعد أربع سنوات أخبرت بنعيه . . وكتبت الصحف كثيراً عن أمه . . لا عن زوجة أبيه . . لكن بعضهم جاءها يسألها عن : أى صبى كان " إيب " فقالت :

كان غلاماً طيباً ، ولم أر منه ولا سمعت ما أذكره لا باللسان ولا بالنظر ، وأعتقد أنه كان يحبنى حباً صادقاً .

وكانت سارة تجلس فى بعض أمسيات السنوات الأربع التى عاشتها بعده تفكر فى " إيب " ، تفكر فى " إيب " إبنها ، لا كرئيس للبلاد ، وإنما فى رعايتها له :

كيف كانت تخبز الكعك من الذرة الصفراء له ؟ .

كيف كانت تنسج له قميصاً ؟ .

كيف كانت تغطيه ببطانية حين يغلبه النعاس وهو يقرأ فى آخر الليل ؟ .

وفى عام ١٨٦٩ م توفيت " سارة بوش لنكولن " ودفنت إلى جوار زوجها ، ومر حادث وفاتها دون أن تلتفت إليه الأمة ، وظلت عدة سنوات لا يذكرها المؤرخون وكُتاب السير حتى عام ١٩٢٤ م حتى نصب حجر مناسب على قبر " توماس وسارة بوش لنكولن " ؛ كما أقيم كوخ على غرار الكوخ الذى ساعد " إيب " فى إقامته ، ثم عرف الناس مؤخراً أن " إبراهام لنكولن " حين قال :

" إنى مدين بكل شئ لأمى الطاهرة " ،

" كان يقصد : أنى مدين بكل شئ لزوجة أبى " .

(١٢) ليونورا

ملحمة حب ووفاء

فى هذه الأيام تحررت المرأة فى كثير من دول العالم ، وإشتركت فى جميع ميادين العلوم والفنون ، ودخلت إلى مناصب القضاء والسياسة والحكم حتى رياسة الوزارة . وأثبتت الأيام نبوغ المرأة ، ولبطولتها ونبوغها نماذج يحفظها السجل الإنسانى على مر العصور . غير أن الحب والعطف والحنان كانت ولاتزال دنيا المرأة وميدان تفوقها ، وقد سجل الأدباء والفنانون والشعراء الكثير من الملاحم التى تروى عظمة حواء على مر القرون .

وقصة اليوم ترجع أحداثها إلى القرن السادس عشر الذى يمثل فترة من أدق وأحرج الفترات التى عاشتها إسبانيا ، فقد بلغت محكمة التفتيش فى ذلك الوقت أوج سلطانها الرهيب ونفوذها المجحف ! .

ومن وحى تاريخ إسبانيا وظروفها السياسية إبان القرن السادس عشر ، إستوحى الكاتب الفرنسى " بويللى " مسرحيته الغنائية الخالدة التى وجد فيها الموسيقار النابغة بيتهوفن من موضوعات الشجاعة والبطولة ما يتفق مع طبيعته المحبة للنضال المؤثرة للتضحية ، فوضع الحان " أوبرا فيديليو " - وهو إسم المسرحية - فى الوقت الذى كان يصنف فيه سيمفونيته الثالثة لتمجيد البطولة .

فى ساحة سجن بإحدى ضواحى مدينة أشبيلية بإسبانيا جلس فريق من المسجونين يستمتعون بدفء الشمس . كان ذلك فى يوم دافئ من أيام الصيف وقد وافقت إدراة السجن على منحهم لحظات يركنون فيها إلى الراحة ملتمسين حرارة الشمس ودفأها .

وقد كان بين نزلاء السجن من لم يقترف ذنباً يقذف بسببه فى غيابة السجن ، وإنما قد زج بهم فى السجون كضحايا الظلم الغاشم ! . وقد خصصت لهم الإدراة الغرف المظلمة فى أسفل السجن ! . كانت غرفهم تلك قريبة الشبه بالقبور ، فقد

كانت مظلمة ورطبة وضيقة المساحة . ولم يكن يسمح لهؤلاء السجناء مثل غيرهم أن يجولوا لوقت يسير فى فناء السجن أو أن يستمتعوا بالنور ويستنشقوا الهواء النقى ، وكأنما قد قدر لهم أن يموتوا موتاً بطيئاً فى غرفهم الصغيرة ! .

وقد كان النبيل " **دن فلورستان** " أحد هؤلاء السجناء المغضوب عليهم ، كان قد وجه إليه مدير السجن " دن بيسارو " تهمة سياسية بسيطة ألقاه بسببها سجيناً ، وعهد به إلى رئيس سجانيه " روكو " وأوصاه بالتشدد فى معاملة النبيل " **دن فلورستان** " وإحكام قبضته عليه ! . وذاق السجين المسكين من ألوان العذاب الشئ الكثير ! ، ولما كانت مدة حكم سجن " دن فلورستان " قصيرة فقد لجأ مدير السجن إلى حيلة يبقى بها السجين البرئ ، تحت رحمته داخل السجن ، فأعلن وفاته كى لا يتعرض لعقاب أو جزاء إذا ما تركته فى ظلمات السجن يعانى من الجوع والرطوبة طيلة حياته حتى يموت ! .

ولم تكد " **ليونورا** " زوجة " الدن فلورستان " تسمع نبأ وفاة زوجها حتى أخذت مشاعرها تناجيها بأنه لم يمت ، وحدثتها نفسها أن ذلك النبأ ليس سوى زعم باطل أملاه حقد وكراهية مدير السجن ، ودفعها حبها لزوجها وخوفها عليه أن تصمم على إستطلاع حقيقة الأمر بنفسها ولو كلفها ذلك التضحية بحياتها . أدركت " **ليونورا** " أبعاد الموقف المشرفه عليه وأن الحيلة هى سبيلها الوحيد لإنقاذ زوجها المسكين " الدن فلورستان " ، ورسمت " ليونورا " خطتها ، وأقبلت على تنفيذها بحكمة وشجاعة .

تنكرت " ليونورا " فى ثياب شاب ، وإتجهت صوب السجن المسجون فيه زوجها . وقفت طويلاً أمام الباب ، وراحت تستطلع من بعيد حركة الحراس ، وأخيراً إستجمعت " ليونورا " شجاعتها ودخلت بوابة السجن ، ونجحت بعد عناء فى أن تصل إلى رئيس السجانين فتقدمت إليه فى وداعة وأدب بالغ متوسلة إليه أن يقبلها فى وظيفة سجان مساعد ، وأخبرته أن إسمها " فيديليو " وأن لها خبرة سابقة بأعمال السجون ! ، وكانت " ليونورا " حريصة أشد الحرص حتى لا يكتشف أمرها ، ويفتضح سرها ولم يكن الأمر يسيراً سهلاً ؛ فقد كان عليها أن تحبك حيلتها ، وتتذرع دائماً بالصبر والحكمة حتى تصل إلى كشف حقيقة أمر زوجها .

مثلت " ليونورا " دور الفتى الدمث الخلق المعروف بطاعته وإجتهاده ،

فأصبح " فيديليو " شيئاً فشيئاً موضع ثقه " روكو " رئيس السجانين ورضاه ، فألحقه بخدمته وإعتمد عليه فى كل أمور السجن ، ورحب به صديقاً لإبنته المدللة " مارسيلينا " التى إجتذبتها وسامة وجه فيديليو " مارسيلينا " التى إجتذبتها وسامة وجه ووداعة خلقه ، حتى أحبته حباً ملك عليها شغاف قلبها ، ونسيت أو كادت تنسى " جاكينو " أحد مساعدى أبيها ، وقد كان " جاكينو " قد صارحها بشعوره نحوها وتمناها له زوجة ، ووجد من إبتساماتها وترحيبها ما شجعه على مفاتحة أبيها فى الأمر بيد أن " جاكينو " كان متكاسلاً غبى التصرف مما دفع " روكو " إلى أن يعرض عنه ويفضل عليه فيديليو زوجاً لإبنته الوحيدة .

تمادت " مارسيلينا " فى تغزلها وإلحاحها فى حب " فيديليو " موهمة نفسها أنها قد وضعت يدها على حلم المستقبل وإستسلم " فيديليو " لهذا الوضع الجديد على الرغم منه ، فلم تحاول " ليونورا " الإساءة إلى مارسيلينا أو مصارحتها بالحقيقة ، ولم تحاول أيضاً أن تخفف من غيرة " جاكينو " الذى حقد على فيديليو ، وإعتبره منافساً خطيراً ؛ إذ تمكن من إستمالة مارسيلينا وأبيها " روكو " . ولم تسلم مارسيلينا من عتاب جاكينو ، وردت عليه وصارحته بأنها قد أحبته يوماً ما ، ولكن " فيديليو " كان أقدر منه على إستحواذ مشاعرها ! .

مضت " ليونورا " فى سبيل إتمام تمثيل الدور ، وأفلحت فى إخفاء إضطرابها وحيرتها إزاء حب مارسيلينا ! . وأشار ذكاء " ليونورا " عليها أن تستغل الموقف ، فتوددت إلى مارسيلينا ووعدتها بالزواج فذلك - ولا شك - يتيح لها سلطة واسعة إذ يقربها من رئيس السجانه ، ويساعدها على الوصول إلى هدفها المنشود ، فكانت تقوم بواجبها ببراعة ويقظة فائقة زادتها من ثقة وإحترام روكو .

كانت صورة الزوج الحبيب " الدن فلورستان " ماثلة أمام " ليونورا " لا تبارح خيالها ، وكثيراً ما دفعها شوقها إليه تناجيه وتناديه بإسمه . كان " روكو " يعامل " فيديليو " معاملة رجله الأول وصهر المستقبل ، فكان يسمح له بمعاونته فى الأعمال المتصلة بالسجناء ويعتمد عليه فى معظم مهامه كرئيس للسجانه إلا أن " روكو " قد حرم على " فيديليو " أن يقترب من الغرف المظلمة فى أسفل السجن ، وأخبره أنه يشفق عليه وهو شاب رقيق أن يرى المسجونين فى تلك الغرف ، ويقف على مقدار ما يعانون من ألم الجوع ، والعطش ومن العذاب والألم ! . ولكن " فيديليو " إستغل منزلته لدى " مارسيلينا " وأبيها ، ونجح فى

إستمالة " روكو " وإقناعه بأنه برغم حداثته يتمتع بصلابة وقدرة على التماسك وأنه لن يضره شئ إذا عهد إليه بالإشراف على مسجونى الغرف المظلمة ! .

لم يجد " روكو " أمام إصرار " فيديليو " بحجة ضرورة التخفيف على مسئولياته إلا أن يوافق على طلبه . وكانت التجربة قاسية مريرة هذه المرة ؛ فقد تعرضت " ليونورا " لآلام نفسية رهيبة كادت تقصف بها وتودى بخطتها ، فالمساجين فى حال يرثى لها : يعيشون على الفتات محرومين من النور ومن حصير القش والماء والطعام إلا ما كاد يمسك الرمق ويحفظ الحياة ! .

ولم تجد " ليونورا " زوجها بين هؤلاء المساجين ، فكادت تفقد ثقتها بنفسها وبخطتها وتضيق بالدور الصعب الذى تقوم به إلا أن حبها الكبير لزوجها ورغبتها فى إنقاذه قد جعلاها تراه فى عيون السجناء الأبرياء ، فطفقت تعاملهم بحب وحنان ، وحرصت على أن تقدم لهم من الطعام المسموح به مغلفاً بإبتسامة حلوة وبوجه مشرق صاف ! . فإحتلت فى قلب كل منهم موضعاً خاصاً ميز " فيديليو " عن بقية حراس السجن ولم تخف على " ليونورا " الإبتسامة التى إرتسمت على وجوههم برغم شحوبها ، وإستلهمت من إبتساماتهم هذه الشجاعة والقوة المطلوبة لإستكمال بحثها عن زوجها .

ولاحظت " ليونورا " أن " روكو " يدخل كل صباح غرفة صغيرة منعزلة فى أسفل السجن يغيب فيها للحظات ثم يخرج بعدها وعلامات الأسى والألم بادية على وجهه ، ولما حاولت إستطلاع حقيقة الأمر ثار فى وجهها ، وغضب منها ، وأخبرها أن ذلك لا يدخل فى نطاق عملها ! . دق قلب " ليونورا " ، وبرقت عيناها وشعرت بقلبها أن زوجها هو سجين تلك الغرفة المظلمة المنعزلة .

ومضت " ليونورا " فى خطتها ، فتظاهرت بالضيق أمام " مارسيلينا " وأخبرتها بثورة أبيها ، ونجحت حيلة " ليونورا " إذ جاءها " روكو " وشرح لها سر الغرفة المنعزلة : أخبرها أنها تضم سجيناً منذ عامين مغضوباً عليه من مدير السجن الذى أعلن وفاته ليتسنى له إن يعذبه حتى يموت ! . كما حكى لها عن مدير السجن وعن أسراره المشينة وظلمه السافر .

ولم يكد " روكو " يفرغ من حديثه حتى فوجئ بـ " **ألدن بيسارو** " مدير السجن والثورة بادية على وجهه والشر يتطاير من عينيه فقد وصلته أنباء تعلن

قدوم " **دن فرناندو** " وزير العدل فى زيارة تفتيشيه على السجن بعد أن وصلته أخبار المسجونين الأبرياء ! .

وأصبح " الدن بيسارو " فى موقف حرج فجاء إلى " روكو " ليتفق معه على التعجيل بقتل " الدن فلورنستان " ليتخلص منه قبل أن يراه الوزير الذى كان قد علم بموت " الدن فلورنستان " من الإعلان الذى نشره مدير السجن ! . ولما إعتذر " روكو " زاعماً بأن القتل لا يدخل فى حدود مهنته ألقى " دن بيسارو " بين يديه كيساً من الذهب ، وشرح له أنه لن يقوم بسوى حفر قبر فى غرفة السجين وأذن له أن يستعين بأحد مساعديه الأمناء ، وأخبره أنه سيحضر بنفسه ليلقى بالسجين فى الحفرة فور حفرها ! .

ولم تكن " ليونورا " بعيدة ، فقد سمعت كل ما دار بينهما وهى محتجبة خلف الستار ، وأدركت صعوبة الموقف وأن عليها أن تتصرف بحكمة ، حتى لا تذهب فرصتها ، وتذهب معها حياة زوجها .

أمر " روكو " " فيديليو " أن يتبعه بفأس ومعول إلى أعماق السجن لمعاونته فى إنجاز حفر حفرة بغرفة أحد السجناء ! . ووطئت قدما " ليونورا " الغرفة المنعزلة فى أعماق السجن وما كاد بصرها يقع على ذلك السجين البائس الذى إستلقى على الأرض كجثث الموتى فى غيبوبة حتى إنتابتها حالة من الذهول والإضطراب التى لم تخف على " روكو " ، وإكتفى بتعليل ذلك بحداثة سن " فيديليو " وعدم خبرته بمواجهة مثل هذه المشاهد . وأخذت " ليونورا " فأسها وراحت تحفر كما يأمرها " روكو " وهى تخالس النظرات الخفية لزوجها البائس الذى لم ينتبه لوجود أحد بالغرفة من شدة الإعياء الذى كان يعانيه وأفاق " الدن فلورستان " من غيبوبته على صوت الحفر ورائحة التراب المنبعثة ، ووجه السجين إلى " روكو " السؤال الذى إعتاد أن يسأله وكان " روكو " دائماً يمتنع عن الإجابة عليه : سأله عن إسم الظالم الذى ألقاه فى غيابة هذا السجن ، وما إن سمعت " ليونورا " صوت زوجها الضعيف الخافت حتى تملكتها رعدة دفعتها إلى الخلف ، غير أن " روكو " لم ينتبه لما حدث وأمر " فيديليو " بسرعة إتمام الحفر ! .

وأحس السجين أن نهايته قد أوشكت أن تحين ، وأن الحفرة إنما أعدت خصيصاً له ، فنظر صوب " روكو " ، وتوسل إليه أن يمنحه رشفة ماء يروى

بها ظمأه ! . فمنحه " روكو " ما أراد ، وأجابه أيضاً على السؤال الذى طالما كان يسأله : أخبره أنه سجين " دن بيسارو " مدير السجن الذى حكم عليه بكل هذا العذاب والألم ، ولم يكد " روكو " ينطق بإسم " دن بيسارو " حتى فوجئ به مندفعاً إلى الحجرة ، وأشار على " فيديليو " بالخروج ، فأظهرت الطاعة ، وتظاهرت بالخروج ولكنها إختبأت فى أحد جوانب الغرفة . ولما إطمأن " دن بيسارو " إلى أن أحداً لن يكشف سره إستل خنجره ليغمده فى صدر " دن فلورستان " ! وإذا " بليونورا " تخرج فى شجاعة من مخبئها وتحول بينه وبين زوجها معلنة حقيقة نفسها ، وهددته إذا أصاب زوجها بأى سوء ! .

كانت " ليونورا " رائعة فى مفاجأتها العجيبة التى وقف لها الجميع صامتين حتى " دن فلورستان " الذى إنهمرت الدموع من عينيه ، وراح ببطء وألم شديد يحاول أن يرفع رأسه من على الأرض لينظر وجه حبيبته التى جاءت فى الوقت المناسب لتنقذه .

أما " بيسارو " فقد جعلته الصدمة أكثر حدة وإنفعالاً ، وزادت من توتره وإضطرابه إذ أحس بالخطر لو أقبل الوزير وكشف عن مثل هذه الواقعة وحدثته نفسه أن يقتل الزوجين معاً ، إلا أن مسدساً صوب إلى قلبه وهددته " ليونورا " بالقضاء عليه إذا لمس خنجره ! . لم تسعفه بديهته فقد تنبه إلى صوت النفير مؤذناً بقدوم الوزير " دن فرناندو" فلم يجد بداً من أن يسرع لمقابلته ، فغادر الزنزانة على عجل والإضطراب واضح عليه .

تفقد الوزير وسط حاشية من الضباط والجنود غرف ودهاليز السجن ، وأمر بإطلاق سراح بعض السجناء بعد أن تبين له أنهم أبرياء مظلومين ، وأراد " روكو " رئيس السجانة أن يفاجئ الوزير بالكشف عن أبشع فعلة أقدم عليها مدير السجن ، وكم كانت دهشة الوزير حين رأى " الدن فلورستان " مازال على قيد الحياة ! . وحين رأى " ليونورا " زوجته الوفيه تقف بجانبه تبين الوزير بطولة " ليونورا " وما بذلته من صبر وشجاعة فى سبيل إنقاذ زوجها ، وأمر فى الحال بإطلاق السجين وبسجن " دن بيسارو " الظالم الأثيم ! . وقرر الوزير على سبيل المكافأة أن تقوم " ليونورا " بنفسها بفك قيود زوجها ، وشهد جمهور السجناء والوزير يتوسطهم هذا المشهد الرائع :

" ليونورا " تتقدم بخطوات هادئة ، ودموع الفرح فى عينيها نحو زوجها المستلقى على أرض الزنزانة وتمد يديها الحانيتين تفك قيوده وتمسح دموعه ! .

(١٣) فريدريك شارنجتون

الرجل الذى صمم أن يكون جديداً

كانت عائلة شارنجتون الكبيرة - كغيرها من العائلات الموسرة فى إنجلترا - تحظى بسمعة طيبة فى ميدان صناعة البيرة ، وتجارة الخمور حين كانت مصانع البيرة ملكاً لأصحاب الملايين من الأسر الثرية .

وكان السيد " **شارنجتون** " عميد العائلة يملك ويدير واحداً من أوسع وأنجح مصانع البيرة والخمور فى حى فقير من أحياء لندن حيث يقطن العمال الفقراء الذين يعيشون حياة بائسة فى بيوت متواضعة رقيقة الحال ، لا يملكون من القوت اليومى إلا ما يحفظ حياتهم وحياة أولادهم ! . وبالرغم من سوء حال الحى وفقر سكانه فإن المصنع كان يمتاز بجماله ونظافة مبناه وأبراجه الحصينة ، وكانت له مخازن كثيرة منتشرة بالحى نفسه .

وككل أصحاب الأعمال النشطين ظل السيد " شارنجتون " يتابع بنفسه حركة الإنتاج داخل المصنع ، والنقل والتوزيع خارجه ، وكثيراً ما شاهده الناس يصفف بنفسه براميل البيرة فوق العربات المتجهة للمخازن . كما كان يشرف على حركة النقل إلى الحانات التى كان يملك عدداً كبيراً منها ، وكان السيد " شارنجتون " لذلك فخوراً بنفسه وبالنجاح الكبير الذى حققه فى ميدان صناعة البيرة وتجارة الخمور . ومن الطبيعى أن يشغله ذلك كله عن ملاحظة فقراء الحى المترددين على الحانات بإنتظام ، والذين قد أثقلت الخمر كاهلهم وإستنفدت كل طاقاتهم ، وبددت كل أموالهم ، فإهتمامه وإعتباره الأول لحجم تجارته وإرتفاع أسهمه بين منافسيه من أصحاب الحانات .

وعمد السيد " شارنجتون " إلى تنشئة ولده الأكبر " **فريدريك** " وإعداده كخلف له فى إدراة شئون المصنع ، فألحقه بكلية " مارلبورو " ، ثم بكلية " برينجتون " حيث تسنى لفريدريك أن يلم بدراسة شئون وأسس تصنيع البيرة

وكيفية إدارة إنتاجها . ولم يكتف السيد " شارنجتون " بذلك ، فعهد بفريدريك إلى مصنع البيرة الخاص بالملكة فى أندريسون حيث قضى عاماً كاملاً تحت التدريب ، إطمأن الأب بعده إلى صلاحية وكفاية إبنه فى إدراة المصنع الذى سيرثه يوماً ما . كان " فريدريك " يتمتع كوالده ببنية قوية ، ووجه وسيم ، كما ورث عنه حبه للرياضة والرحلات وولعه بالفروسية وسباق الخيل .

وكان " فريدريك " يعتقد أن سعادته إنما تكمن فى تمتعه بحياته وتحقيقه لنجاح كبير قد يعجز غيره من الناس عن الوصول إليه وكان ذلك بمثابة دافع قوى له ؛ ليكمل طريق النجاح الذى بدأه السيد " **شارنجتون** " فحافظ " **فريدريك** " على مستوى إنتاج المصنع ، ونجح أيضاً فى أن يرتفع به قليلاً ، الأمر الذى سر به السيد " شارنجتون " كثيراً وشجعه عليه .

وكان الرجل الكبير قد بدأ تدريجاً يتخلى لإبنه الشاب عن معظم مهامه بعد أن أثقله المرض ، وحالت شيخوخته دون مواصلة طريق النجاح الذى رسمه لنفسه . وشيئاً فشيئاً إستطاع " فريدريك " أن يحتل مكانة وسمعة طيبة بين منافسيه ولم يكن " فريدريك " سوى نِعمَ الإبن ، فلم ينكر فضل أبيه أو يتنكر له ! .. ولم يُنسِه النجاح الذى حققه فى زمن وجيز أن يعترف أن نجاحه ليس سوى ثمرة وكفاح أبيه . **وكان " فريدريك " على خلق كريم ، باراً بوالده ومحباً لإخوته وصديقاً للعاملين معه فى المصنع ؛ كما كان يعامل الناس بأدب بالغ ولطف جم ، وإنطلق من مبدأ أمانته يتجنب أى تلاعب أو سرقة أو ظلم يوقع على العمال ! .**

وفى إحدى رحلات " فريدريك " التى قصد بها الترويح عن نفسه والتمتع بملذات الحياة وأطيابها وكانت لجنوبى فرنسا - تعرف على ثرى إنجليزى شاب يدعى " **رينزفورد** " رافقه طيلة إقامته فى فرنسا ، وتوطدت أواصر الصداقة والمودة بينهما ، وفى أعقاب الرحلة - عرض " فريدى " على صديقه أن يزوره فى لندن ، ليطلعه على المصنع والنجاح الذى حققه فيه . ووافق " رينزفورد " على قبول الدعوة وأبدى ترحيبه بالتعرف على السيد " شارنجتون " وبرؤية ما حققه " فريدى " من نجاح ذلك الأمر الوحيد الذى كان محور حديث فريدى وإهتمامه ! . وإفترقا على أمل اللقاء بعد شهر فى لندن .

وفى لندن مكث " رينزفورد " أياماً فى ضيافة السيد " شارنجتون " وإبنه " فريدى " الذى كان يصحبه معه إلى المصنع والحانات ويطلعه على دقائق سير

الإنتاج .. وكان فريدى كعادته يطيل الحديث عن نجاحه فى هذا الميدان ، ميدان تجارة الخمور ، ويفخر به إلى حد الغرور الذى لم يخف على " رينزفورد " .

وفى اليوم المحدد لعودة " رينزفورد " إلى مدينته ، وقبل أن تقله السيارة التى أعدها فريدى لنقله إلى مدينته - وقف الصديقان يودع كلّ منهما الآخر ، ودهش فريدى لتصرف صديقه الذى ربت كتفه وإبتسم إبتسامة هادئة ثم قال :

أعتقد يا فريدى أنك لست سعيداً ، وأن نجاحك فى صناعة وتجارة الخمور لم يكن يوماً سبباً فى سعادتك ولن يكون أبداً ! . إنك يا عزيزى بحاجة إلى أن تنظر من حولك من الناس ، وتحس بهم أكثر ، وتحتاج أيضاً أن ترتبط بالله أكثر ، وتكون لك علاقة شخصية معه تحسها فى كل دقائق حياتك ، إياك أن تعتقد يا عزيزى أن الله راض عن نجاحك فى صناعتك ! ، أنت بحاجة إلى أن تلمس سلطان زجاجاتك فى الناس من حولك .

حاول فريدى جاهداً أن يستوقف رينزفورد ولكنه لم ينجح ، إذ مضى فى حديثه بقوة وهدوء غريب ألزماه الصمت . وشد رينزفورد على يد فريدى وقال : إننى أشكرك يا صديقى على تلك الأيام التى قضيتها معك ، وأود أن أعاود زيارتك مرة أخرى فى العام القادم ؛ لأهنئك على نجاح من نوع آخر ، نجاح يحقق لك السعادة التى تنشدها ! ، لا تغضب منى أو تهزأ بكلامى ، فأنت يا فريدى خير من أحببت ، ثم قبله وإندفع داخل السيارة .

ولم يستطع " فريدى " ليلتها أن ينام ، فقد كانت صورة صديقه ماثلة أمامه ، لا تبارح مخيلته ! . وراح يستعيد الكلمات التى قالها ويتأملها : كيف يحقق السعادة التى طالما تمناها وحلم بها ؟ . وما النجاح الذى يقصده صاحبه ؟ . ثم كيف أو ماذا يستفيد إذا نظر الناس من حوله ؟ .

وإتجه فريدى صباح اليوم التالى إلى مصنعه ، وعلامات التعب والإرهاق بادية على وجهه ، ولاحظ العمال كما لاحظ أبوه أنه لم يعد يقبل على متابعة سير العمل بالنشاط والحيوية التى إعتادها نفسها ! . كان فريدى يطيل الوقوف أمام زجاجات البيرة والخمور فى أثناء تعبئتها ، يتأملها ويسأل نفسه : تُرى ماذا تصنع هذه الزجاجات بالناس ؟ ، وما قصد صديقى " رينزفورد " بسؤاله هذا ؟ . وإكتفى المحيطون بفريدى بتعليل ما هو عليه من شرود وتعب بالجهد الكبير الذى يبذله فى إدارة شئون المصنع ، وهو بعد شاب صغير .

وذات مساء ، وبينما كان " فريدى " فى طريق عودته إلى بيته ماراً بإحدى الحانات التى يمتلكها وقع بصره على عتبة الحانة حيث وقفت إمرأة شابة ترتدى أسمالاً مهلهلة ، وبصحبتها طفلان صغيران ، وسمع فريدى السيدة تنادى زوجها من خارج الحانة وبعد لحظات خرج الزوج السكير مترنحاً وإقترب من زوجته ، وإنتهرها لمجيئها إليه وتتبعها طريقه ! . ودارت بينهما كلمات قليلة فهم منها " فريدى " أن السيدة تطلب بعض المال من زوجها لتشترى به طعاماً لعشاء الطفلين ، ومد الرجل يده ، وبدلاً من أن يناولها ما أرادت - زمجر زمجرة عنيفة وإندفع نحوها يركلها والطفلين بقدميه بوحشية بالغة ! ، ثم إندفع نحو الحانة وكأن شيئاً لم يكن ! .

أحس فريدى بآلام مبرحة فى جسمه وكأن الرجل قد ركله هو .. وفى خطوات حزينة تحرك فريدى يجر أذيال الأسف والخيبة ، يودع ببصره المرأة وقد إنصرفت فى ذلة وهوان ، وطفلاها يتعلقان بأذيالها . ثم رفع رأسه وراح يتأمل الحانة ، ووقع بصره على إسمه المكتوب عليها بحروف مضيئة وأحس لأول مرة فى حياته بإحتقار لإسمه ونفسه ونجاحه . وفهم هنا ما قصده صديقه " رينزفورد " ، ونظر إلى الناس ولمس جانباً من حياتهم ، أدرك فريدى ما تصنعه زجاجاته بهذه الأسرة التعسة وغيرها من أسر العمال الفقراء .

تحرك فريدى ببطء ودخل الحانة يلتمس طريقه بصعوبة بالغة ، وراح يبحث عن الزوج السكير حتى وجده يهذى غارقاً بين الزجاجات وراح فريدى يتأمله فى صمت ويقول :

لقد ركلنى هذا الرجل بقوة وألقى بى بعيداً عن مصانعى وحاناتى ! . إنه قرارى بهجر صناعة الخمور إلى الأبد ! .

ووجد صانع البيرة نفسه فى لحظة يحتقر خطاياه ، وبدا له وكأنه يحمل حملاً ثقيلاً على كتفيه يود لو أن أحداً يرفعه عنه ! . وتذكر كلمات صديقه الإنجليزى : " إنك لست سعيداً ولا ناجحاً ! " وأدرك أنه فعلاً تعس وفاشل ، وتعجب من نفسه كيف تصور يوماً أنه حقق نجاحاً كان سبباً لشقاء وتعس آلاف الناس من حوله ؟ .

وفى تلك الليلة صمم " فريدى " أن يصبح إنساناً جديداً ، وأن ينجح نجاحاً جديداً آوى إلى غرفته وفى صلاة باكية إعترف لله بجرم خطيئته التى ظنها يوماً

نجاحاً ، وطلب منه الغفران والصفح ، وأقسم " فريدى " أنه لن يعود إلى الزجاجات مرة أخرى ، وإن كلفه ذلك أن يعاديه أهله ، وأن يكابد هو وأسرته خسارة فادحة لا تعوض ! .

وبالرغم من إحساسه بجسامة الأمر المقبل عليه ـ أحس أنه يصنع أول لبنات النجاح الجديد الذى حدثه عنه صديقه " رينزفورد " ، وشعر وكأن بقراره هذا قد بدأ ينصت لصوت الله ويطيعه .

وكان قرار فريدى كما توقع صدمة مروعة بالنسبة لأبيه السيد شارنجتون ، فقد إتهمه بالجنون ، وهدده بأن يحرمه ميراثه من أملاكه الواسعة حتى من حنان أبوته ! . ولما وجد السيد شارنجتون من فريدى تصميماً على ما أراد ـ حاول جاهداً أن يستميله ، وأن يلتزم بالهدوء فى محاولة إقناعه بأن صناعة البيرة ليست جرماً ولا خطيئة ، وأن صانع البيرة ليس مسئولاً عن كمية الشراب التى يتعاطاها الناس ، ولا لوم عليه إذا سكروا أو فقدوا عقولهم ! .

غير أن فريدريك لم تؤثر فيه كلمات الأب فى كسبه إلى صفه ، ومحاولة إقناعه بالعدول عن قراره الغريب ! .

وشعر السيد شارنجتون أن كفاح سنى عمره ذهب أدراج الرياح ! .

أما فريدريك فقد بدأ يشعر بمذاق مختلف لحياته يخالف عهده لها .. وشيئاً فشيئاً بدأ مفهومه عن السعادة يتشكل بإتجاهه الجديد الذى رسمه لنفسه وكم من المرات التى وقف فيها سعيداً يتطلع إلى الحانة التى قرر فيها قراره الشجاع وقد خوت وأظلمت ..

ولم ينقض وقت طويل على هذا القرار ، حتى وقع السيد " شارنجتون " من على ظهر جواده ، وكانت إصابته خطرة تسببت فى عجزه ، وعجلت بإنتهاء أيامه ! .

وعلى فراش الموت كان السيد " شارنجتون " يكابد الآمه بأنفاس متلاحقة وسط أبنائه الذين حرصوا على أن يحيطوه بمشاعر الحب والحنان وكان فريدريك برغم كل شئ أكثرهم قرباً لوالده وإحساساً بآلامه .

وكان السيد شارنجتون يطيل النظر إليه ، وذات مرة إنفرد السيد شارنجتون بفريدريك الذى جلس فى هدوء يقبل يدى أبيه فى حنان بالغ .. وجاء صوت الأب

فيه وهن وحشرجه : **إننى أحبك يا فريدى ، ولست غاضباً عليك ولا ثائراً على قرارك .. لقد نجحت يا فريدى النجاح الذى لم أعرفه أنا ولم أتذوقه ! . إننى أهنئك على إختيارك الصالح ! .**

كانت هذه هى آخر كلمات السيد شارنجتون وكم كان وقعها على نفس فريدريك ! .

وقد كان من الممكن أن يكتمل شعور فريدريك بالسعادة بعد أن إتخذ قراره الصارم بالإبتعاد عن الشر الذى إنغمست فيه عائلته وخاصة بعد أن أعترف له أبوه بصواب مسلكه ولابد أنه أحس ببعض الراحة لقراره هذا ؛ لكن حادثاً آخر غير حياة فريدريك وأعاد تشكيلها :

ففى ذات مساء وبينما كان فى طريقه لاحظ أن صبياً يقبع على ناصية الطريق ويجهش بالبكاء ، فتقدم إليه فريدى وربت كتفه بحنان وقال : ماذا بك يا عزيزى ؟! أأنت من سكان هذا الحى أو من الأحياء المجاورة ؟ ، إنى بحاجة إلى أن أتمشى قليلاً ، أتود أن تصحبنى معك إلى منزلكم ؟ .

إستمر الصبى فى بكائه ، ثم نظر إلى فريد وقال فى صوتٍ متقطع النبرات ، إنى لا أريد العودة إلى البيت ، إننى لا أرغب العودة إلى البيت ورؤية ما تعانيه أمى وإخوتى الصغار من ضيق وألم ، إننا يا سيدى نعيش حياة بائسة ؛ فقد مات أبونا ، وليس لأمى مصدر رزق آخر نقتات به بعد ما باعت معظم أثاث البيت وحاجاته ، إننى يا سيدى أتوسل إليك أن تبحث لى عن أى عمل ! .

وسأل فريدى الصبى : أين كان أبوه يعمل حتى يوصى بإلحاقه فى العمل نفسه وإبتسم الصبى ثم قال : كان أبى عاملاً صغيراً بأحد المصانع القريبة من هنا ، ولكنه كان مكروهاً من رؤسائه وزملائه ، وأيضاً لم يكن حبيباً لنا أو لأمى ! .

إعتدنا أن نراه يتشاجر هو وأمى وكثيراً ما شاهدناه يصفعها على وجهها إذا طلبت منه مالاً أو سألته الحد من كمية الخمور والبيرة التى يتعاطاها والتى كانت تودى بكامل راتبه وتدفعه إلى الإقتراض أحياناً ، فضلاً على أن أبى لم يكن ليحترم أمى أو يسمع كلامها ، فكان بعد إنتهاء عمله يمضى إلى الحانة المجاورة للمصنع ويقبع بين الزجاجات حتى الساعات الأولى من النهار ، فيقوم ثملاً مترنحاً ويصل إلى البيت فى حالة يرثى لها ، وتبدأ سلسلة الشجار والمشاحنات حتى الصباح ! .

ومرض أبى وأجمع أطباء المصنع أن الخمور قد تسببت فى تليف كبده ، ولم يكن ليملك حتى شراء الأدوية اللازمة للعلاج ! .

تملكت فريدى رعشة قوية ، والصبى يتابع كلماته ، وشعر ببرودة شديدة تحتويه وكأن أطرافه أوشكت أن تتجمد ! . إنه يشعر أن أصابع الإتهام تشير عليه ، إنه السبب فى كل ما حدث وما يحدث ، إن عليه إذن أن يساعد أسرة هذا الصبى وغيرها من ضحايا نجاحه الفاشل ! .

قام فريدى بتحويل أحد المخازن التى كانت تابعة للمصنع إلى دار إيواء للصبية الصغار الفقراء ، وقام بتنظيم عملية إقامتهم فيها ، ودبر لكل منهم عملاً يرتزق هو وأسرته منه ! .

وعنى كثيراً بتعليمهم دروس الفن والموسيقى كما إهتم ببرنامج الرحلات للترويح عن أنفسهم .

وأحس فريدى أنه فى طريقه السليم لتحقيق النجاح الذى يرضى الله ! . وتذكر صديقه الإنجليزى ، إنه ولا شك سيسعد بقراره الجرئ وبنجاحه الجديد .

وشيئاً فشيئاً كان نطاق خدمة فريدى للناس يتسع ومحبته لهم تزيد ، وتجاوبه معهم ينمو ويزدهر .

لقد نجح فريدى النجاح الذى يحقق له السعادة وهناء البال ، وأدرك أن سعادته إنما تكمن فى إسعاد من حوله والحرص على راحتهم .. وفى أشهر الشتاء القارصة البرودة ، كانت عملية إطعام العائلات الجائعة من الأنشطة الرئيسية " لفريدريك شارنجتون " ، فكان يفتح بابه لكل جائع أو محتاج ، يعطيهم من دفء حبه وحنان قلبه ، ويضع بين أيديهم ما يسد إحتياجهم ويشبعهم ، ويقيهم ذل السؤال .



شخصيات لا تنسى ..

(١٤) جيوفانى بوسكو

الفلاح الصغير صديق الفقراء ومربى اليتامى

تبدل كل شئ فى البلاد : أغصان جافة ، أشجار بلا ثمار ، أطلال من البيوت الباقية ، وجوه تعلوها الكآبة تسير على غير هدى ، نظرات تعبر عن الألم والأسى الذى لو طرحته القلوب خارجاً فى كلمات ما وجد فى قاموس الكلمات ما يعبر عنه أكثر من دموع تسكبها العيون ! .

لم تكن الحال هكذا من قبل ، فقد كان لكل فرد فى البلاد آمال وآمال : كانت البيوت شامخة تشع منها الإبتسامات ! . ولكن أتى الإنسان - كعادته - ليقطع الآمال لنفسه ، وليهدم ما بنته يداه بإشعاله نار الحرب العالمية الأولى ؛ لتخلف وراءها ما تخلفه كل حرب من دمار ومن بقايا بشر جرحتهم الآلام مما عاصروه من دمار ، وأكلتهم الأحزان على بقايا أجساد كانت بالأمس أهلاً وأحباباً ! .

.. وبعد فقد صارت الحياة مهددة بعد أن إستنزفت كل موارد البلاد ! .

فى هذه الفترة القاسية وفى بقايا منزلٍ ولد " **چيوڤانى بوسكو** " فى إحدى القرى القريبة من تورينو الإيطالية .. ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى فارق والده الحياة تاركاً زوجته التى أنهكتها الأيام وإبنه الأكبر " أنطونيو " من إمرأته الأولى .. والصغير " چيوڤانى " .

وكان هناك أمر وحيد لا ثالث له .. أن تخرج الأم للعمل .. ولكن أى عمل فى هذه الأيام التى لم يبق فيها شئ ؟ ، ولم يكن هناك سوى أن تفلح الأرض " وحيدة " . وهكذا وقفت تقاوم قسوة الأيام ، ولكنها لم تستطع أن تصمد وحدها أمام إحتياجات البيت ، وكان لابد أن يعاونها أبناها ، فخرج أنطونيو للزراعة ، و " چيوڤانى " لرعى الخراف وهو مازال فى الخامسة من عمره ! .

مع صباح أحد الأيام إنطلق " چيوڤانى بوسكو " مع خرافه ؛ ورغماً عن قسوة الظروف فإنه كان يشدو بصوته العذب فى طريق القرية . وفجأة توقف على صوت عصفور متألم يكمن على جانب الطريق ... إتجه " چيوڤانى " نحوه .. كان العصفور مربوطاً بخيط مثبت فى جذع شجرة ، توقف الصغير لحظة أمامه ساكناً لا يتحرك .. **لعل خاطره كان يحدثه عن ذلك القلب الذى لم يعرف كيف يرحم هذا الطائر الصغير ؟ ، أو أى سعادة تلك التى يجدها شخص فى إيذاء طائر بهذه الصورة ثم يتركه ؟ .**

إنحنى الصغير على الأرض ، وفك العصفور وهو يحدثه بخواطر قلبه ، وحمله على يديه ودفعه فى الهواء .. وببراءة الصغار راح يلوح بيديه للعصفور الذى راح يرفرف فى الهواء من حوله مرات وكأنه يود أن يعبر له عن شكره ! . ولم يكن " چيوڤانى " يعرف أن هناك شخصاً يراقبه ، وهكذا حمل عتاده ، وراح يشدو من جديد إلا أن يداً مست كتفه بحنان .. وإلتفت چيوڤانى ليجد نفسه أمام وجه عجوز تعلو التقاطيب وجهه وكأنها خريطة الأيام ! .

.. إبتسم الرجل وإطمأن الصغير ، وإبتسم له ثم إتجه نظره إلى الأرض .

وسأله الرجل : ما إسمك ؟

- چيوڤانى بوسكو .

- عظيم يا چيوڤانى ! . أنا سعيد برؤيتك ، أود أن نكون أصدقاء .

إرتسم الخجل على وجهه الصغير ، وراح يتأمل فى عصا أمسكها بيده ، وسأل بصوت متقطع : وما إسمك يا سيدى ؟

- كالوسو .

وفتح چيوڤانى عينيه من الدهشة : فكالوسو من الأعيان الذين يسمع عنهم ! . وأفاقه كالوسو من دهشته وهو يربت كتفه قائلاً :

- هل تزورنى فى المساء ؟ ، أريد أن أتحدث معك .

- نعم يا سيدى .

وفى المساء كان " چيوڤانى " فى منزل " كالوسو " وقد هالته روعة البيت الذى يسكنه الرجل وحيداً مع خادم صغير .. رحب به الرجل وكأنه صديق قديم له : صديقى ، حدثنى عن نفسك ... كيف تعيش ؟ . وكيف تقضى يومك .. ؟ .

- أستيقظ عند شروق الشمس أنا وأخى أنطونيو وأمى ، ونقف لنشكر الله ونطلب معونته ، ثم آخذ الخراف ، وأذهب بها إلى المراعى حتى المساء .

كان كالوسو ينظر إلى هذا الصبى الصغير الذى حكمت عليه الأيام أن يتحمل آلام الحياة من صغره ولكنه كان يظهر إبتسامة للصبى : عظيم يا چيوڤانى ! . هل تعرف أنى كنت أتمنى أن أكون راعياً .. الطبيعة والهدوء والخراف الوديعة أشعر أنك تعمل ما لم تتح لى الفرصة أن أعمله . ولكن ما رأيك : أريدك أن تعمل ما عملته أنا ؟ .

ووقف چيوڤانى ينظر إلى الرجل صامتاً .. فكرر كالوسو السؤال :

- ما رأيك فى أن تعمل ما عملته أنا ؟

وإبتسم چيوڤانى سائلاً : لا أفهم ماذا تقصد يا سيدى ؟ .

- أقصد أن تتعلم القراءة والكتابة ! .

ولم يمتلك چيوڤانى نفسه من الفرحة ، فإندفع متعلقاً بعنق الرجل ! . ولكنه عاد إلى نفسه وقال بهدوء : نعم يا سيدى .. كم أكون سعيداً جداً .

- إذن نبدأ من مساء الغد .

كانت فرحة " چيوڤانى " لا تعادلها فرحة ، وفى الطريق كان يردد درس اليوم الأول وهو يكاد يرقص فى الطريق محتضناً كتبه التى قدمها له السيد كالوسو . وبينما كانت الفرحة تشع من عيني چيوڤانى كان أنطونيو يقف أمامه صامتاً لا ينطق بشئ والغضب بادٍ على وجهه ..

وضع چيوڤانى كتبه على منضدة مجاورة نحو أنطونيو وأمسك يده برفق :

- ماذا حدث ؟ هل حدث شئ ؟ .

ولم يكاد چيوڤانى يكمل حديثه حتى دفع أنطونيو يده وإندفع كالثور الهائج نحو الكتب وألقى بها بعيداً ! . وقف چيوڤانى لحظة مدهوشاً وقد أذهله الأمر ثم سار بهدوء نحو كتبه وأمسكها بيده ، وإندفع أنطونيو مرة أخرى نحوه يريد أن ينتزع الكتب منه فصرخ چيوڤانى : لماذا يا أنطونيو ؟ ، لماذا يا أخى .. ؟ .

- لا تحاول سأمزقها ! .

وأتت الأم من الخارج على صوت چيوڤانى الباكى وبنبرة من الأسى قالت :

- لماذا يا أنطونيو .. ؟ هل تكره أن يتعلم أخوك ؟ .

- ولماذا لم أتعلم أنا .. ؟ كل أيامى قضيتها فى الحقول وهو يتعلم ! .

تقرب چيوڤانى بروحه الهادئة نحو أنطونيو .

- من قال إنى لن أعمل .. ؟ سأعمل طول النهار وأتعلم فى الليل .

- قلت : لا .. هل تفهمين ؟ .

ثارت ثائرة المنزل - والأم المسكينة تقف حائرة بين أنطونيو وقسوته وآمال الصغير چيوڤانى ! .. كانت عجوزاً قد أنهكتها قسوة الأيام ، ولم تستطع أن تحسم النزاع بأكثر من أن تجد عملاً لچيوڤانى عند أسرة من الأثرياء تدعى " أسرة موليا " فى بلدة مجاورة لتبعده عن تعنت أخيه .. وهكذا تقرر ذهاب چيوڤانى .

وفى أواخر عام ١٨٢٨ عانق چيوڤانى أمه ، وإنطلق سيراً على الأقدام نحو القرية التى بها بيت " موليا " ، بعد ساعات طويلة من السير على الأقدام وصل چيوڤانى بعد أن ظل يسأل فى الطريق كل من يقابله ، فهذه هى المرة الأولى التى يترك فيها البيت . وطلب چيوڤانى أن يقابل سيد البيت .. ووقف چيوڤانى أمامه صامتاً فسأله الرجل : ماذا تريد يا ولد ؟ .

- أنا چيوڤانى .. جئت للعمل .

وضحك الرجل وهو يتطلع نحو الصبى الصغير النحيل الجسم ، ولما رأى خجل چيوڤانى عطف عليه وقال له برفق : إنك لن تقوى على العمل يا بنى ! .

- ولكنى محتاج إليه يا سيدى ! .

قالها بصوت متقطع والدموع تكاد تقفز من عينيه .. ولم يرد الرجل .. فواصل چيوڤانى قوله : جربنى يا سيدى ولو يوماً واحداً ! إذا لم أصلح فأطردنى ! .

هز السيد رأسه موافقاً ، ونادى رئيس الخدم طالباً منه أن يعرف چيوڤانى بعمله . ومنذ اللحظة الأولى لم يتوان الصغير فى العمل ، فبذل كل جهده وهو يدرك أن هذا واجبه .. ومع نهاية اليوم الأول كان لا يستطيع الوقوف على قدميه من مشقة العمل ، فإستلقى على كومة من القش فى الحظيرة ونام حتى الصباح - ومع شروق الشمس كان چيوڤانى راكعاً على الأرض متطلعاً نحو السماء وما أن

رآه السيد حتى ذهب تجاهه وهزه بعنف قائلاً : نحن أحوج إلى الغلال أكثر منا إلى الصلاة .

- ولكن يا سيدى لولا الصلاة ما كانت الغلال .

لم تستمر الحال كثيراً فقد علم خال چيوڤانى بما حدث ، فأسرع إلى أسرة " موليا " طالباً چيوڤانى وعاد به إلى البيت وما إن طرق الباب حتى فتحت الأم التى ذهلت وهى تراه ممسكاً جيوفانى بيده : چيوڤانى .. قلت لك : إذهب لأسرة موليا وليس لخالك ! ، وإرتفع صوت الرجل معاتباً : هل سمح لك قلبك أن تتركى إبنك يعمل خادماً ؟ .

- ولكن ..

- ولكن ماذا ؟ ألست تعلمين قسوة العمل ؟ ثم إن چيوڤانى يريد أن يتعلم ، وقد حدثنى السيد كالوسو عن رغبته فى أن يعلمه .

- أعرف .. ولكن أنطونيو .. ! .

- أتركيه لى .. سأعرف كيف أتصرف معه ؟ .

أستقرت الحال ووافق أنطونيو تحت ضغط خاله أن يتعلم چيوڤانى بشرط أن يعمل طوال النهار وهو حُر فى الليل ينام أو يتعلم ! . وإستمرت الحال هكذا ما يقرب من عامين حسبها چيوڤانى من أسعد أيام عمره وهو يشعر بذلك الحنان الذى أحاطه به السيد كالوسو . كان يشجعه كل يوم ويعطيه الثقة فى نفسه ولم يكتف بتلقينه العلم فقط ، بل عمل جاهداً على أن ينمى فيه الروح المرهفة المضحية ، تلك الروح التى شاهدها فيه فى أثناء أول يوم قابله .

كان صباح لا يُنسىَ وچيوڤانى يعمل فى الحقل حين سمع صوتاً يناديه من بعيد .. صوتاً ظل يتذكره مدى حياته .. صوت صبى متهدجاً ممزوجاً بنبرة من الألم .. كان صوت خادم كالوسو : چيوڤانى .. السيد كالوسو يريد أن يراك ..

وإندفع چيوڤانى نحو الصبى الذى ملأت الدموع عينيه وسأله :

- ماذا بك ؟ ماذا حدث للسيد كالوسو ؟.

- سيدى مريض .. مريض جداً .. أخاف أن ..

ولم يكمل جملته حتى إندفع چيوڤانى تاركاً رعيته بين الحقول وهو لا يعبأ بأى

أمر من الأمور .

ودفع باب السيد كالوسو ولأول مرة كان البيت محتشداً برجال ونساء .. وسأله رجل : أنت چيوڤانى ؟

- نعم يا سيدى .

وأمسكه الرجل من يده وفتح الباب وأدخله ثم أغلق الباب ، تطلعت عينا كالوسو نحوه وإبتسم إبتسامه هادئة وقد بدأ عليه الإعياء . فلم يستطع أن ينطق بالكلمات فإكتفى بالإشارة إلى چيوڤانى الذى تقرب راكعاً من فراشه وبجهد جهيد جداً يتكلم : هل حفظت درس الأمس ؟ .

وإنفجر چيوڤانى باكياً .. وإمتدت يد كالوسو إلى رأس الصبى تمسحها بحنان .

- كم أنا حزين على فراقك يا صديقى الحبيب .

ودفن چيوڤانى الراكع رأسه فى فراش كالوسو وهو يضغط يده :

- لا ، يا سيدى - لا تقل هذا يا سيدى .

إمتدت يد كالوسو تحت وسادته وأخرج مفتاحاً صغيراً وأمسك يد چيوڤانى وأطبقها عليه : ما هذا يا سيدى ؟

- لا تخف يا بنى على مستقبلك .. هذا المفتاح خزانتى كل ما بها من نقود لك ؟ .

قالها بصوت كأنه خارج من بئر عميقة وأغمض عينيه إلى الأبد .

كانت عائلة كالوسو قد وفدت من كل مكان .. حتى الذى لم يكن يعرفه أتى بحثاً عن شئ يرثه وجدهم چيوڤانى لا يلتفون إلى الرجل الملقى فى الفراش ، ولكن كلاً منهم يبحث تحت وسادته ، فى دواليب ملابسه .

وبكى قلب چيوڤانى على هذه القلوب الدنيئة كما بكى على أستاذه الحبيب الراحل .. وفجأة أفاقه من سباته رجل " ضخم أتى إليه سائلاً :

- ألم يعطك السيد شيئاً ؟ .

ووقف چيوڤانى ساكناً لا يدرى ماذا يقول ؟ ..

كان الأمر صعباً عليه ، ولم يدر شيئاً ، إلا وهو يضع يده في جيبه ، ثم أمسك بالمفتاح وقدمه للرجل ! ، وتطلع إلى هذه الوجوه الناظره إليه وقد بدت البهجة على عيونهم ، وإتجه في هدوء نحو فراش السيد كالوسو ، وألقى عليه نظرة الوداع ، وإنفجر باكياً ، ودفع الباب منطلقاً بعيداً عن عالم هو أشبه بعالم الذئاب ! .

لم تثنه وفاة السيد كالوسو عن عزمه ، بل إزداد رغبة فى العلم ، وكل أمله أن يحقق رغبة معلمه الراحل ، فذهب إلى مدرسة " كاستل نوڤو " ليستأنف دروسه اللاتينية ، وأخذ يسير كل يوم مسافة عشرين كيلو متر مشياً على الأقدام للوصول إلى المدرسة ! . وكثيراً ما كان يخاف على حذائه ، فيخلعه ويحمله على كتفه ، ويسير حافياً فهو يعرف أن لن يستطع الحصول على حذاء آخر ، ويعرف أيضاً أنه لا يستطع أن يدخل المدرسة حافياً .

.. ويوماً إشتد الألم بقدمه حتى إنه لم يستطع أن يخفى آلامه ، وقربت أمه لترى قدمه وقد تمزق الجلد عنها .. فهمست بنبرة من الألم : لماذا لم تخبرنى يا چيوڤانى بأن حذاءك لم يعد صالحاً وأنك فى إحتياج إلى آخر ؟ . لم يفطن چيوڤانى بشئ أكثر من نظرة شكر رفعها إليها ، وهو يعرف أنها تقول هذا ، ولكنها لا تستطع الحصول على آخر .

تمزق قلب الأم على نجلها المحبوب ، ورأت أنه يعتذر الإسترسال على ذلك المنوال ، فعملت على أن تدبر له تدبيراً آخر يخفف عنه مشقة الذهاب والإياب كل يوم من بيته إلى المدرسة ، فإتفقت مع خياط يقال له " روبرتو " على أن يبيت إبنها عنده نظير خدمات يقدمها چيوڤانى إليه فى وقت فراغه ، وقد إنتهز جيوفانى هذه الفرصة وتلقن الخياطة والتفصيل حتى أتقنهما .

كانت الأيام تمر طويلة قاسية إلا أن چيوڤانى عرف كيف يتقبل الواقع فرحاً محولاً الألم إلى بهجة فى داخله آملاً ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن ينهى دراسته ، ليمسح الدموع عن الأعين الكثيرة التى تعانى مثل ما يعانيه ! . إنه يود لو يعيد قصة حياة السيد كالوسو التى عاشها معه ؛ ليعيشها هو مع كل قلب كسير ، ويعاونه ليحقق آماله التى يتطلع إليها .

ومما زاد قسوة الشهور الأولى أن چيوڤانى وجد صعوبة فى الإختلاط برفاقه ، لأنهم كانوا يهزءون به ! . فقد كانوا كلهم من أصحاب الأموال حيث لم يكن

مثلهم - وخاصة فى مثل هذه الظروف التى تمر بها البلاد - حتى يتعلم فقيرٌ ! ، لأن الدراسة كانت تحتاج إلى الكثير من المصروفات ، ولكن چيوڤانى إقتصد وجمع من عمله المصروفات .

والمؤلم أن معلماً قال له يوماً ما :

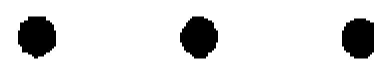
- هل يمكن أن يخرج من قريتكم شئ حسن ؟ .

أليس الأجدر بك أن تعود إلى حقلك وحراثتك ؟ .

أما چيوڤانى فقد إحتمل ذلك التوبيخ بصبر جميل لا يتزعزع ، ولم تمض فترة طويلة حتى فاق جميع رفاقه وكانوا يضطرون من وقت لآخر أن يذهبوا إليه ليلقنهم ما يفوتهم فهمه ! .

وبالرغم من فقره المدقع كان يخصهم بشئ مما كانت تحمله إليه والدته العطوف المسكينة ، والله يعلم أن كل أسرة فى بلدته كانت تأتى مع أول كل شهر بشئ معونة وتقديراً لذلك الصغير وإحتراماً لكفاحه فإن أبناءهم فى مثل سنه - برغم إقتدارهم - قد لازموا الفشل فى حياتهم ..

وهكذا ظل چيوڤانى زمناً طويلاً يرقد على سطح فرن فى زاوية ضيقة وكانت قامته أطول من فراشه الحجرى ؛ ولم يكتف چيوڤانى فى هذه الفترة بخدمة الخياط ، وإنما خدم حداداً وأخذ عنه الحدادة ، وخدم نجاراً وأخذ عنه النجارة ، وفى مدرسته تعلم الموسيقى حتى أجادها .. وفى كل هذا لم يكن يفكر فى شئ ، غير هؤلاء الصغار المتروكين أو التاركين أنفسهم ضحايا للإهمال وأخطاء المجتمع .. كان يفكر فى شئ ما لينتشلهم مما هم فيه ! .



أنهى چيوڤانى دراسته ، وصار من أفراد المجتمع المعدودين الذين واصلوا تعليمهم العالى .

وبدأت أحواله تتحسن فإستأجر له منزلاً صغيراً . وفى مساء يوم لا ينساه بل يذكره تماماً .. مساء ٨ كانون الأول عام ١٨٤١ يوم هطلت الأمطار قاسية - حدث أن طرق الباب شاب شريد ..

كان شاباً رث الثياب متسخ الجلد فطرده الخادم ولكن چيوڤانى الذى كان

بالداخل أسرع إليه وحدثه حديث الأب الحنون ودعاه إلى بيته ، وعرف أنه يدعى " برتلماى غرلى " مات والده فى الحرب ويبلغ من العمر ١٦ عاماً ، ويعمل بناء .. وفى هذا الشاب وجد چيوڤانى الفرصة سانحة ؛ ليبدأ الطريق الذى عاش لأجله .. فأكرم الصبى أحسن إكرام حتى إنه صار مذهولاً من حسن المعاملة ، وعبر عن ذلك بقوله :

- آسف يا سيدى ! ، أتعرف انى لم أكن أقصد أن أطرق أى باب ، لأنى أعرف أن أحداً لن يقبلنى ولكنى دونما وعى طرقت الباب فالأمطار غزيرة ، ولم تكن لى القدرة على تحمل تعب النهار وهذا البرد القارس ؟ .

- هل تعرف أنى سعيد بمعرفتك ؟ .

بقى " برتلماى " حتى إنتهت الأمطار وإستأذن فى الخروج ، فسلم عليه چيوڤانى بحرارة :

- تعدنى أن تزورنى غداً بعد العمل .

- نعم يا سيدى .

- إياك أن تأتى وحدك .. إحضر رفاقك أيضاً سأستعد لإستقبالكم .

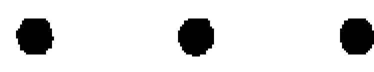
وتدريجياً وصل عدد الأولاد إلى المائة .. وأعرب لهم چيوڤانى عن عطفه وإخلاصه فى سبيلهم يبحث لكل منهم عن عمل ، بل إنه كان يعلمهم حرفاً أكثر مما تعلمها فى حياته .

وشعر " غوالا " رئيس أحد المدارس بما يقدمه چيوڤانى ، فسمح لهم أن يلعبوا ويباشروا نشاطهم فى فناء المدرسة ..

وظل چيوڤانى يمارس نشاطه فى هذا المكان ثلاثة أعوام (١٨٤١ - ١٨٤٤) .

وبعد هذه الفترة زاد عدد الأولاد إلى ٣٠٠ غض بهم المكان ، وظل يلاطفهم ويعاونهم مبتهجاً بحركاتهم وضجيجهم وهو يجد فى سعادتهم راحة .. وبكل الطرق حاول أن يرشدهم إلى طريق الحب والخير ، وتفشت عدوى الحب بينهم ، فكنت تراهم فى إبتسامة دائمة وحب لا يفتر .. وقد بدأ كل منهم يأمن

مستقبله بحرفة تعلمها ، بل إنه كان يجد الوقت ليعلمهم القراءة والكتابة ، ولكن المؤسف أن الجيران أبلغوا السلطات الأمر ليخرج جيوفانى من المكان ! .



خرج چيوڤانى إلى المدينة يبحث عن موضع لمشروعه بعد أن إنفض الكل من حوله حيث أن أحداً منهم لم يفهم ما يهدف إليه چيوڤانى صاحب القلب الكبير .. وكان كلما رآه أحد - وهو المثقف صاحب الوقار - مع هذا العدد الهائل من الأولاد ظن أنه معتوه ! .

وصل چيوڤانى وأولاده إلى مقبرة تدعى مقبرة (القديس بطرس) تكتنفها فسحات واسعة وسأل صاحبها أن يأذن لأولاده باللعب هناك فلبى طلبه ، غير أن إمرأته التى كانت غائبة : لما وصلت البيت وشاهدت الأولاد حول المعبد والمقبرة هاجت ، وطلبت طرد چيوڤانى المجنون وأولاده ! . وكما إعتاد چيوڤانى الإحتمال منذ صغره كان يحتمل كل هذه الأمور ! .

وقد قدم الله له العون فى شراء قطعة أرض بها دهليز ضيق مسقوف ، وعمل هو وأولاده على بناء ذلك المكان بأيديهم ، وكان هو الأول الذى يحمل الأحجار على كتفه ! . ولم يمض وقت طويل حتى تحول ذلك المكان إلى ملعب للأولاد ومسكن للمشردين منهم .

وبالرغم من كل هذا العمل الشاق الجليل فإنه كان يجد معارضة الجميع .. ولكنه أكد أنه فى المستقبل القريب وبمعونة الله سيجد محلاً واسعاً وغرفاً كبيرة ، ومعامل وقاعات وفسحات للألعاب وبالأكثر مؤمنين ليساعدوه فى تثقيف مئات وألوف من الأحداث والشبان والأيتام .

ولم تكن هذه المعارضة ذات خطورة إذا قيست بمعارضة السلطة المدنية ، تلك التى أخذت تحسب ألف حساب لأعمال چيوڤانى لظنها أنه إنما يهيئ أولئك الشبان لمناهضة السلطة المدنية والخروج عليها وإحداث إنقلاب فى الدولة ! . ولذلك أخذت تبث العيون ، وتبعث الجواسيس والشرطة ليراقبوا تحركات أولئك الأحداث ! .

.. ولكن ما هى إلا أشهر قليلة حتى كفت الحكومة عن ملاحقته مقتنعة بإخلاصه وأمانته حتى أنهم سمحوا بمعاونته وساعدوه ليزور السجون .. فقد

كان يشعر بأن المساجين ضحايا قبل أن يكونوا مجرمين . وإن كانوا مجرمين فهم فى إحتياج لمن يعاونهم حتى لا يموتوا مجرمين ! .

• • •

ومع الأيام كبر مشروع " چيوڤانى " وتوسع فى الدروس الليلية وأضاف صفوفاً لتعلم اللغة والحساب والجغرافيا .. ومن أبنائه الذين كبروا مارسوا معه خدمة المجتمع .

كان للتعب والسهر والهموم أثرها البالغ فى صحته فإنتابته علة قوية .. وقد زاره الطبيب ومنعه عن العمل بتاتاً ، وأشار عليه أن يستدعى والدته لتخدمه ، وأما أولاده فلا تسأل عما حاق بهم من الهموم فقد إحتشدوا فى صلوات متعاقبة ، ليجود الله على أبيهم العطوف بالعافية .. وقد صاموا صوماً جماعياً طلباً للرحمة .. وأقبل يومئذ الدوق " دي ترنلك " سفير إنجلترا ليزور چيوڤانى وجثا زهاء نصف الساعة عند فراشه ! .

كان فى الثانية والسبعين من عمره حين إشتد عليه المرض ، وعلى فراشه ترك وصيته الأخيرة :

- أرغب فى أن تبلغوا الجميع ليعيشوا كإخوة يحب بعضهم بعضاً ، ويحتمل بعضهم بعضاً .. أوصيكم أن تصنعوا الخير للجميع قولوا لأولادى ! ، إنى أنتظرهم فى السماء ! .

وفى الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين من يوم ٣١ من كانون الثانى سنة ١٨٨٨ إنقطعت أنفاسه ، ولفظ روحه التقية فى ٢ شباط حضرت جماهير أكثر من مائة ألف لتودع صديق الفقراء ومربى اليتامى حيث دفن فى معهد " فلساليس " عند أحد مداخل تورينو .

ولكن لم تتوقف رسالته فقد ظل أبناؤه ينتشرون فى كل مكان يواصلون الرسالة . واليوم فى كل دولة من دول العالم تقريباً معهدٌ يحمل إسم " چيوڤانى بوسكو " (متذكرين ذلك الفلاح الصغير الذى أراد وإستطاع أن يحقق ما لا يخطر على بال) .



شخصيات لا تنسى ..

(١٥) ألين ريتشاردز

بيت وكيمياء

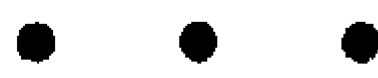
بعد أن أصبحت " ألين ريتشاردز " فى دور الشباب لم تجد حولها إلا ربات البيوت ممثلات فى أمها وجدتها وصديقاتهما . .

وكان دور ربات البيوت في ذلك الوقت - فى أواخر القرن التاسع عشر - دوراً شاقاً ؛ إذ أصبح المال مقياساً هاماً فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى صار العامل غير المكتسب لا يجد الإحترام الذى كان يجده الموظفون .

وإذا كان من المتوقع أن يعاد تنظيم العمل بالمصانع لتحسين الربح فإنه لم يكن هناك ما يدعو لتحسين كفاية العمل بالمنزل على الرغم من أن ربات البيوت يعرفن أنهن أقل إنتاجاً من العاملات بالمصانع .

فى هذه الظروف كان شباب " ألين " .. لكنها كانت من بين المتطلعات . . بل الرائدات من بنات مجتمعها لتحقيق تغيير فى دور المرأة فى المنزل .

وفى ذلك الوقت أسندت للمرأة مسئولية قرار ما يجب شراؤه للأسرة ، وكيف يمكن إستخدام الخدمات المتاحة ؟ . وهذا ساعد على توجيه الإقتصاد الأمريكى نحو السلع التى تستهلكها الأسرة فى المنزل .



قاومت ألين ريتشاردز (١٨٤٢ - ١٩١١) دور (فتاة البيت) الذى كان طابع كل فتيات جيلها - وذلك بأن تُبعَد البنت عن المدرسة خلال السنوات الأولى ! . وكان والدا " ألين " يعملان بالتدريس وقاما بتعليمها بالمنزل - إلا أن " ألين " سعدت بأن تقوم أيضاً بدور (عاملة) ، فكانت تساعد والدها على حرث الحديقة وزرعها ؛ كما عاونته فى إدارة أحد المخازن .

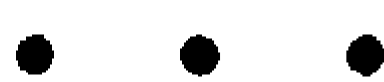
وداومت " ألين " على الدراسة حتى إلتحقت بإحدى الكليات ، وفى الوقت

نفسه قامت بالتدريس ؛ لتحصل على مال كاف يكفى مصروفاتها الدراسية . وكان إلتحاقها بالكلية وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها حين إستطاعت أن تجمع ثلثمائة دولار عن طريق العمل والإقتراض .

لكنها إضطرت إلى ترك العمل عندما مرضت والدتها ، وعنيت بتدبير أمور المنزل ، وإن لم تهمل دراستها فى الكلية ، وإستعاضت عن عملها خارج المنزل بشغل الإبرة كمصدر كسب لمواجهة مصروفات دراستها . .

وهكذا كانت " ألين " ربة بيت وممرضة لأمها وطالبة بالإضافة إلى عملها فى شغل الإبرة . . . فكان يحدث أن تعمل بشغل الإبرة وهى فى طريقها بالسلم إلى حجرتها فى الدرو الخامس حتى لا تضيع دقيقة واحدة ! . . ولقد كتبت مرة فى مفكرتها أن المشكلة أنهم لا يدعونها تستذكر إستذكاراً كافياً ، لأنهم كانوا يخشون عليها أن تموت من الإرهاق ! .

وكان بين أساتذتها " **شارل فارار** " الذى شجعها على دراسة الكيمياء ، وكان يقول : إن الكيمياء التحليلية عمل جميل ودقيق يناسب أنامل السيدات ، إنه كان يستحثها على المواظبة على العمل ، ولشد ما كانت سعادتها عندما سمح لها أن تعاونه فى عمله . . ! .



وعندما تخرجت " ألين " عام ١٨٧٠ م كانت الكيمياء تأخذ طريقها كعلم جديد يمكن تطبيقه لتحسين الحياة اليومية فى شتى الصور ومنها الصحة . .

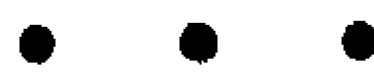
وقد بدأ الكيمياويون الأوائل يرجحون علاقة القذارة بالمرض إلا أن جرثومة المرض لم تكن قد إكتشفت بعد . . .

وأرادت " ألين " أن تستزيد من معرفتها بالكيمياء غير أنه لم يكن هناك معاهد عالية تقبل إلتحاق السيدات . . ولكنها كتبت لأثنين من الكيمياويين التجاريين ، فإعتذرا بأنهما لا يحتاجان إلى من يعمل تحت التمرين ، وإقترح أحدهما عليها أن تلتحق بمعهد " ماسا تشوستس " للتكنولوجيا فى بوسطن وكان عمر المعهد فى ذلك الوقت خمس سنوات فقط ، وكان حريصاً على ألا يقبل دراسات به برغم التوصيات القوية من أساتذة " ألين " .

ولكن محاولاتها نجحت بأن وافق المسئولون بالمعهد على قبولها كطالبة

خاصة بدون مصروفات للدراسة ؛ حتى يمكن القول بأنها ليست مقيدة إذا كان وجودها سيكون سبباً فى إثارة أية مشكلات ! . لكنها لم تبَلّغْ أنها غير مقيدة ، وفسرت قبولها بالمعهد بأنه منحة دراسية .

وسجلت " ألين " فى مذكراتها عام (١٨٧١ م) **أن وجودها بهذا المعهد كأول طالبة يعنى أنها تحقق كسباً متاحاً لغيرها من بنات جنسها ..** وفى الوقت نفسه كانت تحمل فى حقيبتها الدراسية أشياء أخرى هامة وغريبة على كل من فى المعهد ! ، من أساتذة وطلبة ، وهذه الأشياء : إبرة ودبوس وخيط .. وكان بعض الأساتذة يقصدونها فى إصلاح حمالة بنطلون أو زر كم القميص .. وتقوم بذلك وهى سعيدة لأداء خدمة نسائية فى المعهد ! .



وصفها الأساتذة بأنها مثابرة ذكية ، وخصها أحد الأساتذة ويدعى " روبرت هالوويل ريتشاردز " بأنها " شئ هادئ " وطلب منها أن تتزوجه .. وخلال خطبتهما ساعدته فى ترجمة الكتب الفنية الألمانية التى كانت تحتوى على معلومات هامة له فى محاضراته .

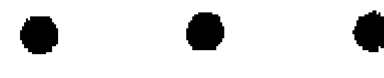
وتم الزواج عام ١٨٧٥ وقامت " ألين " بوضعها الجديد بمساعدة النساء الأخريات للحصول على دراسة الكيمياء ؛ كما إستطاعت هى ، فحثت المعهد على قبول معونات مالية من رابطة تعليم السيدات ببوسطن لتمويل مشروع إقامة معمل حيث يمكن السيدات التدريب على دراسة الكيمياء .

ولم يأتى عام ١٨٧٨ حتى سُمح بإلتحاق الفتيات رسمياً بالمعهد .

وأسست " ألين " فى ماسا تشوستس أول جهاز حكومى للصحة ، وطلبت من " نيكولز " أحد علماء الكيمياء أن يقوم ببحث عن تلوث المياه .. وأرسلت " ألين " للمعهد عينات من مياه الشرب من مختلف الجهات ، وكانت تقوم بنفسها بكل الإختبارات الرسمية بصفتها مساعدة لهذا العالم ؛ كما قامت بإختبار الأطعمة مخافة وجود سميات أو تلاعب ؛ وكذلك إختبرت الصرف الصحى والهواء لمعرفة وجود ما يسبب الأمراض .

وتم عام ١٨٨٤ م تعيين " ألين " مدرسة للكيمياء الصحية بالمعهد عندما ساعدت العالم " نيكولز " فى تأسيس أول معمل للكيمياء الصحية .

وقد إستطاعت من خلال عملها أن تدرس وسائل تحليل الأغذية والمياه والصرف الصحى والهواء لمهندسى الصحة الذين أنشئوا معامل مماثلة فى مختلف أنحاء العالم .



وهكذا كانت " ألين " أحد الأعمدة الرئيسة فى إرساء إستخدام العلوم فى تحسين الحياة اليومية .. وبدأت نساء بوسطن فى إستخدام معلومات " ألين " على أساس أن صحة الطبقات العاملة يمكن أن تتغير عن طريق تعليم الفتيات الفقيرات طرق إعداد وجبات مغذية بأسعار مخفضة .

وقامت " ألين " بالتدريس لفصول تجريبية وأنشأت سنة ١٨٩٠ م أول مطبخ أمريكى عاماً حيث عرضت فيه أغذية صحية أعدت للبيع كما أعدت نظاماً لتدريس التغذية طبِّق فيما بعد .

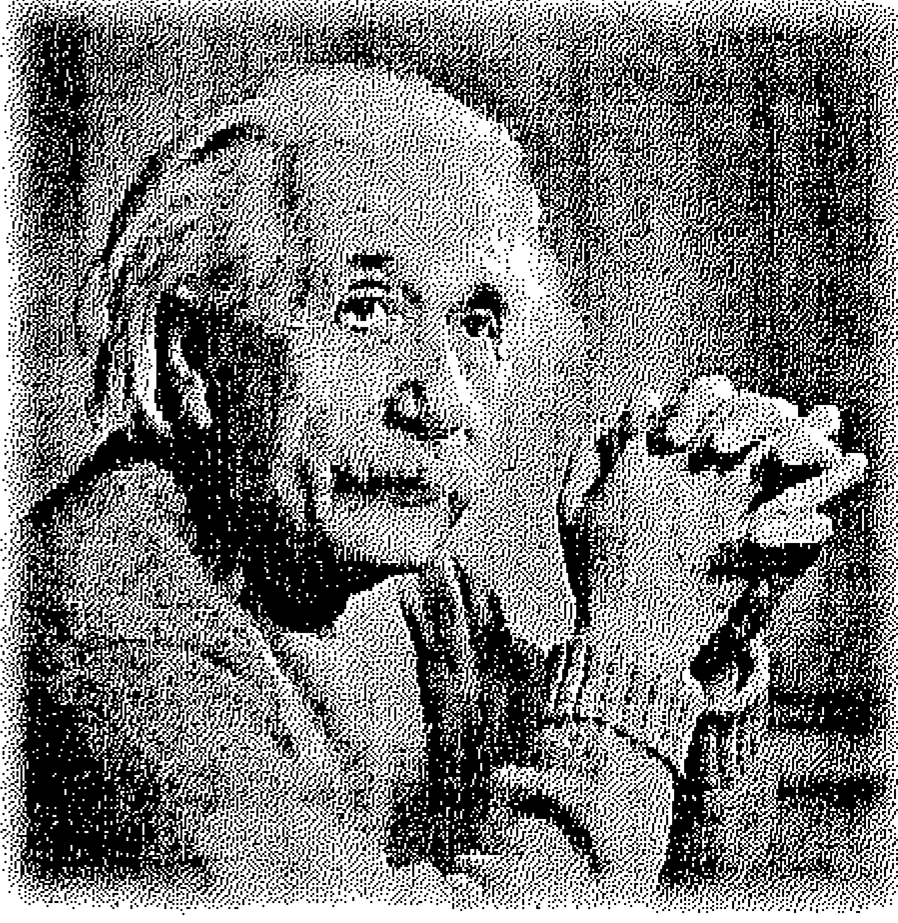
ونظمت " ألين " معارض عامة ، وقامت بكتابة بعض النشرات التى تذيعها وزارة الزراعة الأمريكية عن التغذية ، ثم ساعدت بوسطن على إعداد أول برامج للتغذية المدرسية فى الولايات المتحدة .

وقد تميزت " ألين " بطاقة هائلة أطلقت عليها شقيقة زوجها أنها " دائرة معارف " لقد كانت تجرى إختبارات على محال البقالة لمحاربة الغش ، كما كانت تجرى تجارب على الألبان وأوراق الحائط للتيقن من خلوها من المواد السامة ؛ كذلك قامت بإنشاء قسم العلوم بمدرسة للمراسلات للسيدات .

وكانت " ألين " تطبق فى منزلها ما تقوله : فوجبات الطعام يسيرة وخالية من الدسم ، ومنزلها مشمس ومؤثث أثاثاً يسيراً معقولاً .

وكانت " ألين " أول سيدة أمريكية تستخدم المكنسة الكهربية ، والغاز فى الطهى ، و (الدش) والسخان ! .

وعلى الرغم من توزيع جهودها فى مشروعات مختلفة كان هدفها دائماً واحداً هو تطبيق العلوم لتحسين العمل بالمنزل .



شخصيات لا تنسى ..

(١٦) أينشتاين

خبير فنى من الدرجة الثالثة !

المكان : أحد مكاتب البريد فى برن .

الوقت : صباح أحد الأيام لعام ١٩٠٥ م .

الرجُل : شاب فى السادسة والعشرين من عمره .

دخل هذا الشاب إلى مكتب البريد ، وكان متواضع المظهر ، ويبدو أنه لم يهتم بأن يقلل من حالة الفوضى التى تعترى هندامه . وللوهلة الأولى يلحظ من يرى هذا الشاب أن كثافة شعر رأسه غير عادية .

إتجه الشاب إلى الموظف المختص ، ومعه ظرفٌ أمسكه بعناية وحرص شديدين قد يرجحان أن به كل ثروته من مال ، وجاء ليودعها دفتر التوفير ! .

وأمام مكتب الموظف وقف الشاب وسلّم الظّرف ، ولم يكن به أى نقود ، بل ثلاثون صفحة كتبت بخط دقيق كتبها هذا الشاب نتيجة بحث متواصل ومضن إستغرقه عدة سنوات ، ودفع الشاب النقود المطلوبة لإرسال هذا البحث إلى إحدى المجلات العلمية التى نشرته على صفحاتها .

• • •

لم يتنبأ أحد فى طفولة هذا الشاب بأنه سيصبح صاحب هذا البحث الذى أحدث هزة عنيفة فى الأوساط العلمية فى العالم . . . ! .

وبرغم أن كاتب البحث كان مجهولاً بين العلماء - فإن الوضوح البالغ ، والفكر العميق اللذين إتسم بهما شرحه ، وإستخلاصه نتائج لنظريات خطيرة فى علم الطبيعة فى إيجاز ويسر - كانا بمثابة صيحة مدوية فى هذا المجال ، إسترعت الأنظار والتساؤل عن كاتب البحث ، ثم فرض المقارنة بينه وبين بقية العلماء : فوصف زميله العالم " لادمبورج " بقوله : " **إن هناك نوعين من العلماء :**

من ناحية نجد أينشتاين

وفى الناحية الأخرى نجد جميع العلماء الآخرين ! " .

• • •

كان " أينشتاين " فى طفولته وصباه هادئاً . . خجولاً ، لم يبدأ الكلام إلا فى الثالثة من عمره . . منطوياً ، فلم يكن يختلط كثيراً بأتراب طفولته وصباه فى مدينة (أولما) بجنوبى ألمانيا (مسقط رأسه فى عام ١٨٧٩ م) ، إذ لم يكن يميل إلى الألعاب التى تحدث ضجيجاً بل كان مؤثراً ملاحظة المناظر الطبيعية .

ولم يكن يمل أو يتعب من السير مسافات طويلة بين غابات المنطقة التى نشأ فيها ! ، حيث كانت هوايته المفضلة هو السير والتأمل ، وظل هكذا طوال عمره .

• • •

ولم تكن المرحلة الأولى من تعليمه تدل على أنه تلميذ مجدّ ! . فلم يلحظ معلموه يوماً ما أنه غير عادى ، بل على العكس : كان بعضهم يستاء من عزوفه عن المشاركة فى المناقشة فى الفصل الدراسى ومن تباطئه فى الرد إذا ما سئل ! .

لكنّ زملاءه فى المدرسه لاحظوا أنه يتخير كل كلمة قبل أن ينطق بها حرصاً على قول الحق والصدق والإجابة الصحيحة حتى أسماه بعضهم : (فم الحقيقة) ! .

أهتم " أينشتاين " بمعرفة سبب كل شئ ، ولم يعجبه فى مدرسيه أنهم يودون أن يتعلم كل تلميذ بالحفظ عن ظهر قلب ، سواء القواعد أو الأسماء أو التواريخ ، فكان يضيق بكل ذلك ، وأعتبر أن الوقت يُعتبر ضائعاً إذا أمضاه فى حفظ حقائق متيسرة فى أحد الكتب ! .

وبرغم حرصه على البحث عن الحقيقة والرغبة فى الكشف منذ مرحلة تعليمه الإبتدائية - كان مظهره وتصرفاته تنم عن التلميذ الكسول ! .

ولم يتغير موقفه غير النابه من التعليم بتغيير مرحلة التعليم ، فبعد إنتهائه من المرحلة الإبتدائية فى ميونخ - أدخله والداه - فى سن العاشرة - المدرسة الألمانية التقليدية المعروفة بإسم " الجمينزيوم " وقضى بها خمسة أعوام .

ورافق الطفل " أينشتاين " والديه فى رحلة حياة العائلة بصعوباتها ؛ إذ بعد مولده بنحو عام واحد تعرضت تجارة والده للإفلاس ، فإنتقلت الأسرة من " أولم " إلى " ميونخ " ، ثم تفاقمت الظروف المالية الصعبة التى تجتازها الأسرة ، فإضطرت إلى الرحيل من ألمانيا إلى ميلانو بإيطاليا بحثاً عن ظروف أفضل للرزق .

وفى ميلانو فكر الأب أن يغير من طبيعة عمله من ورشة للأعمال الكهربية التى أغلقت بعد إفلاسها فى " أولم " إلى إقامة مصنع صغير فى المقر الجديد ، وفى الوقت نفسه لم يفضل الوالدان أن يعرقلا دراسة الطفل بنقله إلى إيطاليا ، فبقى فى ميونخ مع أسرة قريبة له حتى يكمل دراسته الثانوية .

لكن " أينشتاين " تعثر فى دراسته الثانوية ، ولم يستطع أن يكمل دراسته لهذه المرحلة . وترك المدرسة دون أن يحصل على شهادة إتمامه للدراسة الثانوية مما يحرمه دراسة جامعية .

ولم يكن " أينشتاين " طالباً محبوباً من أساتذته ، وكان كثير الجدل والمخالفة ، يبدى نفوره منهم لدرجة أن أحد مدرسيه (مدرس اللغة اليونانية) طلب منه مغادرة المدرسة فوراً وهو ينذره بقوله : " إنك لن تكون شيئاً فى هذه الحياة ! " .

وعرف عن أينشتاين فى هذه المرحلة أيضاً كراهيته الشديدة للغات ، وخاصة اللغة اليونانية ، كما أنه لم يكن يقبل على دراسة علوم الأحياء ، وقد يرجع ذلك إلى ذاكرته الضعيفة التى تميز بها ! .

وبرغم سوء الأحوال المالية لأسرته ، وتعثره الدراسة الثانوية - كان الوالدان يحلمان بإدخاله الجامعة .

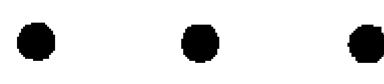
وأسفر بحث الأسرة عن مخرج لمشكلة أينشتاين ، عن علمها بوجود معهد عال للتكنيك فى زيورخ بسويسرا لا يشترط حصول الطالب على الشهادة الثانوية ، ويقتصر قبوله على إجتياز إمتحان للقبول به .

وبعد محاولتين له وُفق فى إجتياز الإمتحان المطلوب عام ١٨٩٦ ، وبذلك أصبح أينشتاين طالباً بمعهد عال بدون شهادة الدراسة الثانوية ، وحُلت عقدته الدراسية وبقيت مشكلته المالية : فبدأ يفكر فى البحث عن عمل .

وبإنتمائه لهذا المعهد ، ووجوده فى الأراضى السويسرية - بدأت مرحلة أسعد

فى حياته تخللها مقارنته بين الحياة الديمقراطية فى سويسرا والعسكرية الألمانية وأدت المقارنة إلى تخليه عن جنسيته الألمانية (عام ١٨٩٦م) وبقى خمس سنوات بدون جنسية حتى مُنح الجنسية السويسرية عام ١٩٠١ ، وظل سويسرياً مدى حياته .

وبرغم سعادته بالدراسة فى ذلك المعهد - لم يُبد أى علامة تشير إلى نبوغ أو تفوق طوال السنوات الأربع التى قضاها بالمعهد ليعد نفسه ، ويصبح بعد تخرجه منه مدرساً للرياضيات والفزياء للطلبة بالمرحلة الثانوية . كان أينشتاين غير مواظب على المحاضرات ولم يكن متحمساً للمحاضرات ، **ويفضل عليها قراءة مصادرها الأساس بنفسه حتى لو كانت بعيدة عن المقررات الدراسية له ، وبذلك كان يقضى معظم وقته إما بمكتبة المعهد أو معمله ..**



وأخيراً تخرج أينشتاين عام ١٩٠٠ ، وهو يكن لمعمل المعهد ومكتبته كل ولاء ، وليس لأساتذته ! .

وحفزه تخرجه للمضى فى البحث عن عمل يرتزق منه ، وبدأت محاولاته لإيجاد عمل فى الجامعة ، فأرسل نسخاً من أول أبحاثه فى الفيزياء (١٩٠١ م) إلى عدد كبير من العلماء ، لكنَّ أى واحد منهم لم يهتم بالبحث ! .

ثم حصل على عمل : خبير فنى من الدرجة الثالثة بإدارة براءة الإختراع فى برن بمرتب متواضع يبلغ نحو ٦٠ دولاراً فى الشهر .

ورضى أينشتاين بهذا العمل ؛ إذ كان يوفر له الوقت ؛ كما يسر مرتبه وحياته ، ومكنه من الزواج وهو فى الثانية والعشرين من عمره من (**ميلڤامارس**) طالبة طبيعيات .

ووصف أينشتاين عمله بأنه حفظ لوقته ويلائمه جداً برغم قلة الدخل منه ، فقد كان ينجز عمله فى وقت يسير من ساعات العمل ، ويستغل الساعات الباقية فى التأمل والدراسة وتسجيل خواطره وأفكاره عن سر هذا الكون .

كان ينجز عمله فى نحو خُمس الوقت الذى يحتاج إليه زملائه لإنجاز مثل العمل نفسه وكان الوقت وساعاته أمراً حيوياً له ، ليسجل أفكاره التى نشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ كأول أعماله حول نظريته الشهيرة فى النسبية التى

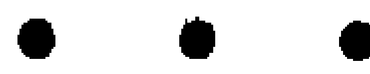
جعلته شخصاً معروفاً ، وذاع صيته فى العالم بأسره ! . فأخذت الدعوات تنهال عليه وترجوه ليلقى بعض محاضراته فى عدد من الجامعات ، ومنها جامعة زيورخ وجامعة برلين .

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يهتمون بالسماع له ، بل إسترعى أنظار الجميع وإهتمامهم وإحترامهم وهو يتحدث عن نظريته التى تتركز فى أن الزمان والمكان مُطلقين .

وظل أينشتاين بمظهره المتواضع : الجاكيت الضخم ، والبنطلون الخشن (والصندل) بلا جورب ! . لكن ما إن بدأ يتحدث حتى يرى الناس مَنْ هذا العالم صاحب هذه النظرية ، وهاوى رياضة اليخوت الشراعية .

ويعزف بمهارة على الكمان ، ويربى حب سماع الموسيقى فى نفسه - بالحماس الذى عُرف به حين يتكلم عن نظريته .

كما عمل أينشتاين فى مطلع حياته كعالم على محاربة العنف والقهر ، ومقاومة أن يُملي أحد على آخر شيئاً ! . ويَعْزو البعض أسلوبه فى ملابسه إلى ذلك الوقت .



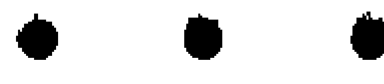
ثم سجلت الأبحاث العلمية عام ١٩١٦ إضافة هامة إلى نظريته النسبية وبين نتائجها أن الشعاع المضئ إذا مر بالقرب من جسم ذى كثافة معينة - ينحرف عن طريقه ..

وأعلن أينشتاين أنه يمكن التيقن من ذلك بتصوير النجوم التى تكون قريبة من الشمس فى أثناء كسوفها .

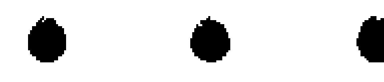
وتحقق للشمس كسوف عام ١٩١٩ ، وسارعت البعثات العلمية إلى أفريقيا والبرازيل حيث كان متوقعاً أن يكون الكسوف فى أكمل درجاته ، وتم فعلاً إلتقاط صور دقيقة إنكب العلماء على دراستها بشغف شديد وكانت النجوم البراقة التى بدت بالقرب من قرص الشمس الأسود (بعد الكسوف) فى غير مكانها ، ثم عرض العلماء الصور السلبية لتلك النجوم على أينشتاين ، فأخذ يتأملها وهى فوق مكتبه ، ثم صاح : " هذا جميل ! .. إنه شئ رائع حقاً ! " .

وعلقت زوجته وكانت تقف إلى جواره : " والآن يا عزيزى عندك دليل ! " .

لكنه رد عليها قائلاً : " لا ؛ يا عزيزتى ، أنا لم أكن بحاجة إلى دليل ؛ فقد كان تعليقى بأنه شئ جميل ورائع على الصور نفسها وليس عليها بإعتبارها دليلاً ! " .



ومنذ ذلك " الكسوف " أصبح إسم أينشتاين مدوياً بين كل الناس فى جميع الأوساط ؛ حتى من لا يفهم شيئاً منهم فى العلوم ! ، تسابقت الصحف على الحصول على أحاديث علمية منه عن نظريته .. ودُعى لإلقاء المحاضرات فى عدد كبير من الدول ، فإستضافته المعاهد العلمية فى هولندا ، واليابان ، وفرنسا ، وروسيا ، والولايات المتحدة .. وسط إهتمام العلماء والآخرين لفهم نظرية النسبية من ذلك الوقت وحتى الآن .



• قصة التوءم والنسبية :

وقد سُئل أينشتاين يوماً : إذا كان هناك شقيقان توأمان ، وسافر أحدهما فى رحلة فضائية طويلة ، على حين بقى أخوه على الأرض - فمن من الأخوين التوأمين يكون أكبر حين يتحدان بعد عودة المسافر إلى الأرض ؟ .

وكان رد أينشتاين : **نظراً للنتائج النسبية فإن الشقيق التوأم الذى سافر إلى الفضاء بسرعة ضوئية مرتفعة سيكون أصغر من أخيه التوأم الذى بقى على الأرض ! .**

وكانت الإجابة دعوة غير مباشرة لدراسة نظرية النسبية .

من اقوال اينشتاين :

- حول شهرته فى العالم :

" بعد أن ذاعت شهرتى - أصبحت مع مرور الزمن أكثر غباءً ؛ فالفرق كبير بين ما الشخص ، وما يظنه الآخرون ؟ " .

- لطالب يواجه مشكلاته فى مادة الرياضة :

" لا تقلق بسبب مشكلاتك فى الرياضة فأنا أؤكد لك أن مشكلاتى فى هذا المجال أعوص " .

● حول ساعة من وقت فراغه :

" حين لا تكون عندى مسألة تشغل عقلى - فأنا أحب أن أسترجع براهين النظريات الرياضية والفيزيائية التى عرفتها منذ مدة وذلك لمجرد الإستمتاع بالتفكير ! " .

● حول البحث عن الحقيقة :

" أعرف من خلال بحثى المضنى مدى صعوبة إتخاذ خطوة نحو الحقيقة مهما كانت صغيرة " .

● حول دوافعه :

" إن ما يدفعنى للعمل العلمى الذى أقوم به هو الشوق الجارف لفهم أسرار الطبيعة ! " .

● حول العلماء ووجود الله :

" إن كل باحث علمى دءوب يقتنع أن روحاً أعلى من الإنسان تهيمن على قوانين الكون مما يجعل الإنسان يشعر بضآلته وخاصة إذا قارن بين هذه القدرة وبين الإمكانات البشرية المتواضعة .

● إلى طبيب نفسانى أراد تحليله :

" آسف ؛ لأننى لا أرغب فى تنفيذ طلبك إذ إننى أود البقاء فى الظلام بعيداً عن نور تحليلك لى " .

● إلى شاب أهدى له ربطة عنق :

" ستحمل هديتك لى معنى أفضل مستقبلاً إذ أن ربطة العنق وأزرار القميص ستظل بالنسبة لى ذكرى بعيدة " .

● إلى شاب من عائلته جاء لزيارته ولم يجده :

" علمت أنك أسفت لعدم وجودى بمنزلى حين أتيت لتزور العم أينشتاين ، لذلك أصف لك ما فقدت رؤيته :

رجل شاحب الوجه ، شعره طويل غير منسق ! ، وبداية كرش ، وطريقة مشى غريبة وسيجار فى فمه - هذا لو حدث أن كان لديه سيجار وقلم فى جيبه أو فى يده ، بساقيه التواء ، وليس لديه جورب .

لذلك فهو إنسان وجيه جداً ! ... حقاً إنه من المؤسف أنك لم ترنى حين أتيت لزيارتى ! .

● حين سئل : لماذا تستعمل صابونة واحدة لكل من الغسيل وحلاقة ذقنك ؟ أجاب : **" هل تنتظرون أن أستعمل صابونتين ؟ لا داعى لهذا التعقيد ! " .**

● ● ●

من أقوال الآخرين عن أينشتاين :

● " لم يحاول مطلقاً أن يرى الناس كم هو ماهر وذكى ، كان يعطى من يقابله الشعور بالراحة " .

● كانت له قدرة غير عادية على التركيز الذهنى فإذا ما خرج للنزهة فى يخت شراعى ، ووجد أن هدوء الرياح جعل اليخت شبه متوقف - يسرع بفتح مذكرته ، ويبدأ فى حساباته فى إنتظار نشاط الرياح ؛ ليستأنف اليخت سيره .

● إذا واجهته مشكلة فى أثناء أبحاثه مع رفاقه - يقول لهم : سأفكر قليلاً ؛ ثم يقطع الحجرة أو المعمل جيئة وذهاباً ببطء وهو يعبث بخصلة من شعره ، وقد يستعمل غليونه .

وفجأة يبتسم ويعلن الحل للمشكلة ! .

● وإذا ما زاره عدد من الأشخاص فى مكتبه - يستأنف ما كان يفكر فيه من دراسة فور خروجهم من عتبة مكتبه ! .

● برغم أن أينشتاين كان فيزيائياً عبقرياً فقد تعرضت أفكاره لتغييرات كثيرة على مدار حياته ، وأثبت فى ثناياها أن العالم الفذ عندما يخرج عن مجال

تخصصه قد يتحول إلى ساذج سياسى ، وأن إتيان الحماقة أمر ليس مستحيلاً حتى على العلماء النوابغ ذلك عن دوره المعروف إزاء الصهيونية بحجة مناهضة النازية ! .

• وفى أواخر الأربعينيات تدهورت صحة أينشتاين ، وكتب فى منتصف الخمسينيات لصديق له : " لقد بدأت أنظر للموت كدين قديم واجب السداد ! " .

وبعد وفاته فى عام ١٩٥٦ سمحت أسرته للمركز الطبى للعلماء بتحليل مخه ، " وأعلنت نتيجة التحليل لمخ أينشتاين بعد دراسة العلماء له وتصويره ، وتقول نتيجة التحليل : إن مخ أينشتاين فى تكوينه ووزنه وحجمه ـ عادى مثل مخ أى إنسان ! .

• • •

• الفردوس والجحيم :

وقد وصف أينشتاين نفسه عام ١٩٥٥ قبل وفاته عن ٧٦ عاماً : بأنه " قطعة من متحف " ، وقد يكون سبب ذلك ما جلبته عليه نظريته فى النسبية ، إذ وصفت بأنها : من الناحية النظرية بمثابة الفردوس لكن التجارب اللازمة لها حولتها إلى جحيم ! .

والواقع أن عظمة هذا العالم ترجع إلى إستمرار أهميته فى الوسط العلمى برغم مرور نحو ربع قرن على وفاته ، فقد إرتفع عدد الأبحاث التى يجريها العلماء على نظريته إلى نحو ٧٠٠ بحث ! .

كما تفخر المعاهد العلمية فى دول العالم المختلفة بهذا العالم وما حققه للبشرية وسارعت بالإحتفال بمرور مائة عام على مولده ، وخاصة جامعة برنستون حيث قضى بها الإثنين والعشرين عاماً الأخيرة من عمره ، كما إحتفلت الجامعات والمعاهد فى ألمانيا الغربية بهذه المناسبة ؛ كذلك أصدرت بعض الدول طابع بريد يحمل صورته ، وصدر أخيراً كتابان له فى الصين وأعمال أخرى حوله فى الإتحاد السوفيتى .

وإعتزازاً بأينشتاين وعرفاناً له أزيح الستار فى شهر أبريل ١٩٧٩ م عن تمثال له فى مقر الأكاديمية الوطنية فى واشنطن وسط تعليقات العلماء وبقية من شاهدوه : إن هذا العالم الجليل أعظم من أن يخلد بتمثال ! .

(١٧) مارى فيرغيس

وترك لها يدين ماهرتين

• ليس هناك أناس عاجزون ، إنما هناك أناس على السواء . إن لكل إنسان عجزاً في ناحية ما من شخصيته • رسك

الوقت : صباح أحد الأيام من عام ١٩٥٨ .

المكان : مستشفى كلية فيلور بالهند .

المشهد : طبيب أمريكى متخصص بالجراحة التقويمية يدلف نحو حجرة العمليات ويحيط به عدد من أطباء المستشفى ويتبادلون حديثاً علمياً حول آخر ما توصل إليه الطب الحديث فى عمليات الإستعواض الجراحى لبعض مناطق الجلد فى جسم الإنسان التى تشوهت نتيجة للمرض أو الحوادث .

• • •

لأول مرة يزور هذا الطبيب مستشفيات الهند ضمن جولة يتوقف فيها فى عدد من دول آسيا ، إلا أن زيارته للهند أكد رغبته فى إتمامها ما سمعه عن طبيبة جرّاحة هندية ، إذ قال له أصدقاؤه : " يجب أن ترى بنفسك كيف تجرى الدكتوره " **مارى فيرغيس** " العمليات الجراحية التجميلية ؟ . إنها أكثر من طبيبة جرّاحه إنها فنانة ! . وإن من يقصدها فى المستشفى الذى تعمل به " مستشفى كلية فيلور " تتحقق له فى العلاج الجراحى شبه معجزة على يدى هذه الطبيبة ! " .

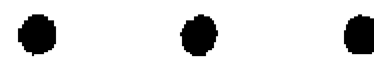
وتوقف لفيف الأطباء الذين رافقوا الطبيب الأستاذ الزائر عند باب غرفة العمليات إلا مدير المستشفى الذى دخل معه إلى حيث كانت تُجرى الدكتورة " فيرغيس " إحدى عملياتها .

رأى الطبيب الزائر عندما دخل الغرفة أن الطبيبة الجرّاحة تجلس على كرسى ، وتقوم بإجراء عملية تجميلية ليد رجل شوهها مرض البرص .

وأعجب بمهارة الطبيبة التى قامت بعملها خير قيام ! . وعندما إنتهت العملية إلتفت الطبيب الزائر وقال لها :

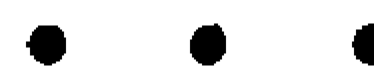
" لقد سمعت الكثير عن براعتك ، إننى أعرف الدكتورة الأستاذة " إيدا سكادر " التى أنشأت هذا المستشفى ، وكانت مشهورة بمهارتها فى الطب الجراحى ، ويبدو أنك تشبهينها كثيراً " .

لمعت عينا الدكتورة " مارى فيرغيس " الشابة الجميلة ، وردت باسمة : " شكراً لك ، إن أية واحدة من متخرجات كلية فيلور تعتبره إطراء عظيماً أن تقول لها : إنك تشبهين الدكتورة " إيدا " .



نهض الطبيب الضيف عن كرسيه ، وإنتظر أن تقف الدكتورة مارى ، وتخرج معه من غرفة العمليات ، لكنه فوجئ بأنها لا تستغنى عن كرسيها الذى أجرت العملية وهى جالسة عليه ! .. جاء المرافق ، وأمسك بكرسى الطبيبة الشابة الجميلة ، ودفعه أمامه برفق إلى الخارج .

أدرك الطبيب الأمريكى - ولأول مرة - أن السيدة التى أجرت العملية الجراحية قبل دقائق بمنتهى البراعة ، وذاع صيتها حتى فى الأوساط الطبية الجراحية الأمريكية - لا تستطيع المشى ! . إنها مشلولة النصف السفلى من جسمها ! . وحرصاً على عدم إحراجها لم يبد الرجل أى تأثر ، ورافقها إلى مكتبها حيث تبادلا الآراء حول الحالة التى أجرت لها العملية أمامه ، ومواطن التسهيلات والصعوبات العضوية والبيئية التى يواجهها الطب ومستحدثاته فى عالمنا المعاصر ، ومدى إستجابة الجسم البشرى إلى آخر خبراتهما فى المجال والبحوث التى تمت فيه ..



وسأل الطبيب الزائر أحد أطباء المستشفى عن مزيد من التفاصيل عن حياة الطبيبة الشابة ذات الكرسى المتحرك فقال :

إلتحقت " مارى فيرغيس " بكلية الطب ، وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت شابة فى مقتبل العمر عاشت مدة سعيدة فى مبدأ حياتها ، ثم تمكنت من الإلتحاق بالكلية التى إختارتها وهى أيضاً مجتهده نشيطة .. كانت

زميلاتها فى كلية فيلور يطلقن عليها " **الزميلة المتحمسة** " ، فقد كان إقبالها على الحياة والتجاوب البناء مسترعياً لكل من حولها .

ولاحظت الطالبة " مارى فيرغيس " فى الأيام الأولى لوجودها بالكلية أن إسم الدكتورة " إيدا سكادر " على كل لسان ، وكانت تسمع الممرضات عندما يتحادثن يقلن : " الدكتورة إيدا قالت : هذا ؛ الدكتورة إيدا تفضل ذلك ، الدكتورة إيدا تنتظر منا أن نفعل كهذا ! " .

وشعرت " مارى فيرغيس " بالملل من كثرة ما سمعت إسم الدكتورة : إيدا ورأت أن كل من حولها قد حوّلها إلى أسطورة ! . لكنها أدركت مع الأيام مشاعر الطالبات اللآتى هن أقدم منها نحو الدكتورة إيدا الطبيبة التى وهبت حياتها لخدمة الناس بإقامة هذه الكلية منذ نحو نصف قرن .

ودُعيت مرة مارى لحضور إجتماع ستتحدث فيه الدكتورة إيدا ترحيباً بالزميلات الجديدات . فدخلت مارى القاعة حيث كان مزمعاً أن ينعقد الإجتماع ، وجلست على حصير مع شابات عديدات ، وما إن دخلت الدكتورة إيدا القاعة حتى توجهت أنظار الجميع إليها .

وتأملتها " مارى فيرغيس " ، فوجدت أن كل ملمح من تقاسيم وجهها الذى خطت فيه السنون والأيام أثارها - إشراقة العطاء الذى كرست الدكتورة إيدا حياتها من أجله .. لم يمنع فارق العمر بين الدكتورة إيدا ومارى فيرغيس شعور الطالبة الجديدة بالصداقة مع أستاذتها التى أصبحت بعامل السن والخبرة - تدّرس لطالبات السنة النهائية من الكلية .

وإحتل الود قلب مارى إزاء الأستاذة العجوز محل الملل الذى شعرت به فى أوائل أيام إلتحاقها بالكلية عندما كان الجميع يتحدث عنها .. أدركت " مارى فيرغيس " بعد أن إنتهت الكلمة التى ألقتها الدكتورة " إيدا " - أن مهنة الطب هى حب الآخرين لدرجة تخفيف آلامهم ! . هى عطاء دائم يصل إلى حد التضحية الغالية أحياناً ! .

إن الفكرة التى إلتحقت " مارى فيرغيس " من ورائها بالكلية هى " الشهرة والمال والتفوق العلمى " أما بعد أن عرفت الكثير عن حياة " إيدا " فقد تغير الموقف ! . واصلت " مارى فيرغيس " جهادها العلمى فى السنة الأولى بكلية الطب .. إلى أن وصلت إلى السنة الرابعة بتفوق واضح .

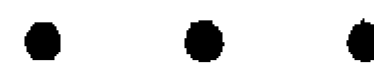
وبينما كانت مع زميلات لها فى نزهة حدث لسيارتهن إصطدام مروع خرجت مارى منه مشلولة النصف السفلى من جسمها .

وقضت " مارى فيرغيس " عدة أشهر تتعذب من آلام لا تطاق ، وعمليات جراحية أجريت لها فى الهند وأستراليا ! .

وعندما تيقنت أن شفائها بعيد تساءلت :

" هل أستطيع أن أكون طبيبة جراحة بعد الآن وأنا لا أقوى على السير ؟ " .

ونتيجة لحالتها مرت فى مرحلة من الآلام النفسية والصراع .. ! .



وبعد أن تخرجت " مارى فيرغيس " فى كلية الطب دعيت للعمل فى مستشفى هوارد رسك المعروف بأميريكا ، وهناك رأت كيف يجرى الأطباء عمليات بارعة للمعوقين جسدياً ؟ . وفى ذلك المستشفى فكرت مارى فى أنه إذا كانت قد حرمت الرجلين ولا تقوى على المشئ - فلها عقل مدرب ويدان لم يحرمهما الله إياهما ، وكانت تردد كلمات سمعتها من أمها :

" خد حياتى وليكن

تكريسها يا رب لك

وأعضد يدى لتخدما

مدفوعتين بحبك ".

وعاشت " مارى فيرغيس " مُدينة لله بأنه حافظ على حياتها ، وترك لها يدين ماهرتين ! .

وعادت إلى الهند بعد إنتهاء فترة عملها للتدريب ، لتخدم شعبها بقية حياتها بعقلها الراجح ، وبكلتا يديها .. وعملها الغزير ! .

وتولت الإشراف على برنامج يستهدف تأهيل المعوقين لإعادة تأهيلهم جسدياً .

ورأت مارى أن تركز جهودها لخدمة المشلولين جزيئاً ، وحولت ألمها راحة للمتألمين .



شخصيات لا تنسى ..

(١٨) يوهان جوتنبرج

الجبل الطيب

لم تكن أمه تعلم أنه يخفى فى سرواله قطع الخبز التى تجبره على أكلها مع الحساء (الشوربة) كان يخرجها من سرواله عندما يخلو إلى نفسه بإبتعاد أمه ، ويلعب بها ، ويعملها على شكل أحرف الهجاء ، ثم يغطها فى الحساء ، ويطبعها على الشرشف (المفرش) ، دون أن يحسب ما سيجلبه ذلك عليه من عصا أمه ! .

الوقت : أواخر القرن الرابع عشر الميلادى .

المكان : مدينة ماينتس عاصمة مقاطعة راينلاند غربى ألمانيا ، وهى ميناء هام على نهر الراين ، ومركز للتجارة ، بالإضافة إلى أنها مركز لصناعة المواد الكيمياوية والآلات ، مدينة غنية يسكن بها عدد من الأسر النبيلة ، كما يعيش بها عدد من الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة وما دونها .

• مولد رجل :

فى تلك الأثناء وفى أحد الأعوام بين عامى ١٣٩٤ و ١٣٩٩ ولد لإحدى الأسر النبيلة طفل ذكى مرهف الحس ، تعاطف فى مطلع شبابه والفقراء .. وأختار مصيره وهو فى العشرين من عمره .. حين شعر بالفروق الإجتماعية ، وإشترك فى صراع الطبقات مناصراً الطبقات الكادحة الفقيرة مما أغضب عليه الحكام ! .

وعندما غُلِب على أمره إضطر " هانز جنزفليش " للفرار إلى ستراسبورج المطلة على نهر إيل بالقرب من ملتقاه بالراين ، كما إضطر هانز للتخفى وراء إسم مستعار ! . وأمعن فى ذلك بأن أطلق على نفسه إسم المنزل الذى ولد فيه ! . وكان إسمه " جوتنبرج " (ومعناه فى العربية : الجبل الطيب) ، ثم إختار لنفسه إسماً أول (يوهان) فأصبح إسمه : **يوهان جوتنبرج** .

وفـى ستراسبورج عـايش " يوهـان " الطبقـات المتواضـعة ، وإهتم بأمرهـا ، وتمنى لو سهل لها القراءة ، فالحصول على كتـاب كـان مقصوراً علـى أترابـه هو من أبناء الأسر النبيلة الثرية ، وتألم لحرمان أبناء هذه الطبقات من القراءة .

وكانت أمه ترسل له ما يعينـه من المـال الذى أدخر قدراً منـه لتمويل رحلاتـه لشواطئ نهر الراين وسويسرا وشمالى إيطاليا ، ثم عـاد إلى ألمانيا ، وإنتقل إلـى هولندا وكان فى كل بلد يحل به يحدوه الأمل نفسه : توصيل الرسالة المكتوبة إلـى المحرومين بسبب الحاجز الطبقى .

• كلمات الحب على جذوع الشجر :

وفـى هولندا تعرف " يوهـان " علـى شـاب يدعى كوستر ، وتوطدت العلاقة بينهما ، وصارا صديقين حميمين ، وسمع يوهان من صديقه قصة غرامه بفتاة ، وكيف أنه لا يعرف وسيلة يفصح بها عن مشاعره لها ؟ .

كان كوستر يتنزه فى الحقول فى أيام الأعياد ويحفر إسمه وإسم محبوبتـه علـى جذوع الأشجار ثم ينزع اللحاء بـالحروف التـى حفرهـا فيـه ، ويحملها معه إلـى منزله ، ويلفها فى قطعة من الورق ! .

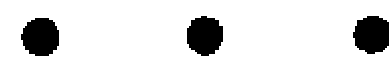
وحدث ذات يوم - بعد أن رتب تلك الحروف بعنايـة فائقة ، ووضعها مفرودة فوق الورقة التى كان يغلفها بها وهى ما تزال ندية بالعصـارة الربيعية للأشجار - أن فوجئ الشاب فى اليوم التالى بأن شـاهد إسم فتاته مطبوعاً علـى الورق بتـأثير الحروف البارزة ، وهنا جاءت لذهنه فكرة لإستبدال عصارة النبات بطلاء وبذلك أنتج أول (لوحة) طباعية ! .

وأطلع كوستر صديقه يوهان علـى تجربتـه ، وتذكر يوهـان أيام طفولتـه حين كان يغمس قطع الخبز - خلسة من أمه - فى وعاء الحساء ، ثم يشكلها فى حروف للأبجدية اللاتينية - ثم يطبعها فى قماش شرشف المائدة ! .

كما تذكر يوهان كيف كان يكرر تجربة قِطع الخبز والحساء برغم تأنيب أمه له الذى كثيراً ما كان تصحبه العصا ؟ .

وربط يوهان بين تجربة طفولتـه ، وتجربـة صديقه ، وأحس أن الله ييسر لـه طريق الكشف للكتابة بلا نسَّاخ ! .

وزاد حماس يوهان نحو خطوات عملية لتحقيق الحلم الذى يراوده .



غادر هولندا عائداً إلى ستراسبورج حيث كَرّسَ وقته لتنفيذ فكرته فى منزله ، فقام بنفسه بصنع أدوات عمله ، فقطع حروفاً منفصلة من الخشب ، وثقب كلاً من الجانبين ، ثم أحاطها بخيط ، الواحد جوار الآخر . كان كل جانب من تلك الحلقات الصغيرة ، يحمل حرفاً بارزاً ، وبعد أن أتم صنع أحرف هجائية كاملة بهذه الطريقة - قام بصنع مجموعة هجائية ثانية ، ثم ثالثة ، وظل يكرر ذلك . حتى تجمعت لديه كمية من هذه المجموعات .

لم يبق أمامه سوى أن يجمع الحروف داخل إطار ذى خانات ، ليكوّن منها كلمات ، ثم جملاً ، ثم يدهنها بالحبر ، ويضغط بها فوق قطعة من الورق .

غير أن الإختراع العظيم الذى كان يتوقعه - لم يكن يتعدى خطواته الأولى ، ولكى يضفى عليه دفعه قوية لذيوعه - كان لابد له من مال كثير لا يمتلكه ... ! وكان عليه أن يفكر : من أين يحصل على المال لتمويل مشروعه ؟ .

• المشهد الحزين :

لم تكن مشاعر يوهان تخلو يوماً من تعاطفه من الطبقات المحرومة من القراءة بسبب القسوة الطبقية ! . فالكتاب بضاعة نادرة ثمينة لا يقدر على إقتنائها إلا فئة قليلة من الأغنياء يزينون بها بيوتهم ويفخرون أمام الناس بملكيتها ! . فالكتب فى ذلك الوقت كانت ضخمة ثقيلة تلمس فى كل كلمة من كلماتها وكل سطر من سطورها جهد الناسخ الذى قضى الساعات والأيام والشهور لينسخها بيده ... ! .

كان حرمان أبناء الطبقات الفقيرة من نعمة قراءة كتاب يؤلم يوهان ويراوده أينما ذهب ! .

وفى أحد الأيام وبينما كان يقوم بجولة فى شوارع ستراسبورج فوجئ بإشتعال حريق هائل ، وتصاعدت صيحات الناس وبدأ صراع بين الإنسان والنار ! . سارع سكان البيوت المجاورة يحملون أوانى الماء ؛ فالنار يمكن أن تمتد إلى بيوتهم ؛ فقد كانت فى ذلك الوقت من الخشب .

وتم إطفاء الحريق بعد ساعات ، وإنفض الزحام ، ولم يبقى فى المكان سوى

الرجل ذى اللحية السوداء .. يوهان .. يحملق بألم فى المشهد الحزين الذى خلّفته ألسنة النيران .

بناء جميل ضخم أصبح مجرد أعمدة فى لون الفحم ينبعث منها دخان ضئيل ..

هذا البناء كان مكتبة المدينة ...

بالنسبة لكثيرين كان ذلك البناء مجرد بناء تقع عليه عيونهم فى الذهاب والإياب أما بالنسبة لهذا الرجل : يوهان فكان أعز وأغلى مكان ! . كانت هناك ألفة تجمعه بكل كتاب فى ذلك البناء المحترق ! .

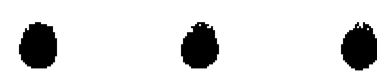
ويوهان مع قليلين يقدرون مدى فداحة الخسارة لضياع ذلك المبنى الذى تحول إلى حطام محترقة ! .

وبعد أن حدَّق يوهان كثيراً فى المشهد الحزين إتجه بخطوات ثقيلة إلى منزله .. ودارت أفكار كثيرة فى رأسه إستعرض فيها حدث اليوم وأحلام صباه ، والفكرة المستولية على عقله ! . إن الإنسان يقتنى الأحجار الكريمة ويحرص عليها حرصه على الحياة ، ويكتنز الذهب والمال ويخفيهما فى ظلام خزائنه الحديدية ، وها هى ذى الكتب - وعلى صفحاتها ما هو أغلى من الجواهر والذهب والمال - كلها تضيع فى لمحة عين .

كيف يمكن الإنسان أن يحرص على الكتاب وأن يحميه من الضياع ؟ .

لن يكون هذا إلا إذا صار للكتاب الواحد نسخ كثيرة مئات .. الآف .. عشرات الآلاف ! .

ينبغى أن يكون الكتاب فى كل يد وفى كل بيت والنساخون اللذين يخطون بأيديهم الحرف بعد الحرف ، والكلمة بعد الكلمة - لن يقدروا على هذا الأمر ! . إنه عمل يحتاج إلى جيش من النساخين وإلى زمن طويل .



أضاف حادث الحريق والمشهد الحزين لحطام مكتبة المدينة عاملاً آخر من عوامل دفع يوهان لتحقيق حلمه .. لكن من أين المال ؟ .

فكر يوهان فى أن يشترك هـو وإثنان من الصياغ عمل معهما من قبل ، لكى

يكسب معاشه ، وأقنعهما بتمويل مشروعه ، وقبلا تكوين شركة معه وتمويل مشروعه دون علمهما بتفاصيل ذلك المشروع ! . فقد كان يوهان يحيط نفسه بدرجة شديدة من الكتمان ، وكان يعكف فى المساء على محاولة تنفيذ فكرته .

ووجد يوهان أن الحروف الخشبية ليست مناسبة ، وتبعاً لخبرته فى صياغة الذهب - قرر أن يصبها من المعدن ، ويضعها فى إطارات (فورمة) وبعد سنوات من العمل الفردى تمكن من صنع مطبعة صغيرة من الخشب متوازية السطوح ، كان يستطيع أن يخفيها تحت معطفه ، عهد بها إلى خَّراط ليصنع مثلها كبيرة الحجم ، وتم ليوهان بذلك صنع أول مطبعة ! .

• يوهان يؤجل زواجه من حبيبته :

وفى سبيل تحقيق مشروعه أجل يوهان زواجه المرَّة تلو الأخرى من محبوبته (**إيميلين تور**) ، وكأنه رغب فى الإرتباط بها بعد أن يتم النجاح اليقين فى إختراعه .

لكن أحد شريكيْ يوهان المموليْن لمشروعه توفى ، وطالب ورثته بنصيبهم من الشركة مع شكوكهم فى يوهان وإختراعه الغامض ومدى أهمية ذلك الإختراع ! . وأخذت شهادة العمال الذين كانوا يعملون فى مشروع صياغة الحلى المشترك لكنهم رفضوا أن يدلوا بشئ .. إلا أن الأمر إنتهى بإدانة يوهان وطرده من ستراسبورج ، فعاد إلى مسقط رأسه ماينتس ، وهناك لحقت به إيميلين وتزوجا .

وفى ماينتس إقترض يوهان مبلغاً كبيراً من المال لدعم مشروعه .

وبرغم تراكم الديون ، ومحاوله دائنه الإستيلاء على مشروعه تمكن يوهان من العودة إلى ستراسبورج بعد أن رُدّ إليه إعتباره ، وأقام فيها أول مطبعة رسمية حيث أولى طباعة الكتاب المقدس عنايته ، حتى لا تكون النسخ الخطية من نصيب الكهنة وحدهم ، ولتكون الرسالة المكتوبة متاحة لجميع الناس من كل الطبقات ! .

وبرغم من الظروف الصعبة التى واجهت " يوهان جوتنبرج " - فقد تصدى " الجبل الطيب " لعوامل الإخفاق وتغلب عليها ، وكان لأمنيته حين تحققت شان كبير فى تاريخ الحضارة الإنسانية .



شخصيات لا تنسى ..

(١٩) لدفيج فان بيتهوفن

شاعر النغم

" أيها الناس ، يا من تنظرون إلىّ ، وتعتبروننى حقودا أو مجنونا أو شرسا .. كم تظلموننى ! . إن قلبى وروحى قد درجا منذ الطفولة على رقة المشاعر والطيبة ، بل أننى كنت دائما أميل للقيام بجلائل الاعمال ، ولكن يكفى ان تتصوروا ما آلت إليه حالتى منذ ست سنوات مضت ، كانت حالته تزداد خطورتها إزاء جهل الأطباء ، وتتعثر سنة بعد أخرى على طريق أمل كاذب فى التحسن !.

وأخيرا إستسلمت لتلك الحالة المرضية التى قد يتطلب الشفاء منها سنوات كثيرة ، هذا إذا لم يكن مستحيلا .

لقد ولدت بطبيعة متحفزة ونشيطة ، ولم اكن عزوفا عن الإستمتاع برفاهة المجتمع ، وإذا بى أجد نفسى مضطرا ، ومازلت فى طور الشباب - إلى إعتزال الناس ، وقضاء حياتى فى وحدة موحشة !. وإذا كنت قد حاولت كثيرا التغلب على هذا الوضع - فلكم أن تتصوروا . مدى الصدمة التى واجهتها من جراء عاهتى !، ومع ذلك فلم يكن بإستطاعتى أن أقول للناس :

" تكلموا بصوت أعلى ، اصرخوا فى أذنى ، لاننى أصم .. !" . كيف كنت أستطيع أن أكشف عن ضعف حاسة كانت عندى أقوى مما هى لدى الآخرين ؟ . حاسة كنت أتمتع بها بأكمل ما يكون ، وبدرجة يندر أن يحظى بها من يزاول مهنتى نفسها ! .

ويلى !! . ما أشد مهانتى عندما يكون أحد الناس قريبا منى وهو يستمع إلى صوت الناى الصادر من بعيد فى حين لا اسمع أنا شيئا ! .

لقد ألقت بى مثل هذه التجارب إلى حافة اليأس ، وكثيرا ما فكرت فى أن أضع حدا لحياتى ولكن مخافة الله وحبى لفنى كانا يبعدان عنى هذا الخاطر ، كانت تبدو لى إستحالة مغادرة هذا العالم قبل أن أنجز ما كنت أشعر أنه واجب علىَّ ، وهكذا كنت أمد من أجل هذه الحياة التعسة .

ايها الناس ، إذا قدر لكم يوما ما أن تقرءوا هذه الكلمات فعليكم أن تدركوا أنكم ظلمتمونى ! .

أما أنتما ايها الشقيقان - كارل وجوهان - فمجرد علمكما بوفاتى أرجو أن تبلغا الاستاذ (سميث) عن لسانى إذا كان لا يزال على قيد الحياة - رجائى فى أن يضع تقريراً مفصلا عن مرضى ، وارفقوه بهذه الكلمات لكى يحث الناس على العطف علىَّ بعد وفاتى ! .

وأخيرا فإنى أعترف بكما كليكما وريثين لثروتى الصغيرة إذا كان لى أن اسميها ثروة وعليكما أن تتقاسماها بالعدل ، وليكن التفاهم دائما رائدكما ؛ وليساعد كل منكما الآخر إن أملى هو أن تكون حياتكما اسعد من حياتى ، أوصيا أبناءكم بالفضيلة ؛ فهى وحدها الطريق إلى السعادة ، وليس المال ! . إننى اتحدث عن ذلك من واقع خبرتى : فالفضيلة هى التى اعانتنى فى بؤسى وانا مدين لها ولفنىَّ بأنى لم اضع حدا لحياتى بيدى ! .

وداعا ، وتحابوا . إننى اشكر كل اصدقائى ، واتمنى لو امكن الإحتفاظ بكل الآتى لدى أحدكما ، ولكن بشرط الا يكون ذلك سببا فى شجار بينكما ، أما إذا وجدتما فيها فائدة أصلح فلا تترددا فى بيعها ، كم يسعدنى لو كان بإستطاعتى أن أكون ذا نفع لكما وأنا فى قبرى ! .

وداعا ، ولا تنسيانى تماما بعد وفاتى ، فإنى أستحق أن تذكرانى ، لاننى كنت دائما اذكركما وانا حى محاولا إسعادكما . اتمنى لكما السعادة .

هايليجنشتات فى ٦ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠٢ م

أخوكما أمام الله

لدفيج فان بيتهوفن

هكذا كانت وصية بيتهوفن عصارة لألمه من عاهته التى كدرت عدة سنوات من حياته ، وحرمته متابعة سماع نتاج عزفه .

والحق أن " لودڤيج بيتهوڤن " يعتبر اليوم شكسبير الموسيقى ، وقد دعا نفسه يوماً " شاعر النغم " ، وقال كثيرون : إنه فى ذلك على حق .

ولد " شاعر النغم " عام ١٧٧٠ فى مدينة (بون) قلب بلاد الراين الألمانية الجميلة وإنحدر من أسرة موسيقية : فأبوه وجده كلاهما شغل وظيفة موسيقى فى بلاط حاكم بون ، وكان بيتهوفن أحد ثلاثة أولاد عاشوا لوالديهم من سبعة أولاد ، ولودڤيج بيتهوڤن هو الإبن البكر ليوهان ، وهو رجل عرف بضعف الإرادة وإدمانه الشراب ، وكثيراً ما عامل إبنه " لودڤيج " بخشونة وغلظة ، لأنه لم يظهر رغبة كافية فى الموسيقى ، بل كثيراً ما كان الأب يلطم إبنه على وجهه أو أذنيه إذا أبدى بطئاً فى تعلم النوتة الموسيقية ! .

كان لودڤيج ذكياً وشديد الحساسية والحياء ؛ كما أنه كان مثل أترابه فى قدرته على المرح والمعابثة .

وبرغم الصعوبات التى لقيها فى دراسة الموسيقى على أبيه - كان يلقى تعويضاً من حب أمه الطيبة ، والمربية التى كانت تصحبه فى نزهات طويلة يقوم بها فى الريف الجميل ، أو فى حدائق القصر المزهرة .

وفى دراسته المبكرة كان يتوجه إلى مدرسته المحلية حاملاً لوحه وكتبه ، وإستطاع أن يتعلم القراءة والكتابة بسرعة فائقة ، وسرعان ما أتقن اللاتينية ، ودرس الفرنسية حتى صار قادراً على كتابتها كتابة صحيحة .

وذاع صيت الصبى المعجزة فى أرض الراين ، وبلغت أخبار نجاحه سمع والده الذى أصر على أن يهيئ لإبنه مستقبلاً مماثلاً ، وإستخدم أساليب خاصة لا تناسب الأصول التربوية ، وبينها حبس الصبى فى غرفة السطح لعدة ساعات كل يوم ؛ ليتمرن على عزف البيانو أو الكمان ؛ كما كان يلزمه أن يتمرن على العزف طول النهار ، بل إنه كثيراً ما كان يوقظه فى منتصف الليل ؛ ليلقنه درساً فى الموسيقى ! .

قاسى " لودڤيج " الصغير أياماً صعبة بلا صديق ولا قريب ، فهو أشبه ما يكون بالطفل اليتيم ! . حقاً كان له أب على قيد الحياة ، ولكنه لم يكن أباً عطوفاً ،

بل كان مجرد أداة جامدة لا هدف له إلا تعليم إبنه الموسيقى ليأتى إليه بالإيراد اللازم لسُكره بعد أن تدهورت أحواله المالية بسبب إدمانه المُسكرات ! .

وقد قيل : إن لودڤيج لم يكن له صديق سوى عنكبوت يقيم معه فى الغرفة ! . وقد تعود أن ينزل من السقف ؛ ليقبع على كمان بيتهوڤن وبرغم هذه الحالة القاسية فإن لودڤيج الصغير كان مغرماً بالموسيقى وأذنه دقيقة جداً فى إلتقاط الأصوات حتى إنه كان يلاحظ أى خطأ لأى عازف ، ولم يكن يرضى عن نفسه إلا بعد أن يعزف كل قطعة عزفاً صحيحاً مهما كلفه الأمر من مثابرة .

وبدأ يجنى ثمار كفاحه فى الحادية عشرة من عمره حين كان يدير أوركسترا مسرح كبير ، وفى الثالثة عشرة أشتهر فى مدينة (بون) بأنه الغلام العازف ! .

وقبل أن يبلغ العشرين من عمره ذهب إلى مدينة ڤيينا التى كانت فى ذلك الوقت من أهم المراكز فى عالم الموسيقى ، ليتلقى الموسيقى على كبار المؤلفين ممن كانوا وقتئذ فى ذروة شهرتهم ، وبينهم " موتزارت " و " هايدن " على أنه لم يَمْض وقتٌ قليل حتى فاق بيتهوڤن معلميه فى الشهرة ! .

وفى الخامسة والعشرين ذاع صيته كمؤلف موسيقى عبقرى ، فجمعت بعض مؤلفاته الموسيقية وتهافت الموسيقيون على شرائها .

وعندما توفيت أمه كثف من كفاحه ، ليحصل على المال اللازم لرعاية أخويه ، وفى الوقت الذى كان أصدقاؤه من الطبقة الأرستقراطية يبعثرون أموالهم فى الحياة البوهيمية - حفظ بيتهوڤن نفسه نقياً ومستقيماً ، كان يحب أن يقوم بأعمال الإحسان وأن يعاون الآخرين بعطاياه السخية ! .

وكان بيتهوڤن يتناول الغذاء فى مطعم صغير ، ولكنه كان ينسى كل شئ عن الطعام ، لأن وحياً مفاجئاً حل عليه ، ويبدأ يدون علامات الألحان المختلفة على قطع أوراق ، حتى لا تضيع النغمة من أذنيه ! .. بل أنه كان فى بعض الأحيان يسجل هذه الألحان على نوافذ غرفته فى الفندق الذى يقيم فيه ! .

بلغ بيتهوڤن ذروة شهرته وهو فى الثلاثين من عمره ، وذاع صيته فى كل أنحاء العالم ، ودُعىَ لزيارة مدن كثيرة ، ولكنه لم يتمكن من السفر بسبب إعتلال صحته حيث بدأ يشعر بصعوبة فى سماع الآخرين ، وظل مدة طويلة يرفض أن يعترف بأنه أصبح أصمَّ ، ولم يجد أصدقاؤه الشجاعة لمواجهته بالحقيقة ، ولم

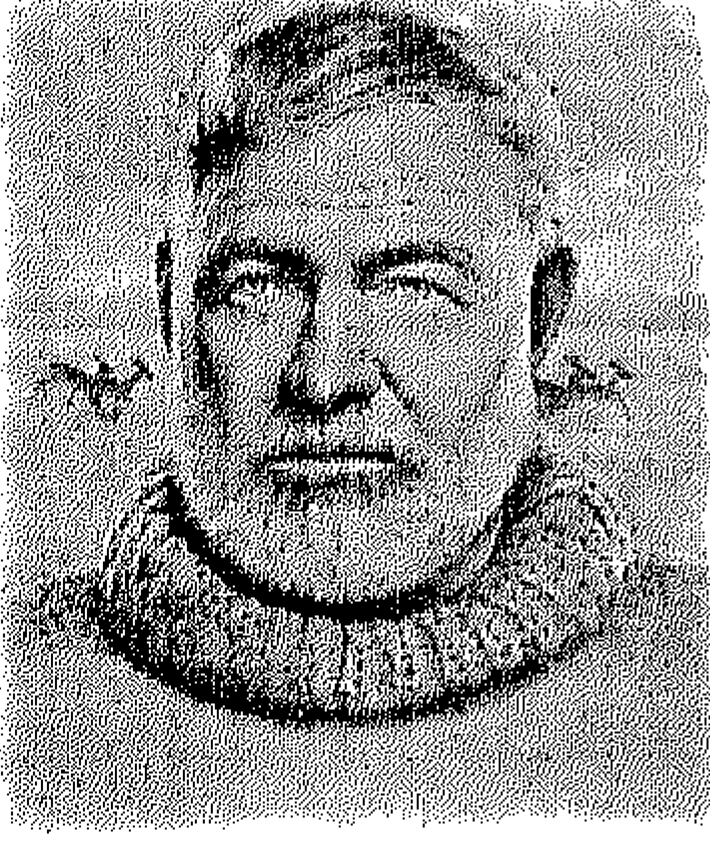
يلاحظ الناس لعدة سنوات أنه كان يجد صعوبة فى سماع حديثهم وأنه فى قيادة فرق الموسيقى لم يكن يسمع الأصوات الخافتة فيها .

غير أن الأمر لم يكن إخفاؤه أكثر من ذلك ، فقد حدث أن أصر على قيادة إحدى الأوبرات ، ولكن صممه كان قد بلغ منتهاه فى ذلك الوقت ، ولذلك سادت الفوضى الموسيقى ، ولم يوجد فى القاعة من جسر على أن يخبر بيتهوفن بالأمر ، وفى التدريب كان الأمر أردأ ، فأرسل له صديق بطاقة كتب فيها : " ألزم بيتك ! " وأدرك بيتهوفن الحقيقة ، فإندفع خارجاً إلى بيته حيث وجدوه منحنياً على مكتبه وهو يضع وجهه بين يديه وقد تجلى التعس الكامل عليه ، فقد أدرك أنه لن يستطيع بعد ذلك قيادة أى فرقة موسيقية ! .

على أن بيتهوفن لم يستسلم ، فإنه بالرغم من عجزه عن قيادة الموسيقى - لم يترك الموسيقى ، بل دأب على التأليف ، فوضع أروع القطع الموسيقية التى أطربت الآخرين وهو لا يستطيع سماعها ! .

وقد حدث يوماً أنه عزف مقطوعة عزفاً أثار عاصفة من الهتاف والتصفيق ، وذرف الكثيرون الدموع الغزيرة من أجله ! . ووقفوا وهم يهتفون بحياته كل ذلك وهو جالس منحن على المعزف وهو لا يدرى ما حوله إلى أن ربت أحدهم على كتفه فأدار " بيتهوفن " وجهه نحو الجمهور ، وهنا أدرك المنظر الذى أمامه والقبعات التى تلوح بها الأيدى والأفواه المفتوحة والأيدى المصفقة ، فدمعت عيناه ، لأنه لا يستطيع سماعهم ! .

لم يسمع من حوله من الهاتفين بإسمه المصفقين له ، لكن سيمفونياته التسع التى ألفها تعد بمثابة صرح شامخ فى تاريخ الموسيقى العالمية تسمعها الأجيال المتعاقبة فى كل أنحاء العالم .



(٢٠) هيمنغواى

رسائل لم يكتبها هيمنغواى

فى السابعة من صباح اليوم الثانى من تموز (يوليو) عام ١٩٦١ لقى " إرنست هيمنغواى " الروائى الأمريكى الشهير مصرعه بعد أن أطلق على نفسه الرصاص ، ووضع النهاية لقصة حياته المثيرة التى نتناولها من خلال رسائل موضوعة يتخيل الكاتب أن هيمنغواى كان يمكن أن يكتبها فى ليلته الأخيرة ..

رسالة إلى والدى

والدى العزيز

أكتب إليك بعد ٣٣ عاماً من رحيلك من هذه الدنيا ، لقد كنت لى المثال الأعلى الذى تمثلته فى طفولتى وصباى - وعلى طريقك سرت .. وفى منهجك سلكت ..

كان إعجابى بك هو الذى دفعنى لتعلم الرماية وإتقان إستعمال السلاح قبل أن أبلغ العاشرة برغم ضعف بصرى .

ولقد ولدت وفى دمى روح المغامرة والشجاعة التى أخذتها عنك .

ولأنك علمتنى وشجعتنى على الصيد فقد أردت أن أكون عند حسن ظنك وإنتظارك فىَّ .. وتحملت فى سبيل ذلك الأهوال .. فمع أننى بدأت رحلتى مقلداً لك فى صيد الطيور الجارحة - لم أقف عند هذا الحد ، بل سافرت بعد رحيلك إلى أفريقيا ، فإقتحمت على الأسود الكواسر عرينها ، وصارعت عشرات الوحوش ، فما بقى جزء فى جسدى وليس فيه أثر لمعركة ضارية .. إن دمائى التى سالت على وجه الصحارى والقفار كانت من فصيلة دمائك نفسها أيها الأب الشجاع .

كنت أود أن ترانى أصارع الحيتان فأصرعها فى عمق الكاريبى ، لقد كان صراعى مريراً ، لكننى كنت دائماً أتمثلك بجانبى .. ولعل هذا ما جعلنى أكتب

قصتى " الشيخ والبحر " . وقد كانت بركاتك تحيط هذا العمل حتى أننى نلت به جائزة نوبل .

هل صارعت ثوراً يا أبى ؟ ، لقد فعلت أنا ذلك فى أسبانيا - وخرجت من المصارعة بجروح غائرة .

نسيت أن أقول لك : إن إبنك الذى أمسكت بيده وهو فى طفولته وجعلته يتحسس بندقيتك الخاصة - أصبح يملك الآن متحفاً به بنادق كثيرة وأسلحة متنوعة تُصنع بعضها خصيصاً من أجلى .. وعلى رأس هذه الأسلحة أضع مسدسك الرهيب الذى كان آخر ما امسكته يدك . لقد طلبت من أمى أن تسترده من مكتب الشرطة بعد إنتهاء التحقيق فى حادث إنتحارك مستخدماً إياه .

وكثيراً ما أمسكه وأحشوه بالرصاص وأضع يدى مكان يدك وأضع أصبعى على " الزناد " وأقرب فوهته من رأسى أو أضعها فى فمى وأكاد أضغط عليه كما فعلت أنت فى ذلك الصباح الرهيب منذ ٣٣ عاماً .

آه يا أبى ! . كم يعتصرنى الألم حين أفكر فى ذلك اليوم المشئوم ، لقد تيقنت يومها مما سبق أن كتبته فى قصصى من أن الحياة " لعبة قذرة " ولو لم تكن هكذا فلتفسر لى لماذا وصلت رسالتى إليك فى ذلك اليوم بعد دقائق من إنتحارك ؟ ، ألم يكن ممكناً أن تصل قبل ذلك بقليل ؟ .

كان ذلك الدائن اللعين قد أذلك بمطالبته المتكررة برغم شيخوختك ومرضك فأضاف إليك عبئاً لم تستطع أن تتحمله . كنت عزيز النفس فلم تخبرنى بضائقتك المالية الطاحنة إلا بعد أن ضاق بك الأمر تماماً فأرسلت تطلب نجدتى ، لكن رسالتى إليك تأخرت قليلاً . لقد وجدت " الشيك " الذى أرسلته لك ملقى إلى جوار جثتك داخل غلافه المغلق .

هل هذا معقول يا أبى أن تفقد الحياة رجلٌ مثلك لمجرد أنك تعثرت فى سداد دين رجل آخر ؟ .

لقد حطم إنتحارك كل رغبة لى فى المال .. لقد بعت رواياتى للسينما بمبالغ خيالية لم يدفع مثلها فى عمل آخر من قبل ، فمنذ عشرين سنة بعت قصتى **" لمن تدق الأجراس "** بمبلغ ١٥٠ دولار ، وإكتسبت من قصتى **" جبال كليمنجارو "** مبلغ ٢٠٠ ألف دولار . لكن هذا المال لم يعد ذا قيمة لى .. فالمال الذى أفقدك

الحياة لن يكون سبباً فى سعادتى أبداً ! .

لقد عشت حياة عريضة .. مليئة بالشجاعة والمغامرة لم يكن إبنك خواراً عديم التجلد ، لقد تحملت من آلام الجسد ما يعجز عنه البشر . ولعلك تذكر يوم أن إنحشرت العصا المسننة فى حنجرتى فشقتها حتى برزت اللوزتان ، وكنتُ يومها صبياً صغيراً ؟ . هل تذكر أننى لم أبك ولم أصرخ وأنت تخيط الجرح وتصلح الحنجرة بدون مخدر ؟ . هل تذكر أننى كنت أحتال على الألم بالصفير والغناء ؟ .

لقد تعرضت لكثير من الحوادث التى تستطيع أنت كطبيب أن تقدر ما يتبعها من الألم ، فلقد سقطت القنابل من حولى عدة مرات وأنا أعمل مراسلاً حربياً . فى لندن سقطت بجانبى قنبلة فشجت رأسى ، وأجريت لى عملية إحتاجت إلى ٥٢ " غرزه " . وفى ميلانو أخرج من جسدى ٢٧٧ شظية .

وفى إحدى المرات مزقت قرون الثور الأسبانى جسدى فتطايرت بعض أشلائى .. وكثير وكثير من تلك الآلام الطاحنة .

لكن فشلى فى إنقاذك من عثرتك المالية فى الوقت المناسب حطم قلبى ! . أنا ذاهب الآن إلى الطابق الأسفل لأتأمل مسدسك وأقضى وقتاً فى متحف الموت بين الأسلحة وحيث الوحوش والطيور .

لقد حاربت فى كل الجبهات ، وكانت حياتى معركة متصلة لا هدنة فيها ، وخرجت من الحرب ممزق الجسد والروح . لقد غالبت الموت فغلبته مرات عديدة .. لا أدرى ماذا أفعل الآن ؟ .

إلى اللقاء يا والدى

إرنست

رسالة إلى أمى

أمى الحبيبة

أكتب إليك أيضاً بعد رحيلك . عشر سنوات مضت دون أن أراك ، ولست أظن أننى سأراك مرة أخرى فمصيرى غير مصيرك ، لقد كنتِ سيدة متدينة تحرصين على علاقاتك وحياتك الروحية على نقيض إبنك الذى لم يكن له نصيب فى ذلك .

ولست أدرى يا أمى من ألوم لما أتذكر أنك فارقت هذه الحياة قبل أن أتمكن من إقناعك دون أن تستطيعى فهم إبنك ، الذى بدا لك كاللغز الغامض ؟ .

وربما كان السبب في ذلك أنك سيدة وقور متدينة تحبين الإستقرار وتفضلين الموسيقي الهادئة ، على حين أن ولدك ملول ثائر يحب المغامرة ، ويحب الحياة الصاخبة .

لكنى أعتب عليكِ أنكِ لم تحدثينى عن الحياة الدينية . أكتفيت بإرسال خطابات التوبيخ كلما قرأت إحدى قصص رواياتى ، وأعلم أنكِ لم تكونى قط راضية عن زيجاتى الكثيرة ، وأود أن أفسر لك الآن فلسفة حياتى التى تتلخص فى أننى كنت دائماً أؤمن بقدرة الإنسان على مواجهة الصعاب وتحدى الأهوال ..

وتتمثل عظمة الإنسان فى بسالته فى صراع القدر معتمداً على نفسه دون الإعتماد على أى قوى خارج ذاته ، كما أن الحياة والموت لا قيمة لهما إلا بما فيها من مواقف بطولية . وقد أبليت فى ذلك بلاءً حسناً ، ولم أقم إعتباراً للمشكلات والعوائق وكنت أعلم دائماً أن الخسارة واقعة ، ولكن إهتمامى كان كيفية السلوك النبيل فى الوقت الذى أكون فيه محطم جسداً وروحاً .

كنت أعلم يا أمى أنكِ تملكتِ تفسيراً آخر للحياة . كنتِ قبل تعيشين أكثر سعادة منى - كنت تؤمنين بالله لا بوجوده فحسب بل بوجوده فى حياتك ، وبإستحالة الحياة بدونه . كنتِ تعرفين أن الإعتماد على الجهد البشرى فى مواجهة الحياة المعقدة لن يقود المرء إلا إلى اليأس والتشاؤم ، وهو ما خبرته فى حياتى ، وليس حياتى أنا فقط ، بل على كل الجيل الضائع الذى يملأ الحانات والمقاهى بعد أن فقد الإيمان بكل شئ نتيجة أهوال الحرب التى حطمت غرور الإنسان وثقته فى الناس وفى نفسه .

والآن يا أمى فإن إبنك الذى ظن أنه صارع الموت مراراً وإنتصر عليه - يعترف لك أنه خسر المعركة أخيراً أمام الموت ، ولم أعد بعد قادراً على المواجهة الذاتية ، وليس لى أمل فى الإستمرار .

لذلك أنا هارب الآن من حياتى كلها ، ولعل هذا العمل الذى ستقوم به بندقيتى الفضية إعتراف لكِ يا أمى بأنكِ فهمتِ الحياة بصورة أفضل منى .. وأن الحياة المادية مهما بلغ طولها وعرضها لا تحقق سعادة الإنسان وإستقراره . وكان

الأجدر بى أن أجعل لحياتى عمقاً روحياً تختفى فيه الذات البشرية لتعطى مكاناً لقوة الله التى تغلب الحياة وتهزم الموت .

الوداع يا أمى

إرنست

رسالة إلى زوجتى

عزيزتى مارى

يؤسفنى حقاً أن يكون مقدراً لك أن تريننى بعد دقائق فى صورة بشعة عندما تتطاير جمجمتى فى الهواء لتلصق أشلاء وجهى بجدران وسقف الحجرة .. لقد إعتدت كما تعلمين أن آكل شرائح اللحم النيئة . وفى صباى الباكر كنت أحياناً أصطاد الطيور الضخمة وأنهش لحمها وأمضغه نيئاً ، وقد رأيت أشلاء أصدقاء وزملاء لى فى الحرب .. وجمعت هذه الأشلاء بيدى وحملتها على كتفى ، لكن المهمة بالنسبة لك ستكون قاسية فإنك ستجمعين أشلاء زوجك الذى تحبينه وقد قضيت معى خمسة عشر عاماً كنتِ تصفينها بأنها شهر عسل مستمر لا آخر له - يختلط فيها الزمان والمكان بالعواطف التى تنبع من أغوار الروح والحس إلى جانب المغامرات التى لا تعرف الحدود والإنتشاء بمواجهة الموت .

وأود أن أذكر لكِ فضلاً عظيماً فقد عشتِ معى وأنا فى عنفوان قوتى فشاركتنى فى مغامراتى فى جبال كليمنجارو التى كان من نتيجتها تحطم ضلعين من ضلوعك عندما سقطت الطائرة بنا مرتين ونجوت من الموت بمعجزة من جراء مغامراتى الحمقاء ثم عشتِ معى بعد أن تحطم جسدى . وأصابنى مرض السكر والكبد إلى جانب الآلام المبرحة التى تركتها مغامراتى فى أفريقيا والكاريبى .

لقد كان حبى الأول للممرضة " جنس كروفسكى " حباً عنيفاً حتى إننى كتبت عنها قصة " وداعاً أيها الحرب " فكانت أقوى قصة حب كُتبت حتى الآن . وكان حبى " لبولين " زوجتى الثانية قوياً ، وكانت " مارثا " زوجتى الثالثة زميلة كفاح فى الحرب وقد أحببتها إلى الحد الذى جعلنى أطلق بولين أقرب الناس إلى قلبى وأم أولادى لأتزوجها لكن مارثا كانت مشغولة عنى بعملها الصحفى حتى إنها لم تزرنى بالمستشفى إلا مرتين بعد أن مزقت القنبلة رأسى ونشرت الصحف

نبأ موتى وكلمات الرثاء الحارة لى كبطل من أبطال التحرير .

أما أنت فقد عشت معى على هواى فى بيت به إثنتان وخمسون قطة ومائتا حمامة وثلاث بقرات وستة عشر كلباً .

أوصيك خيراً بكل الأصدقاء .. وأرجو أن تدفن جثتى بهدوء فى مقبرة القرية . تذكرى القصة التى أودعتها البنك فى هافانا وإحتفظى بمذكراتى عن مرحلة الشباب الأول فى باريس .

الوداع يا مارى

إرنست

رسالة إلى السماء

يا رب ..

كم أحس بالخجل الشديد وأنا أقترب من عتباتك .. لقد عشت حياتى طولاً وعرضاً ولم أقم إعتباراً لصوتك الهاتف فى الكون وتحذيراتك المتكررة فى أحداث الحياة ! . بل لم أقدّر المعجزات الكثيرة التى أنقذتنى بها سبع مرات من موت محقق معطياً لى فرصاً أخرى للحياة علنى أفهم أو أدرك سر وجودك وعنايتك فى وجودى .

وأعترف لك يا إلهى أننى كنت أعبد نفسى وأصنع منها إلهاً أتصوره قادراً على فعل المستحيل ! . كنت أبدو فى عينى مارداً جباراً أكبر من الأهوال والأمراض والمصائب والقدر المحتوم .

وأعترف أننى كنت أخفى مرارتى وفشلى خلف قناع من البسالة والشجاعة .

كانت الحياة لى حرباً بلا هوادة وهى حرب عنيفة ضارية لا يكسب المنتصر فيها شيئاً . إنها كتلة من العنف والعداء ، ولا يجعلها محتملة بعض الشئ غير ما يبديه المرء من صور التحمل والمقدرة والشجاعة وما يمارسه الجسد من لذة مقتنصة ومن لحظات حب لا تدوم ! .

خرجت من الحرب ممزق الجسد والروح يؤرقنى القلق ويمزقنى الفشل .

ترن فى أذنى الكلمات التى كتبتها على لسان هارى فى قصتى **" وداعاً أيها الحرب "** .

إن الجنس البشرى أشبه بجماعة من النمل على قطعة خشب مشتعلة : فهى لا تطمع فى رحمة السماء ، ولا مفر لها من الإحتراق بالنار .

ولعلنى بذلك كنت أحاول أن أغلق باب رحمتك .

المرة (الوحيدة) التى تذكرتك فيها ـ تطاولت عليك فرددت صلاة على لسان أحد أبطال قصصى قائلاً : أيها العدم الذى فى العدم ، والذى إسمك العدم ... ! " .

والآن وبعد فوات العمر أعترف أنك الإله الذى يملأ الكون الذى فى كل الوجود . أنت رب الحياة والموت وبدونك لا قيمة للحياة ولا غاية وراء الموت .

(٢١) برثا كينسكى

دعوة أقنعته

ثابرت عشرين عاماً حتى أقنعت (ألفريد نوبل) الذى وصف دعوتها بأنها أقوى من كل الأسلحة وكل المفرقعات !.

المكان : النمسا .

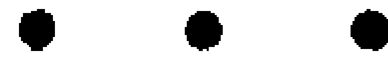
الوقت : عام ١٨٤٠ .

وسط جو الأرستقراطية الذى كان يسود النمسا فى منتصف القرن التاسع عشر ولدت " **برثا كينسكى** " ، لكنها قبل أن تولد توفى والدها وكان يشغل منصب " فيلد مارشال " فى الجيش النمسوى . ونشأت برثا فى هذا الجو الأرستقراطي ، وإسترعت جميع قواعد بيئتها الإجتماعية ، وعلمتها أسرتها عدداً من اللغات وذلك بما يُناسب العائلات الكريمة فى ذلك الوقت ؛ كما حرصت عائلتها على أن تتقن الموسيقى وفن الغناء دراسة وممارسة .

كل ذلك برغم ما أعترى إقتصاد العائلة من إهتزاز بعد فقد عائلها والد برثا . وأدركت برثا ذلك .. وبحثت عن عمل ، وخاصة بعد أن تدهورت حال أسرتها المالية عام ١٨٧٣ . وُفقت برثا فى إيجاد عمل فى ذلك العام حيث عملت فى منزل البارون " **فون شوتنر** " كمربية لبناته الأربع .

وهكذا أصبحت " برثا " مربية معلمة لهؤلاء البنات الأربع بما كانت عليه من دماثة خلق وتعليم للغات والموسيقى ، فضلاً عن نضج شخصيتها ، كما كانت لبقة فى حديثها ، جميلة الوجه فارعة الطول ، تحتفظ بكبرياء القصور الأرستقراطية دون تكبر . كانت برثا تعرف قدر نفسها ومهمتها فى بيت البارون والتعامل بينها وبين جميع أفراد أسرة البارون يتم فى إحترام متبادل .

أعجب " أرثر " الإبن الوحيد للبارون وأخو البنات الأربع " ببرثا " وكان الإعجاب متبادلا ، ثم تطور الإعجاب إلى حب صرح به (آرثر لبرثا) ثم حاول جس نبض أمه البارونة ليتزوج محبوبته . غير أن الأم عارضته ؛ لأن المربية الشابة لم تكن فقيرة معدمة فقط ، بل كانت تكبر إبنها الذى لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره بسبع سنوات ! .

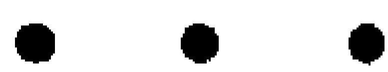


لم يكن أمام برثا إلا مغادرة قصر البارون والإستقالة من عملها ، وبدأت تبحث من جديد عن عمل فى مكان آخر . وفى الوقت نفسه كانت الأم البارونة تبحث لها فى الصحف عن فرصة عمل آخر ، إلى أن قرأت إعلاناً فى الصحف وأطلعت برثا عليه وجاء فى نص ذلك الإعلان :

" كهل ثرى مثقف يعيش فى باريس ، يرغب فى العثور على سيدة متقدمة فى السن ، تتقن اللغات ، للعمل (كسكرتيرة) ومديرة لمنزله " .

أبدت برثا ترحيباً بفكرة هذاالعمل ، وشكرت البارونة التى إنزاح عن كاهلها عبء ثقيل بضمان عمل فى بلد آخر لمربية بناتها ؛ حتى تتيقن أن هناك صعوبة فى لقائها وإبنها " آرثر " بعد أن تلتحق " برثا " بعملها الجديد فى باريس ! .

ردت برثا على الإعلان ، وتلقت بدورها رداً إتسم بالود من شخص يدعى " **ألفريد نوبل** " ، قالت لها البارونة عنه : إنه مخترع (الديناميت) ثم رُتِّب أمر اللقاء بينهما فى باريس .



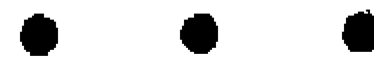
كان اللقاء مفاجأة للطرفين ، فلم يكن الرجل الذى إستقبلها عند وصولها إلى باريس " سيداً عجوزاً " بل كان رجلاً وقوراً ذا لحية سوداء فى الثالثة والأربعين من عمره ، خجولاً حسن الخلق . أما السيدة المتقدمة فى السن التى كان يتوقعها " نوبل " فقد إنقلبت إلى سيدة أنيقة فارعة الطول ، شابة فى الثالثة والثلاثين ، جميلة الملامح تتوسط وجهها عينان واسعتان سوداوان تشعان ذكاء يشوبه بعض الحزن ! .

وكان " ألفريد نوبل " ثرياً مشهوراً ، يقيم فى منزل باريسى فاخر الأثاث ؛

كما أنه كان عزباً يحيط نفسه بجميع وسائل الراحة ، مع أنه محروم من تناول أبسط الأطعمة ، لأن جهازه الهضمى يعانى من مرض شديد بسبب أبخرة " النيترجلسرين " التى يتعرض لها فى تجاربه العلمية . وكان نوبل يمتلك عربة جميلة ، وجياداً مطهمة يقوم بها بنزهاته الخلوية بمفرده فى متنزهات باريس ، كما كان يتردد على أحد (صالونات) الأدب بين حين وآخر ، إذ كان يهتم إهتماماً عميقاً خاصاً بالشعر والمسرحيات والفلسفة .

رحب " ألفريد " (بسكرتيرته) الجديدة ، وإنطلق معها إلى مقر إقامتها الذى كان قد إحتجزه لها فى جناح بأحد فنادق باريس ، ثم تناول معها الغذاء ، وتحدثا طويلاً عن السياسة والفن والحياة ومستقبل البشرية .

ووجد " ألفريد " فى (سكرتيرته) رجاحة عقل وثقافة وملامح إنسانية .



وبدأت " برثا " عملها الجديد بهمة ونشاط ورضا ، عدا تفكيرها فى مشاعرها تجاه " آرثر " وظروفها التى لا يد لها فيها ، وحالت دون تحقيق زواجها منه .. كانت تحاول أن تنغمس فى عملها حتى تنسى ! .

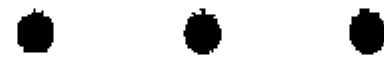
وبطبيعة عملها (كسكرتيرة لنوبل) تأثرت كثيراً بأوساط صناعة الذخائر ، كما كان مساعدو نوبل على إتصال وثيق بالإتجاهات السياسية فى جميع أنحاء العالم ، وعملوا على بيع المفرقعات إلى جميع الأطراف المتنازعة دون تحيز .

وبرغم نجاح نوبل فى مجاله المعروف عنه فى مجال صناعة (الديناميت) وبيعه - فقد كان مؤمناً إيماناً عميقاً بالآمال التى تساور الإنسان لتحسين أحواله وتقدمه ، كما ساهم بالأموال الكثيرة فى أعمال الخير ، وإن كان حديثه عن هذه المساهمة حديث الساخر بها ! .

ومن أقواله " لبرثا " ذات يوم : **" إن الأمل الوحيد للعالم هو أن يولد الناس بعقول أفضل مما لديهم الآن " .**

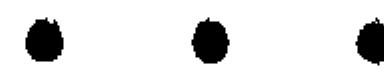
ومع أن برثا كانت مندمجة فى عملها مبهورة به - فإنها لم تستطع أن تنسى آرثر .. وتوالت عليها رسائله كل يوم ، وكتبت إليها أخواته بأنه صامت دائماً ، ولا يحدث أحد إلا والدتنا .

وبينما كان " نوبل " فى إستوكهولم يجرى الإستعدادات لإقامة مصنع جديد (للديناميت) فى السويد ـ تلقت برثا خطاباً من آرثر قال لها فيه : " يجب أن نتزوج ، لا أستطيع الحياة بدونك ! " كما ضمن رسالته متى وكيف وأين يلتقيان لإتمام الزواج . لم تنتظر برثا عودة نوبل من السويد فكتبت له رسالة شكرته فيها ، وإعتذرت عن عدم تمكنها من إنتظار عودته لأسباب خاصة قاهرة ! .

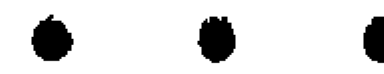


وفى قرية " منجريليا " إحدى قرى القوقاز التى إستولى عليها الروس عام ١٨٦٤ م تم زواج (برثا وآرثر) ، بعد أن هرب آرثر من أسرته وبلده النمسا ، ولحقت به برثا . وكان آرثر يعمل ليل نهار كاتب حسابات فى مصنع لورق الحائط ، كما كانت برثا تعطى دروساً فى البيانو والغناء وذلك لكسب عيشهما وفى محاولة للتخلص من حالة الفقر التى يعانيان منها ! .

ولما أعلنت روسيا الحرب على تركيا عام ١٨٧٧ م ـ أصبح القوقاز معسكراً مسلحاً ، وشاهدت برثا الشبان وهم فى طريقهم إلى ميادين القتال ، كلهم نضرة وحيوية ، ثم شاهدتهم وهم عائدون منها فى قطر المستشفى ! .. وواست أمهات الجرحى والثكلى ، وكرست نفسها لخدمة المصابين فى الحرب .



كانت (برثا) فى مطلع شبابها فى جو عائلتها الأرستقراطية تقرأ عن الحرب ، وتصور لها أن الحرب مغامرة بعيدة يذهب إليها الشباب ، ويعودون منها أبطالاً يرقصون " رقصة الفالس " مع بنات بلدهم وتزين الأوسمة صدورهم ! .. أما الآن فقد أحاطت بها الحرب بآثارها الكريهة المدمرة العفنة ! .



وحفزت الحرب (آرثر) الموهوب فى مجال الكتابة بكتابة سلسلة من المقالات لإحدى صحف ڤيينا عاصمة بلده .

وبعد إنتهاء الحرب واصل آرثر كتابته للجريدة نفسها بمقالات عن القوقاز وأهله ، وسرعان ما أصبح كاتباً لامعاً يبيع إنتاجه للجميع ..

كما كتبت (برثا) عدة مقالات خفيفة بتوقيع " ب . أولوت " وأرسلتها إلى صحيفة " بريس " بڤيينا .

وكتب (آرثر وبرثا) فى أثناء وجودهما بالقوقاز ست روايات قصصية وعدداً كبيراً من المقالات .

ولما عادا إلى ڤيينا وهما كاتبان مشهوران عام ١٨٨٥ م - غفر لهما والدا (آرثر) فرارهما وزواجهما ، وأفردا لهما جناحاً فى القلعة التى بدأت فيها المربية الجميلة خدمتها وقصة حبها يوماً ما .

وتبادلت برثا و ألفريد نوبل الرسائل حيث واصلا فيهما أحاديث باريس ، وقد سُر نوبل بنجاح برثا الأدبى ، وإستضافها وزوجها فى باريس ، فكّرم إقامتهما ، وأطلعهما على معمله الخاص ، وتحدث معهما عن تجاربه ورافقهما إلى (صالونه) الأدبى المفضل .

وسمعت برثا عما يتحدث به الجميع عن " **بسمارك** " رئيس وزراء " بروسيا " عام ١٨٦٢ م وإعتزامه العمل على نشوب حرب جديدة بين بروسيا والنمسا بسبب الخلاف بينهما حول مصير البلاد التابعة للدنمرك التى إحتلها بروسيا والنمسا عام ١٨٦٦ م .

وشعرت برثا بصدمة عنيفة من الإتجاه العنيف للموت والدمار ..

وبلغها لأول مرة أنباء عن تشكيل جمعية تسمى " جمعية السلام الدولى والتحكيم " فسارعت بالإنضمام إليها .

وعكفت برثا على دراسة الأبحاث الخاصة بالحرب بكآبتها وخرابها .. عكفت تكتب من وقائع الجرحى ، وصانعى (الديناميت) ، وليس من بين جدران (صالونات) الحياة الأرستقراطية وأجرت أحاديث مع الأطباء الجراحين فى الجيش ، وأطلعت وعثرت على الضباط الذين خبروا ميادين القتال ، وقصوا عليها كيف تتناثر أشلاء الرجال فى المعارك ! .

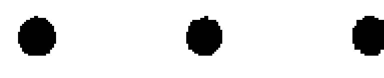
وكانت نتيجة أبحاثها هذه رواية قوية بعنوان " **ألقوا سلاحكم** " صبت فيها مشاعرها وعصارة آلامها وغضبها على الحرب ودعاتها ، وملأ هذا الكتاب فراغاً ، وسد حاجة قراء عصره ، وأصاب نجاحاً شعبياً عظيماً .

ووصف " **تولستوى** " كتابها هذا بأنه ند لرواية " **كوخ العم توم** " ، وأعرب عن أمله فى أن يكون له على الحرب الأثر الذى كان لرواية الكاتبة " **هارييت بيتشر ستو** " نفسه على " **تحرير العبيد فى أمريكا** " ..

ولكن أعظم ما نالته من تقدير كان من " نوبل " ، فقد أشاد بعظمة آرائها ، وتنبأ لها بأن الأسلحة التى أوردتها فى هذا الكتاب ستقوم بأكثر مما تقوم به أحداث المدافع ودوىّ المفرقعات ! .

ورأت برثا الفرصة سانحة لها ! .

دعت نوبل لحضور مؤتمر السلام فى " برن " ووصل نوبل إلى المدينة متخفياً . ومع أنه رفض حضور الإجتماعات فقد طلب الإطلاع على تقاريرها وقال لبرثا : " أعطينى المعلومات وأقنعينى ، وعندئذ سأعمل لهذه الحركة شأناً عظيماً ! " .



وتدهورت صحة " نوبل " ، وإزداد رقة ودماثة وكتب " **للبارونة برثا** " خطاباً قال فيه : " **إنى أشد على يديك وهما يدا شقيقة حانية عزيزة** " .

وكتب إليها فى أواخر عام ١٨٩٦ م يقول : " **إننى سعيد ؛ لأن حركة السلام تزداد تقدماً** " .

وتوفى " نوبل " بعد ثلاثة أسابيع ، ثم أعلن فى العام الجديد نبأ إنشاء الجوائز التى تضمنتها وصيته .

وتم منح أولى جوائز نوبل للسلام فى عام ١٩٠١ إلى " **هنرى دونان** " بالإشتراك مع " **فريدريك باى** " وكتب الأول إلى البارونة برثا يقول : " إن هذه الجائزة الجليلة من صنعك أنت ، وبفضلك كرّس الهر نوبل نفسه لحركة السلام ، وأصبح راعيها " بآرائك وأفكارك " ! .

وفى عام ١٩٠٥ وفى وسط حشد عظيم إجتمع خصيصاً فى اليوم العاشر من كانون الأول تقدمت سيدة جليلة لتتسلم جائزة نوبل للسلام ، هى " البارونة برثا " كجزء من تتويج جهودها طوال نحو عشرين عاماً لإقناع هذا الرجل الذى إخترع وسيلة للدمار وتوفى وهو مؤمن بأن وسيلة السلام أقوى من دمار الحرب ، وأن حاجة الإنسان الأولى ليست فى إنتصار فى حرب ، فكل من المنتصر والمهزوم فيها خاسران ! .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٢) ميشيل فارادى

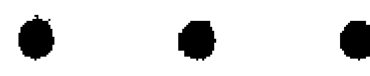
أحد باعة الصحف

لما وُلد كان قدومه للحياة مُجرد إضافة فم جديد يزيد من عبء والده ووالدته فى الحياة ! . . كان شريكاً جديداً لإخوته فى لقمة العيش التى لا تكاد تكفيهم ! .

هكذا كان مولد (**ميشيل فارادى**) عام ١٧٩١ م حيث إستقبل بلا حفاوة تليق بإنسان جديد قادم للحياة .

فالأب حدّاد يكدح طول يومه دون أن تدر عليه مهنته الحاجات الضرورية لأسرته ، والأم أنهكتها متابعة كل يوم من أيام الأسبوع وهى خالية اليد ، ومحاولاتها ألا تبقى أوانى الطبخ خالية دائماً مَرضاة لصغارها ذوى البطون الشبيهة بالفارغة ! . وزاد الموقف سوءاً أن عجز الأب عن دفع الإيجار الزهيد لمسكن الأسرة المتواضع ، فأضطرت الأسرة إلى إخلاء المسكن وإتخاذ حظيرة مهجورة بجوار أحد الإصطبلات ملجأ لها .

ولم تكن بالملجأ الحماية الكافية من البرودة القارسة للجو ! وكثيراً ما تعرض (فارادى) وإخوته للموت تأثراً بالبرد والجوع فبرغم قسوة البرد كان الأب المكدود لا يعود من عمله إلا برغيف يابس رخيص تقسمه على أفراد الأسرة يد الأم المرتعشة ألماً ، ولم تكن قسمتها عادلة فى كل الأحيان ، فقد كانت تبخل على نفسها ببعض كسرات من ذلك الرغيف الوحيد وتعطيها أولادها مشفوعة بصلاة تطلب من الله بركة وإشباعاً لجياعها الصغار ! .



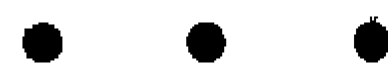
فى ذلك الجو المفعم بالحاجة والتضور شب (فارادى) ، وفى السادسة من عمره ألحقه والده بإحدى المدارس الأولية المجانية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب . وأظهر الصبى ميلاً شديداً للتعليم ، وحافظ على تفوقه خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة ، إلا أنه إضطر بعد ذلك إلى ترك الدراسة ،

مكتفياً بتحصيل القدر الضئيل من المعرفة ؛ ليبحث لنفسه عن عمل يكسب منه عيشه .

وبحث الصبى عن عمل ، ورضى بأول عمل عُرض عليه وهو بائع للصحف ، فكان يبكر كل يوم متجهاً إلى لندن حيث محل الصحف والكتب الذى التحق به . وهناك يحمل كمية كبيرة من الصحف والكتب ويطوف بها من شارع إلى آخر وسط الأحياء السكنية ، ليوزع ما معه على حرفائه ، ثم يعود فيجمع فى نهاية اليوم ما وزعه صحيفة صحيفة وكتاباً كتاباً مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها ، ثم يعود بها إلى المحل الذى يعمل به ، فيسلم لصاحبه صحفه وكتبه والنقود التى جمعها ، وفى ختام اليوم يسلم له صاحب المحل أجره الزهيد ! .

وواصل (فاراداى) عمله هذا عاماً كاملاً بإنضباط تام وهمة عالية رغم أنه كان عملاً مرهقاً لطفولته الضعيفة البنية ، وكانت مثابرته وأمانته باعثة لإعجاب صاحب العمل ، فأعفاه من ذلك العمل المجهد ، ووجهه ؛ ليتعلم حرفة تجليد الكتب ، وهدف الرجل من ذلك تقليل الجهد الذى يبذله الصبى وتعليمه هذه الحرفة ؛ لتدر عليه ربحاً أوفر من مهنة موزع الصحف .

وإستطاع (فاراداى) إتقان الحرفة خلال بضعة أسابيع ، ومارسها بنشاط وخبرة وحرص على الدقة والسرعة ، وزاد أجره ومن ثم زاد دخل والده وتحسنت أحوال أسرته مما أدخل السرور على قلبه .



وفى (ورشة) تجليد الكتب كان لدى (فاراداى) متسع من الوقت لممارسة هوايته وهى قراءة الكتب والصحف إرضاء لميله الفطرى للإطلاع ، وخاصة على الكتب العلمية برغم حداثة سنه ! .

وأكثر ما إستهواه للإطلاع هو مجال العلوم الطبيعية ، وخصوصاً الكهرباء ، وزاد ولعه بهذا العلم بعد أن قرأ كتاب " مناقشات العلوم " للأستاذ (مارست) ، وأطلع على بحث متكامل عن الكهرباء فى دائرة المعارف البريطانية . . كان ذلك وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره بعد ! .

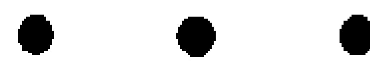
وحدث فى أثناء عودته لمنزله ذات يوم أن إسترعى نظره إعلان عن سلسلة من المحاضرات فى التاريخ الطبيعى يلقيها أحد الأساتذة المختصين ، وتمنى أن

يحضر تلك المحاضرات ، لكن من أين له أن يوفر نحو (ليرتين) رسم دخول كل محاضرة ؟ .

إن أجره يذهب كله إلى والده وهو راض سعيد بذلك ، ولا يحتفظ إلا بما يكفى نفقاته اليومية ، ورسم دخول محاضرة يعتبر رفاهية بالنسبة للأفواه المنتظرة فى بيته ، فكيف يجرؤ على مفاتحة والده فى هذا الأمر ؟ . فإستجابة الوالد لطلبه لرصد مبلغ من المال لرسم دخول المحاضرات التى يرغب فيها تعنى إقتطاع هذا المبلغ من دخل الأسرة ! .

ولاحظ شقيق (فاراداى) حيرة أخيه وإستغراقه فى التفكير ، وعرف منه الأمر ، فساعده على تحقيق رغبته ببعض المال الذى كان قد وفره الشقيق من تكاليف يومه .

ولم يبق فى طريق إمكان حضوره تلك المحاضرات سوى توفير الوقت ، فإتفق مع صاحب محل تجليد الكتب الذى يعمل معه بالسماح له بالتغيب عن عمله فى مواعيد المحاضرات ، كما تطوع أحد زملائه بإعطائه درساً فى الرسم ، لكى يستطيع أن يصنع رسوم تلك المحاضرات .



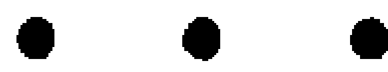
وكانت المحاضرات للعالم الكيمياوى سير (**همفرى داقى**) ، وإستمتع بها (فاراداى) لدرجة كبيرة ، وسجل مذكرات دقيقة لكل من تلك المحاضرات ، ثم أرسل نسخة منها إلى العالم المُحاضير الذى أعجب ، ودُهش بدقة وإتقان المذكرات التى قام بها (فاراداى) .

وبعد مدة إلتقى العالم سير (همفرى وفاراداى) فى محل تجليد الكتب الذى يعمل فيه ، فأعجب به إلى حد كبير لميله الشديد إلى العلوم ، ويسَّر له الإستماع إلى أربع محاضرات أخرى كان سير (همفرى) يعتزم إلقاءها وبعد أن انتهى سير (همفرى) من إلقائها تلقى من (فاراداى) رسالة رقيقة شكره فيها على فرصة إتاحه الإستماع لمحاضراته الأربع ، وأرفق بالرسالة مذكرات مفصلة لما تضمنته المحاضرات ؛ كما طلب منه أن يجد له عملاً فى المعهد العلمى بلندن ليسهل له التزود بما يحتاج إليه من الدروس ، ووعده سير (همفرى) فى مكتوب رد عليه بأنه سيعمل على إجابة طلبه بعد أن ينتهى من رحلة كان يعتزم القيام بها ، ونصحه بمواصلة إطلاعه على المصادر العلمية التى يهواها .

وكان المكتوب الذى تلقاه (فاراداى) من سير (همفرى) مشجعاً كبيراً له فى مثابرته على القراءة والإطلاع العلمى ، لكن والده توفى ، وأصبح عليه أن يكون خلفاً لوالده برغم أنه أصغر إخوته فى تحمل المسئولية لإعانة والدته وإخوته ، وإضطر للبحث عن عمل إضافى ، فعمل فى محل تجليد للكتب لفترة المساء ، بالإضافة إلى عمله مجلداً للكتب فى الصباح .

وكان صاحب محل تجليد الكتب للفترة المسائية فرنسى الأصل معتل المزاج ، يثقل كثيراً على (فاراداى) ، ويوبخه ويعنفه لأتفه الأسباب ! ، مما جعل (فاراداى) غير سعيد بعمله الإضافى برغم حاجته للإستمرار فيه لمواجهة مسئولياته ! .

أصبح (فارادى) فى الحادية والعشرين من عمره وهو يواصل الكدح من أجل أسرته ويحدوه الأمل فى مواصلة قراءاته للأبحاث العلمية وخصوصاً ما يتعلق منها بالكهرباء .



وعرف (فارادى) عن دور اليونانيين الأوائل فى مجال الكهرباء حين توصلوا إلى أنه يمكن الحصول على شرارة كهربية بحك جزء من الراتينج ، وعرف (فارادى) أيضاً أن الإسم اليونانى لكلمة (الراتينج) هو (إليكترون) وهى التى أخذت عنها كلمة Electricity فى الإنجليزية وتعنى الكهربا فى العربية .

وقرأ (فاراداى) أيضاً عن تجربة المخترع الأمريكى (بنجامين فرانكلين) فى تحليق طائرته الورقية عام ١٧٥٢ م ، وأنه إكتشف أن البرق هو كهرباء .

وبين ما قرأ (فاراداى) أنه فى عام ١٨٠٠ م إخترع العالم الإيطالى (فولتا) أول بطارية كهربية التى تمد تياراً كهربياً متواصل السريان .

عرف (فاراداى) كل ذلك من تاريخ مجال الكهرباء ، وتمنى لو أمكنه إضافة جديد على ما عرفه اليونانيون والمخترع الأمريكى والعالم الإيطالى .. بدأ (فاراداى) يحلم بتطويع الكهرباء بإستخدامها فى حياة الإنسان العملية .

لم تمنعه مسولياته إزاء إسرته ، وعمله الدائم من أجل لقمة العيش من إستمراره فى حلمه ..

وفى يوم تسلم (فاراداى) بطاقة دعوة من سير (همفرى) لمقابلته فى مكتبة المعهد العلمى بلندن وتم اللقاء ، وأبلغه سير (همفرى) قراره بتعيين (فاراداى) مساعداً فى المختبر (المعمل) التابع للمعهد .

وسعد بذلك ، وبدأ عمله الجديد الذى إقتصر فى بادئ الأمر على غسل أنابيب الإختبار وتنظيف المعمل لكنه كان يتابع عن كثب ما يجرى من تجارب علمية بالمعمل تحت إشراف العالم سير (همفرى) .

وكسب (فاراداى) ثقه أستاذه الذى بدأ يعهد إليه بإجراء بعض التجارب الدقيقة التى كان يقوم هو بها فى المعمل .

كما كان (فاراداى) مرافقاً لسير (همفرى) فى جولة علمية قام بها فى عدد من دول أوروبا إستغرقت حوالى العام تم خلالها زيارة المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية ، وشهد مئات التجارب العلمية كما أتيح له أن يلقى عدداً من المحاضرات عن كشوفه الخاصة ، وإستمع له كثيرون من المثقفين والمهتمين بالعلم وخاصة فى مجال الكهرباء .

وإهتمت بعض المجلات العلمية بنشر عدد من أبحاثه بينها ما تناول (الجير) الكاوى . وتجاربه عن الغازات والمعادن كما نشرت له جانباً من بحثه فى مجال التحليل الكهربى ونظريته التى عرفت بإسمه فى هذا المجال .

وذاع صيت (ميشيل فاراداى) عام ١٨٢١ لما صمم أول (موتور) كهربى ، وكان غاية فى البساطة : عبارة عن قضيب من النحاس يتردد بفعل تيار كهربى تغذيه بطارية كهربية .

وكان هذا (الموتور) إيذاناً بعصر الكهرباء العملى ، وسجل (فاراداى) بذلك أنه أول إنسان يطوع ويوظف الكهرباء ، وبرغم بساطة فكرة ذلك (الموتور) فقد إعتبر إختراعاً عظيماً فى مجال الكهرباء ؛ إذ تم بعد ذلك تطوير فكرة ذلك (الموتور) وأصبح نواة لكل (الموتورات) الضخمة الحديثة التى تدور فى مصانع العالم الآن ! .

وجذب (فارادى) إهتمام الأوساط العلمية فى العالم ، وفى عام ١٨٢٤ عُين أستاذاً بالمعهد العلمى الملكى فى لندن .

وهكذا أصبح (فاراداى) الذى بدأ حياته عاملاً فقيراً لدى بائع صحف من أعظم علماء عصره ، إذ إنتخب زميلاً فى الجامعة الملكية كما ألقى سلسلة من المحاضرات عن الفلسفة الكيمياوية ، ونشر أبحاثاً أخرى عن المغناطيسية ؛ كذلك كتب ١٥٨ بحثاً علمياً عن تجاربه الدقيقة فى الكهرباء والمغناطيسية الكهربية ، ثم قدم بحثين آخرين :

أحدهما عن سريان الكهرباء وهو الذى بنى على أساسه نظام التليفون الحديث .

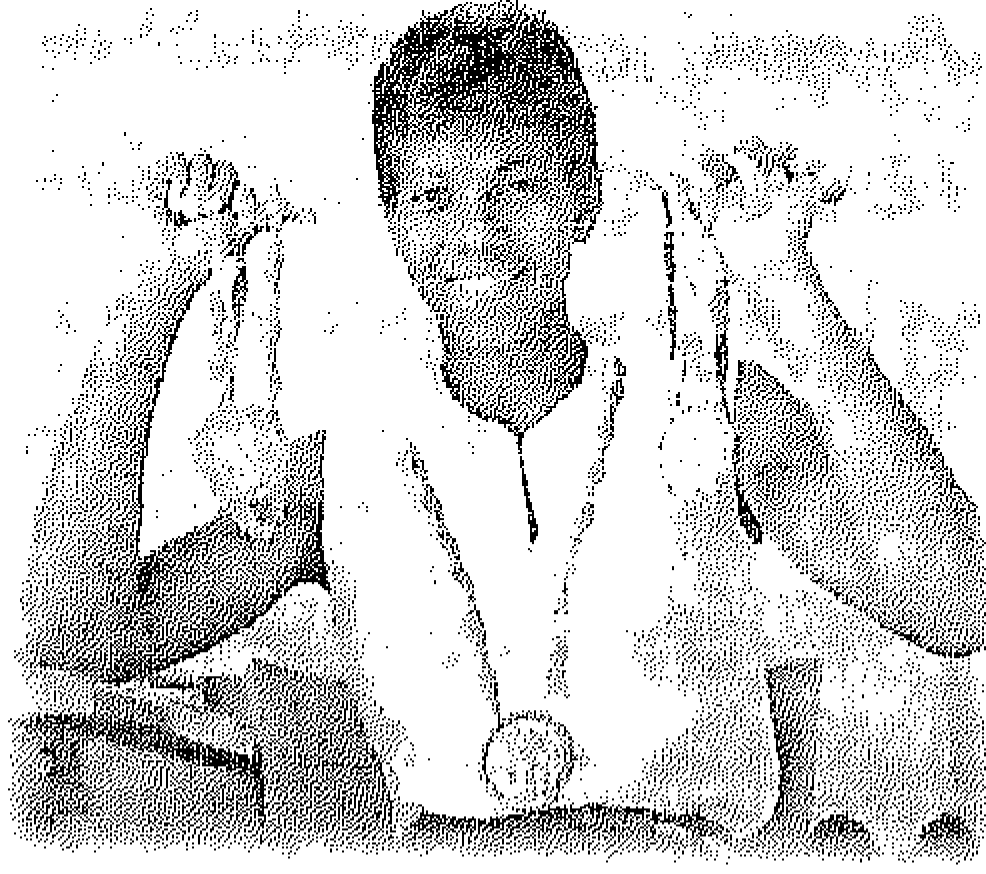
والآخر هو الخاص بإثبات إختلاف أنواع الكهرباء .

كما كان لإستخدام (فاراداى) للكهرباء تأثير جذرى فى عالم الإنتاج الصناعى ، إذ بدلاً من أن يستخدم الكهرباء فى إنتاج الحركة أو الطاقة الميكانيكية ـ إستخدم هو الحركة لإنتاج الكهرباء مبتدئاً ذلك بإستخدام مغناطيس عادى عبارة عن قطعة معدنية لها قوة جذب أنواع أخرى معينة من المعادن . والمعدن المغناطيسى عادة يمكن أن يكون من الصلب أو الحديد أو الكوبالت أو النيكل ، وإختار (فاراداى) الحديد لغرضه .

ولما كانت القوة المغناطيسية للمغناطيس لها مجال غير مرئى محيط بها وجد (فاراداى) أنه يمكن أن ينتج الكهرباء ببساطة بتمرير قطعة من النحاس خلال المجال المغناطيسى ، وذلك بتمريره بسرعة هائلة .

وأعقب (فاراداى) ذلك أبحاثاً متواصلة أضاءت للعالم طريق الكهرباء إلا أن إسمه خُلد ، لأنه الرجل الذى حول الكهرباء إلى طاقة ، وصنع للدنيا أول (موتور) وموَّلد كهربيين .

كما يشعر العالم نحوه بالعرفان ، لأنه الرجل الأول الذى تمكن من حفظ شعاع من الضوء ممهداً الطريق (لتوماس أديسون) بعده بسنوات للتوصل إلى المصباح الكهربى الذى يضئ العالم ليلاً .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٣) ويلما رودولف

العسل الأسود

حين يداهم المرض عزيزاً لدينا وتصطبغ الحياة بلون رمادى - لا يخرجنا من طياته سوى الأمل والرجاء ، وقد يُشفى عزيزنا هبة من القادر على الشفاء بعد أن عجز الطب والدواء ! .

المكان : أحد الأحياء الصناعية ومراكز تعدين حجر النار والفوسفات والزنك والفحم بولاية تنسى الأمريكية ، وبالتحديد حى السود هناك الذين يمثلون غالبية العمالة الكادحة ، والذين تفوحُ منهم رائحة عرق التعب من أجل لقمة العيش وقد إمتزجت هى ورائحة أعماق المناجم المختلطة بعوادم المعادن .

أحد هؤلاء العمال : ويدعى رودلف ، وقد إرتدى الملابس الخاصة بعمله فى المنجم ، ولا تكاد ترى عينيه بسبب الطبقة الكثيفة من العوادم التى غطت وجهه ، فأضفت لوناً رمادياً على بشرته التى خلقها الله - أصلاً - بأضخم جُرعة ملّونة لتكون سوداء تماماً تتحمل بقوة الظروف القاسية لحياة أعماق المناجم .

إختلس رودلف بضع دقائق ، ليحكى بتأثر بالغ لأحد زملائه بالمنجم عن وليدته " **ويلما** " التى رُزقها منذ يوم ، فأصبح ماله من البنين والبنات ثمانية ! . وأفصح لزميله عن شكه فى أن تبقى " ويلما " على قيد الحياة ، إذ إن وزنها لا يتجاوز " كيلو جرامين " ؛ كما أنها هزيلة للغاية ! . وأسرى أيضاً لزميله عن مشاعره تجاه زوجته التى يخشى عليها الحزن إذا توفيت الوليدة .

مرت الأيام والليالى بعد مولد " ويلما " والهزال رفيق لها ، لكنها ظلت على قيد الحياة ! . وترقبتها الأم مع كل يوم بكل العناية التى تستطيعها أم لثمانية صغار ، وبكل إمكانات الأب الكادح فى عمق المناجم .

وزال الخطر عن " أولما " وبدأت تنمو ببطء ، ولما بلغت الرابعة من عمرها بدأت تحبو ، وفرح الأبوان بهذا التقدم ! . غير أن " أولما " أصيبت بالحمى القرمزية وبإلتهاب رئوى مضاعف ، وتعرضت لخطر الموت لمدة ليست قصيرة .

ولما بدأت أخيراً تجتاز الخطر كانت قد دفعت ثمناً فادحاً لعبورها خط الخطر ، فقد أصيبت ساقها اليسرى بالشلل ! . كانت صدمة كبيرة للوالدين وللإخوة والأخوات أن تصاب " ويلما " بالشلل بعد أن أبقاها الله على قيد الحياة من خطورة الموت مرتين ! .

ولم يوهن ذلك عزيمة الأم الصابرة ، ولم يفتر إيمانها بالله ، فلفّت الأم طفلتها العليلة فى غطاء صوفى ، وحملتها فى السيارة العامة إلى كلية الطب " ميهارى " فى ناشفيل التى تبعد بنحو ٧٠ كيلو متر من بيتها .. وهناك فحص المتخصصون الطفلة فحصاً شاملاً ، ثم أبلغوا الأم الكسيرة أن علاج الطفلة سيكون بالتدليك اليومى لعدة أعوام متصلة عسى أن يعيد ذلك للساق حركتها الطبيعية ! .

وطوال العامين التاليين ظلت الأم تنطلق مرة كل أسبوع لتقطع مسافة ١٤٠ كيلو متر إلى المستشفى ذهاباً وإياباً ، أما فى الأيام الستة الأخرى فكانت تحرص على تدليك الساق الصغيرة العاجزة .

وبعد مرور عام إكتشف الأطباء تحسناً طفيفاً فى مرونة العضلات ، وبدأت الأم تقوم بمساعدة أبنائها فى إجراء عملية تدليك " لويلما " أربع مرات يومياً ، والأم تردد بثقة المؤمن : " سوف تمشى ! " . وبعد مرور عامين على العلاج والتدليك تقدمت حالة ويلما وإستطاعت أن تحجل مسافات قصيرة وإن كانت ساقها لا تزال معوجة ، ثم إستطاعت بعد ذلك أن تسير بطوق حديدى فى ساقها ، ثم إستبدل الأطباء بالطوق فردة حذاء عالية صنعت خصيصاً للقدم اليسرى .

وإلتحقت " ويلما " بالمدرسة ، وبدأت تسير إليها بمفردها وهى تشعر بسعادة غامرة ، وكان شقيقها " وستلى " قد أحضر كرة سلة ، وعلق سلة على أحد الأعمدة فى فناء المنزل ، وكانت دهشة الجميع لما شاركته فى اللعب بحماسة شديدة ، وكانت تجرى بالكرة متجاهلة الحذاء الطبى الثقيل ، وكانت تلقى بالكرة فى السلة وهى تقفز فى الهواء وفى أثناء فترة الراحة كانت تستمر هى فى اللعب ، وكانت تقول لأمها : " إننى أعوض كل اللعب الذى فاتنى ! .

ثم فوجئت الأم بالإبنـة تقفز تحت السلة حافية القدمين ، فقد إستغنت عن الحذاء ! .

وعندما إلتحقت " ويلما " بمدرسة بيرت الثانوية كان عمرها ١٣ عاماً ، وإستمرت تمارس هوايتها فى لعب كرة السلة ، وفى أثناء لعبها بحماس فى إحدى مباريات المدرسة إصطدمت هى والمدرب " كلينتون جراى " الذى كان يحكم المباراة ، وصاح المدرب غاضباً : " إنك تطنين حولى كالبعوضة فى كل مكان أذهب إليه ! " . وإشتهرت يومها بلقب البعوضة ... ولما بدأ المدرب جراى فى تدريب البنات على رياضة العدو ، ورأى " البعوضة " وهى تجرى لم يصدق نفسه وهو يحملق فى الساعة ليحسب الوقت ! .

وسرعان ما برزت ويلما فى سباقات المسافات القصيرة المتنوعة ، وواتتها الفرصة لما إختيرت ضمن أربع فتيات أخريات للإلتحاق بالجامعة نظير تفوقهن الرياضى بالرغم من عدم إجتيازهن إمتحان نهاية الدراسة الثانوية الذى لم يحن موعده بعد .. وإستطاعت البطلة الصغيرة أن تحقق هى وزميلاتها الثلاث بطولة سباق التتابع على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية كلها .

ولمع نجم " ويلما " وأصبحت بطلة فى نظر الجميع إلا أنها فى داخلها لم تكن مقتنعة بنفسها بأنها تستطيع أن تعدو ببراعة كفتيات الجامعة ، وفهمت أمها أزمتها وقالت لها : " يبدو أنكِ لا تستطيعين ، ولكن يجب ألا تفكرى فى أنك لا تستطيعين ، عليك أن تنسى كل شئ إلا أن تحاولى ! " .

وإستطاعت بتشجيع أمها وبتوجيه مدربها أن تتدرب وتتدرب حتى أصبحت نموذجاً يحتذى لممارسة العدو .. وكانت " ويلما " إلى جانب زميلاتها الثلاث " مارثا هدسون " و " بربارا جونز " و " لوسنيدا ويليامز " يعتبرن أسرع أربع فتيات بين العداءات ، ومع ذلك فإن الثلاث الأخريات كن يهزمنها فى المسابقات الفردية التى كانت تجرى بينهن وكان الجميع يتعجب لذلك ، ولكن السر إنكشف لما أجريت لويلما عملية جراحية بسيطة لإستئصال اللوزتين المحتقنتين وقال الطبيب : " إن هاتين اللوزتين الملتهبتين كانتا توهنان قلبها منذ سنوات " .

وبعد ثلاثة أسابيع عادت " ويلما " إلى ميدان السباق فى صحة تامة لأول مرة فى حياتها ، ففازت ببطولة شيكاغو للعدو عام ١٩٦٠ ، وحطمت الرقم القياسى لسباق مسافة ٢٠٠ متر ، وفى مباريات التصفية لتشكيل الفريق

الأمريكى للدورة الأوليمبية كانت " ويلما " ضمن فريق " تبجربيل " الفائز بتمثيل الولايات المتحدة فى الدورة الأولومبية بروما وفى أثناء مباريات العدو بالدورة الأولومبية بروما (١٩٦٠ م) حبس آلاف المتفرجين أنفاسهم لما أتخذت الفرق الست المتنافسة مراكزها إستعداداً لسباق العدو فى الدور النهائى فى السباق الأولومبى للنساء لمسافة ٤٠٠ متر تتابع ، وحدقت العيون وشخصت تجاه الفتاة السمراء الرشيقة بنت العشرين ربيعاً وهى تعدو كالريح ! .

وكانت جماهير المتفرجين فى دورة روما تعرفها جيداً : " ويلما رودولف " الطالبة بجامعة تنسى التى فازت من قبل فى سباق المسافات القصيرة لمسافة ١٠٠ متر و ٢٠٠ متر ، كما أنها أدت دوراً كبيراً فى تسجيل رقم قياسى عالمى جديد فى سباق الدور قبل النهائى للتتابع .

وتعلقت العيون بالعداءة السمراء بعد أن إنطلق المسدس إشارة ببدء سباق الـ ٤٠٠ متر تتابع ، وإندفعت " ويلما " بين المتسابقات المرحلة الأولى من نقطة البداية للسباق ، وأخذن فى العدو لتسليم العصى لفتيات المرحلة الثانية ، ليسلمنها بدورهن إلى متسابقات المرحلة الثالثة .

وإنطلقت " لوسيندا ويليامز " فى مقدمة السباق تعدو بسرعة البرق متجهة نحو " ويلما " ، وتوقفت أنفاس الجمهور فجأة لما إضطربت العصا فى يد " لوسيندا " وكان على " ويلما " ان تتوقف لتلتقطها .

وأتاح هذا " لجوتاهاين " الألمانية أن تتقدم عليها خطوتين ، ولكن خطوات " ويلما " الساحرة أخذت تضيق الفارق بينهما فلحقت بالألمانية ، ثم تجاوزتها حتى بلغت نقطة النهاية محققة الفوز الكبير ! . فمنحها النقاد الرياضيون فى أوروبا لقب " رياضية العام " ! . كما عرفت بإسم " العسل الأسود " .

وأقيمت الإحتفالات فى الولايات المتحدة للبطلة الكبيرة ، ولمع إسمها فى أوروبا وأمريكا والعالم كبطلة دولية للعدو ، لكن قلة من الناس من يعرف أن هذه البطلة الرياضية التى تسابق ساقاها الريح كانت كسيحاً ! .

ولكن الإيمان وقوة الأمل والمثابرة الجادة ـ كل هذا يحقق ما يكاد يكون من المستحيل ! .

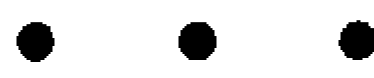
شخصيات لا تنسى ..

(٢٤) مارى موفات

تحت شجرة الباوباب

لم تكن السيدة الإنجليزية المقيمة فى (جنوب أفريقيا) سعيدة فى ذلك اليوم كباقى السيدات : فبعد أيام سيحتفل البريطانيون فى كل بلاد العالم بعيد الميلاد ، أما " **مسز موفات** " فقد كان العيد بالنسبة لها فى تلك السنة عبئاً ثقيلاً : فالأطفال يسألونها فى كل مساء : هل أبوهم سيأتى الليلة أو سيغيب يوماً آخر ؟ . فتجيبهم والدموع فى عينيها : إنه سيعود يوماً ما ، ومتى جاء فسيحُضر لكم الهدايا ، وسيقص عليكم أجمل الحكايات ، وستقضون معه أطيب الساعات . وسيكون هذا عيداً سعيداً لأسرتنا الصغيرة .

والحقيقة أنها لم تكن واثقة أن ترى زوجها فكثيراً ما إنقطعت عنها أخباره لشهور طويلة ، ولم تكن تعلم أحياناً : هل هو على قيد الحياة أو أنه رحل من هذه الدنيا ؟ . لكنها كانت دائماً تحاول أن تخفى عن أبنائها ما تحس به من الوحشة والقلق ، وتسرف فى العناية بهم قدر ما تستطيع . فإذا خلت بنفسها ركعت تصلى من أجل حياة زوجها المحفوفة بالمخاطر . وتدعو الله له وتسأله العناية به ، ثم تغمض عينيها كل مساء على أمل اللقاء وجمع شمل الأسرة الواحدة ! .



ومرت السنوات ، وأصبح الأطفال يدركون الحقائق ، ويشاركون الأم فى وحشتها وقلقها وحنينها للرجل الذى كان يعيش بعيداً فى عمق القارة الأفريقية .

غير أن " مارى " الفتاة الصغيرة كانت أكثر الجميع تأثراً بغياب والدها ، ذلك الغياب الذى حاولت عبثاً أن تجد له تفسيراً معقولاً ؛ فقليلاً ما صرحت لأمها بخواطرها ، وكثيراً ما إنصرفت إلى تفكير صامت عميق دون أن تصل إلى إجابة شافية ، لكنها كانت تتقاسم هى وشقيقها الحيرة حول ذلك الأب الذى إختار أن يبعد عن أسرته تلك السنوات الطوال ، ويسأل كل منهما الآخر : أما كان هناك

فـى كل إنجلتـرا عمـلٌ مناسـبٌ لأبينـا ؟ . ولمـاذا هـو دون غيـره مـن الآبـاء يعـيش غريباً شريداً بلا زوجة وأولاد ؟ .

ولم يتسع عقل الأطفال ؛ ليدرك معانى بعض الكلمات التى كانت ترددها الأم ، غيـر أنهـم حفظـوا عـن ظهـر قلـب أن والـدهم يعـيش مـع " البوشـمان " و " الهتنتوت " .

ولا يعلم أحد مقدار ما لحق بالصغيرة " مارى " من آلام طاحنة حين خلت بها واحدة من بنات الجيران ، ففسرت لها بعض ما غمض عليها ، فقالت لها : إن البوشمان قوم من المتوحشين وأنصاف المتوحشين الذين يعيشون على الصيد وأكل اللحوم ! . وكيف أنهم يرسلون سهامهم وحرابهم المسمومة إلى قلب فرائسهم من الحيوانات أو الغرباء ؟ .

وأسرفت الفتاة فى سرد كثير من المعلومات عن البوشمان والهتنتوت ، وطبولهم التى يصنعونها من جلد ضحاياهم ، وعن آوانيهم التى يصنعونها من جماجم من يقع فى أيديهم من الرجال البيض ! . إلى آخر هذه الروايات التى أرعبت الصغيرة ، وملأت قلبها خوفاً وقلقاً على أبيها ! .

ولم تطق " مارى موفات " أن تحبس مخاوفها فى داخلها ، فإتجهت إلى أمها وقد ضاقت بها الدنيا ، فإنخرطت فى البكاء وسألت أمها : متى سنعود إلى بلادنا البعيدة ؟ .

وإحتضنتها الأم فى حنان ، وإبتسمت وهى تربت على ظهرها قائلة : لا نعلم يا بُنَيَتِى لكنك أصبحت عروساً ، ومتى جاءت (عريسك) فستذهبين معه إلى حيث تريدان ؛ كما أتيت أنا مع أبيكم إلى هنا .

وإقتنعت الطفلة البريئة ، أو وجدت فى كلام أمها أملاً أفضل من لا شئ ! . فغداً سيأتى أحد النبلاء الإنجليز ليتزوجها ؛ لتعيش معه فى بلادها الآمنة .

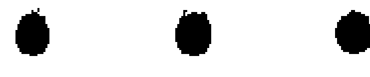
هكذا حدثت نفسها وهى ترقد فى أحضان أمها .

• • •

ومرت الأيام ...

وجاء الشاب الإنجليزى النبيل يخطب " **مارى موفات** " ، ولكن هذا الشاب لم

يكن سوى " **داڤيد لڤنجستون** " الذى عاد بعروسه إلى أعماق أفريقيا ! .



ولم تتردد " ماری " هذه المرة ، ولم تخف ؛ فقد كانت واثقة أن هذا الزواج لم يكن إختياراً شخصياً ، لكنه كان ترتيباً إلهياً ، وأيقنت مع الأيام أن الله قد أعدها إعداداً خاصاً للعمل إلى جانب هذا الزوج النبيل ، وأن أى واحدة أخرى ما كانت تستطيع أن تعيش هذه الحياة الخاصة ...

• البيت المتواضع :

وإنتقلت مارى بعد الزواج من (كورمان) حيث كانت تعيش مع والديها إلى (كولونج) على رأس جماعة من الأفريقيين الذين رحلوا هروباً من الجفاف ، وهذا يعنى أنها إنتقلت إلى مكان أعمق فى قلب القارة :

فبعد أن كانت تبعد عن الساحل مسافة ٧٠٠ ميل أصبحت الآن تبعد عنه بما يقرب من ١٠٠٠ ميل ، ولم يكن هذا سوى أول الطريق الطويل ! .

ففى الموقع الجديد الذى إستقرت فيه الزوجة الشابة مع زوجها الطبيب وأصدقائه من قبيلة الباكوينا BAKWINA - بدأت العروس الصغيرة تبنى بيتها السعيد .

كان " الباكوينا " المحيطون يبنون بيوتهم من فروع الأشجار وقطع الأخشاب اللينة بعد تثبيتها فى الأرض وثنى أطرافها العليا قليلاً نحو الداخل ، وربطها بسيور من الجلد ، لتأخذ شكل نصف كرة ، على حين تطلى أرضية الكوخ بخليط من الدم وروث الماشية ، ويفرش البيت المستدير بحصر من الحلفا .

وكان على العروس أن تقيم فى بيت من هذا النوع مع صعوبة الحياة فيه ! . فالناس لم يكونوا يعرفون سوى هذا النوع من المساكن الخشنة . وهنا كان على الزوجة الصغيرة أن تبنى مع زوجها بيتاً مختلفاً تصنعه بيديها . ولا تنسى كيف كان الرجال يضحكون ويتندرون بهما وهما يصنعان قوالب الطين ويبنيان بيوتاً مربعة الشكل لها أبواب وبها شبابيك ! .

لقد كانت الزوجة صبوراً مكافحة ، قنوعاً وراضية .

ولكن هذه البيوت المتواضعة التى بنتها مع زوجها وسعدت بالإقامة فيها - لم تدم كثيراً ؛ فقد سطا عليها أوروبيون أخرون ! . ليقيم فيها من لم يتعب فى إعدادها أو ليحرقوها بما فيها من فراش ومستلزمات الحياة الضرورية ! . وكان البيت الذى بناه فيه كولونج هو آخر بيت لهما معاً ؛ فبعد تلك الليلة التى أجبرا فيها على تركه لم يتحقق لهما حلم العمر فى بيت آخر .

• الحياة اليومية السامية :

على أن حياة " مارى لڤنجستون " الزوجة المحبة الصبور لم تكن حياةً عاطلة ، ولم تكن المهام الموكولة إليها تماثل جاراتها من الأفريقيات ؛ فقد كان عليها أن تشارك زوجها فى تعليم الشباب الناشئين وتثقيفهم ، وتعليم الفتيات والسيدات المهارات المنزلية والحياكة ، ثم زيارة المريضات وتقديم الأدوية والمساعدات . وإلى جانب ذلك كله فإنها تصنع الصابون والشموع وتمارس حياكة الملابس وتشوى الخبز على الحصى الساخن ! .

• حياة فقيرة لكنها مثيرة :

كانت حياة " مارى لڤنجستون " فقيرة للغاية ؛ فما كان يصل إلى يد زوجها من المال لا يكفى حياةً كريمة ، وكان ما يحتاج إليه الزوج لتغطية نفقات رحلاته الكشفية يستنفد كل ما بيدها .

ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن الزوج المكافح الذى بذل حياته لإكتشاف قلب أفريقيا تسلم بعد كل هذا العناء مكافأة مادية من الجمعية الجغرافية مقدارها خمسة وعشرون جنيهاً ! .

وقد ظهرت عظمة " مارى لڤنجستون " فى تدبير شئونها المالية ومواردها الضئيلة لنفقات جهاد الزوج ، لكن عظمتها ظهرت أكثر حين شوهدت فى مرات عديدة وهى تحمل خبز يومها وقوت أطفالها لتقدمه إلى سيدة مريضة أو لرجل مسن ؛ إذ لم يكن من عادة رجال القبائل أن يهتموا بالمريض والمسن بل كان نصيبهما الإهمال حتى الموت ! .

وما أكثر الحوادث المثيرة فى حياة الزوجة القوية ! . فهى تذكر اليوم حين شاهدت الرجال يحملون زميلهم " ميبالوى " بعد أن نهش الأسد فخذه ، فأسرعت

السيدة نحوه فى قلق شديد ، فأخبرها الناس أن الرجل تعرض للخطر وهو يدفع الأسد عن زوجها الذى فقد ذراعه أيضاً ! .

ولا ينسى الزوج كيف كانت الزوجة المريضة تسهر الليل لعلاج أولادها الذين دهمتهم جميعاً الحمى حين كانت العائلة تشارك فى إحدى الرحلات الكشفية ؟ والحقيقة أنهم ما كانوا لينجوا من الموت لولا عناية الله بهم وتضحية الزوجة الخادمة الوفية .

• وأفترق الأحباء :

ومع الصعوبات والأهوال التى عانت منها " مارى لڤنجستون " فإنها كانت سعيدة لكونها على مقربة من الزوج المكافح تسنده وترعاه ، لكن الوقت جاء ليفترقا إلى حين ؛ فقد كان من الصعب أن يجمع الرجل بين حرية الحركة والزوجة والأولاد ، وكم بكت الزوجة بحرارة وهى تترك زوجها وهو يعد العدة لرحلة (إكتشاف نهر الزمبيزى الشهيرة) ! . على حين إتجهت هى وأولادها إلى إنجلترا ، بكت الزوجة وهى تملأ عينيها من رجُلها العظيم ، وتذكرت وجه أمها القلق أيام كانت هى طفلة وكان أبوها يترك البيت فى رحلات كثيرة غير آمنة .

وتحمّل الزوج آلاماً نفسية مضنية ؛ فقد كان من الصعب عليه أن يدفع ثمن خدمته من حقه فى الحياة إلى جانب الزوجة والأولاد . وتحملت الزوجة آلاماً طائلة وهى تقوم بدور الأم والأب معاً ، وتعلل أولادها ؛ كما كانت أمها تفعل معها وهى بعد طفلة صغيرة ، وإستمر الفراق أربع سنوات طوال ! .

فى هذه السنوات تعرضت حياة " لڤنجستون " للموت المحقق حتى أصبح جسده أشبه بهيكل عظمى تغطيه خرق بالية ، وسجل صلاته التى قال فيها :

" يا إلهى ، إنى أسلم طريقى لك ، وأثق أنك سوف تهدى خطواتى ، أنت تعطى الحكمة بسخاء كلَّ من يطلب منك ، فأعطنى إياها . إن عائلتى ملك لك ومحفوظة عندك وأنا أستودعها بين يديك ، إننى أرتمى على ذراعيك الرحيمتين فلا تتركنى ولا تنسنى " .

وكانت الزوجة على الجانب الآخر تصلى أن يحفظ الله زوجها ، وأن يرده إلى بيته وأولاده سالماً .

وحقق الله لهما السلامة ، فإجتمعت العائلة فى موطنها (فى إنجلترا) بعد فراق طويل ، لكن هذا اللقاء كان اللقاء الأخير للعائلة كلها : الأب والأم والأولاد الذين أحبهم .

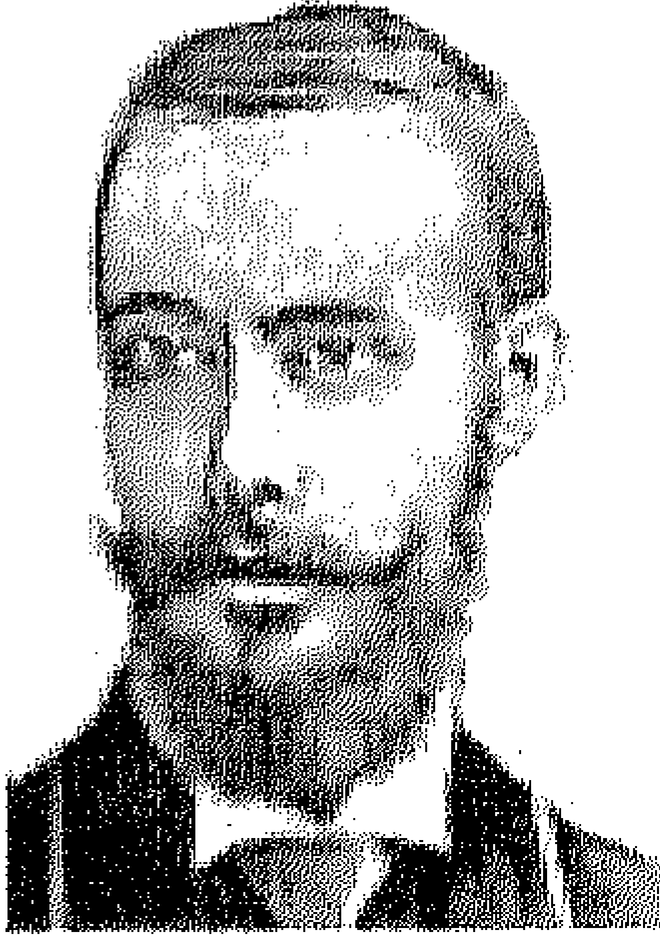
وحين عاد " لفنجستون " إلى قلب أفريقيا ؛ ليكمل إكتشاف نهر الزمبيزى ، ويلتقى هو وأحبائه من قبيلة " ماكولولو " - ظلت مارى تتنقل بين أفريقيا لتلقى زوجها وأسكتلندا لترعى أولادها ! . وفى كلا الموقفين كان تحس بالوحدة والوحشة والحنين الشديد .

إلى أن جاء عام ١٨٦٢ بعد ١٨ سنة من زواجها ، فسافرت لتكون مع الزوج على ظهر الباخرة الصغيرة التى كان سيعبر بها الزمبيزى الذى إكتشفه .

كان الزوج سعيداً ، وكانت الزوجة مبتهجة لذلك ؛ فقد عادت إليها أحلام الصبا ، وأحست أن الوقت قد حان لبناء بيت جميل على شاطئ نياسا المشرق بعد أن أطمأنت على مستقبل وحياة أولادها وإستقرارهم فى بلادهم ، وأخذت تدعو الله أن تكون معينة ومشجعة لزوجها العظيم .

لكن الحلم السعيد لم يتحقق : ففى أيام قليلة كانت " مارى لفنجستون " قد إنتقلت من عالم العذاب والفراق بعد مرض قصير وهى تردد إسم إبنتها " نيس " التى كانت تخشى عليها الحياة بعيداً عن أحضان الأم ! .

ومرت السنون ، ومات " لفنجستون " ، فأكرمه العالم ، ودُفن فى مقابر العظماء ، لكن الناس جميعاً نسوا " مارى " الزوجة الصبور المكافحة التى يرقد جسدها تحت شجرة الباوباب فى قرية شوبنجة .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٦) فرانسز طومسون

الطريد

المكان : مدينة " بريستون " بمقاطعة " لانكشير " ببريطانيا .

الزمان : شهركانون أول (ديسمبر) ١٨٥٩ م بعد أن مرت بضع سنوات على زواج الطبيب " تشارلز طومسون " من " مارى تيريز " رُزقا طفلاً أضاف سعادة لحياتهما العائلية .

وعنى الوالدان بإبنهما " فرانسز " عناية الأب الطبيب ، والأم المكرسة وقتها لبيتها ووليدها .

ومرت السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل هادئة توسم خلالها الأبوان الشابان فى إبنهما ذكاءً يفوق مستوى الطفل العادى فى مثل عمره ، فقررا أن يعداه للخدمة الدينية فى كلية " أوشاو " حيث يلتحق الطلاب بذلك المعهد الدينى منذ حداثة عمرهم .

ولما بلغ الإبن العاشرة من عمره إلتحق بكلية " أوشاو " وكان طفلاً مفكراً شديد الحساسية . وأظهر الصبى تفوقاً ملحوظاً فى دراسته اليونانية واللاتينية أسترعت نظر أساتذته الذين توقعوا له مستقبلاً نابها فى تخصصه .

غير أن نوبات من الضعف الصحى كانت تنتاب الصبى " فرانسز " فى فترات متباعدة ، فيضطر أن يتغيب عن قاعة الدرس ، ويلجأ إلى فراشه بالقسم الداخلى بالكلية ، مما حرمه متابعة الدروس . وأصبحت السمة العامة لهذا الطالب النجيب هى الذكاء المفرط والضعف البدنى الزائد الذى هدد دراسته بالتوقف إلى أن فقدَ قدرته على المتابعة الدراسية .

وإستدعاه عميد الكلية ، وأبلغه آسفاً أنه لا يمكن إستمرار إلتحاقه بهذا المعهد لكثرة التغيب وإعتلال صحتـه ، وأنه من الأفضل العودة إلى منزله ، إذ إن إقامته

بين طلاب الكلية لن توفر له الرعاية اللازمة . وجمع " فرانسز " كتبه وأشياءه الصغيرة وودع زملاءه وأساتذته وهو كسيف البال ، وعاد إلى منزله حيث شدد الوالدان عنايتهما به فى أثناء فترة علاجه .

وفكر الوالدان فى مستقبل إبنهما ، وقرر الوالد الطبيب أن يصير إبنه مثله ، ورحبت الأم بالفكرة التى لم تَرُقْ لفرانسز ، لكنه أذعن لرغبتهما ، وإلتحق بكلية " أون " للطب فى مدينة " مانشستر " . وفى هذه الكلية الجديدة تكررت فصول مأساة كلية " أوشاو " من نوبات ضعف شديدة ترغمه على الإحجام عن حضور المحاضرات .

ولما بلغ من العمر ٢١ عاماً توفيت والدته ، وكانت قد أهدت له قبيل وفاتها كتاب " إعرافات مدمن " للكاتب الإنجليزى " دى كونيس " وكان لهذا الكتاب تأثيرٌ سلبىٌ على فرانسز ، إذ بدأ هو يتعاطى الأفيون ! . وكانت نتيجة ضعفه الجسمانى الذى زاد تفاقماً ، بالإضافة إلى إكتشاف إدراة الكلية لتعاطيه الأفيون .. كانت نتيجة ذلك أن وجد نفسه خارج أبواب مدرسة الطب ! .

وعاد " فرانسز " مرة أخرى إلى بيت أبيه ، وصُدم الأب فى إبنه الذى تحول إلى مدمن للأفيون ، ووجد الأب نفسه ينفق أمواله على علاج الإبن من ضعفه الصحى على حين لا يحرص " فرانسز " نفسه على صحته بإستمراره فى تعاطى ذلك المخدر ! . وتعرضت موارد الأب المالية للتناقص ، فحاول أن يلحق إبنه بالعمل بأحد المصانع ، ولكن الإبن أخفق فى المواظبة على الذهاب لعمله ، وإندفع فى تعاطى المخدر ! .

وفى يوم لاحظ الأب إحتقاناً شديداً فى عينى إبنه ، وإنتفاخاً وتورداً فى وجهه ، فلم يشك فى أن هذه هى أعراض التسمم الناجم عن إدمان الأفيون ، وعالجه الأب ، لكن حياتهما معاً كانت مليئة بالمناقشات حول محاولات الأب تنحية إبنه عن تعاطى المخدر ، وإنتهت هذه المحاولات بهرب الإبن من بيت والده ! .

وإتجه " فرانسز " إلى لندن (فى عام ١٨٨٥) حيث بدأ يبحث عن عمل يعيش منه ولما لم تكلل كل محاولاته بالنجاح إضطر للعمل بائعاً للصحف بعض الوقت ، وأن يحمل فوق كتفه صندوقاً لمسح الأحذية فى وقت آخر ، كما حاول أن يعمل فى تجارة بيع بضع علب من أعواد الثقاب ، أو أن يقف على أبواب المسارح وقت خروج الرواد ، ليستحضر لهم عربة للركوب .

وشعر " فرانسز " بألم " التشرد " وألم المرض والحرمان من حنان حياة الأسرة ، فضلاً عن ألم عدم الإستقرار فى عمل ما وخصوصاً وقت إشتداد برودة الشتاء .

وحدث أن رآه " ماك ماستر " وهو صاحب مصنع لصناعة الأحذية إعتاد أن يستخدم فى مصنعه أشخاصاً من المشردين الذين لفظهم المجتمع ليهب لهم فرصة جديدة فى الحياة ! . وإصطحبه الرجل معه إلى مصنعه ، وعهد إليه ببعض شئونه ، ولكن " فرانسز " أثبت عدم جدارة فى ذلك ، إذ لم يكن فى مقدوره أن يبيع أو يشترى ، وكثيراً ما كان يخطئ فى تسليم البضائع للمشترين ، إلا أنه أثار إعجاب صاحب المصنع لدماثه خلقه فى تعامله مع الآخرين ؛ كما أنه كان أميناً طيب المعشر .

وعرف الرجل حقيقة ظروف " فرانسز " وخلافه مع والده ، فسعى إلى والده ، لكى يعيده إلى البيت ، ورحب " فرانسز " بالفكرة . ولم يستقبله والده بالفرح ، بل وجد والده زوجاً لإمرأة أخرى ، مما جدد له أحزانه لوفاة أمه ، وخصوصاً أن زوجة أبيه هذه حاولت أن توغر صدر أبيه ضده ! .. فغادر " فرانسز " بيت أبيه هذه المرة فى إنكسار وبغير رجعة .. ! .

ورجع مرة أخرى إلى المصنع ، لكنه أخفق فى أداء واجباته ، مما إضطر صاحب المصنع للإستغناء عنه ! . وهكذا عاد مرة أخرى إلى التخبط فى الطرقات والحانات ومصاحبة المجرمين ! .

ووسط هذا الجفاف العاطفى والروحى الذى عاشه " فرانسز " فى لندن وجد إرتواءً من نوع خاص ، يذكره بتفوقه فى المعهد الدينى فى مطلع صباه ، وهذا الإرتواء كان هو المكتبات العامة وقرأ " فرانسز " كل ما كان يقع تحت يديه من كتب ، وإتسعت آفاق معلوماته ، وعمقت معارفه ، وتبلورت قراءاته ودراساته فى أشعاره التى كان يسطرها تذكيها آلام الجوع والظلام " والتشرد " التى تحمل بين طياتها شاعراً رقيقاً موهوباً ! . وبسبب مظهره المشرد وملابسه المهلهلة نظر إليه عامل الباب فى المكتبة العامة - ذات مرة - وحاول منعه من الدخول ! .

وفكر " فرانسز " أن يرسل بعض أشعاره ومقالاً كان قد كتبه إلى محرر جريدة " إنجلترا المرحة " لكنه إنتظر كثيراً للرد ، لعله يجد فى أشعاره ونشرها مخرجاً لضائقته المستحكمة لكن دون جدوى ! .

ومرت الأيام والأسابيع ، وأتى دور مقال " فرانسز " للقراءة على مكتب محرر الجريدة المذكورة ، وإشتاق المحرر أن يلتقى هو والكاتب الجديد ، فأرسل له الرسالة تلو الأخرى لدعوته ! . وذلك فى الوقت الذى أخفق فيه " فرانسز " أن يتلقى رداً ، وإمتنع عن الذهاب إلى مكتب البريد بسبب يأسه من تلقى أى رد ! .

ورأى المحرر أن ينشر قصيدة لهذا الشاعر الكاتب المجهول ؛ لعل ذلك يمكنه من الإتصال به . **ونجحت المحاولة ! .**

وفى يوم من أيام " نيسان سنة ١٨٨٨ " دخل الساعى إلى حجرة مدير الجريدة ، ليعلن أن شخصاً بالباب يدعى " فرانسز طومسون " يرغب فى مقابلته ، وهتف المدير : " أدخله فوراً " ففتح الباب ، وتطلع المدير فى دهشة بالغة إلى مخلوق مشرد قذر ، تبرز أصابع قدميه من حذائه الضيق البالى ، ويرتدى سترة ممزقة ! . وأشار إليه المدير بالجلوس . وكان حديثاً مقتضباً .

وفى ذلك اليوم عينه وجَدَ الشاب بيت الأب الذى أفتقده ، ولم يجده فى أبيه ، إذ أصطحبه مدير الجريدة إلى منزله حيث عرفه بزوجته الشاعرة " أليس ماتيل " وأولاده ، وأشعروه أنه واحد من هذه الأسرة السعيدة . وهكذا نُقل من حالة " التشرد " إلى عمل صحفى يوافق ميوله ومواهبه ، وكان ذلك بداية الطريق الذى وجد فيه " فرانسز " نفسه ، وأصبح شاعراً معروفاً .

وأعاد " فرانسز " النظر فى حساباته حول حياته ، وكيف إبتعد عن الله بمعاشرة الأردياء من البشر ، وبتعاطى المخدرات ، فثاب إلى رشده الروحى ، وتاب إلى الله عن خطاياه ! .

وقد كان " فرانسز " يُحس على الدوام بانه طريد ، طريد للمحبة الإلهية ، ولهذا المحب السماوى ، الجبار الذى تتبع خطواته ليل نهار ، ليجذبه إليه ، ولم يدعه يستمرئ للنهاية حياة الغواية للطريق المعوج ! .

وقد صور فرانسز نفسه فى قصيدة أسماها " **المطارد السماوى** " وهى تعرف أيضاً " **بتجربة شاعر** " ، ووصفها النقاد بأنها أعظم ما كتب فى الأدب الإنجليزى آن ذاك .

لكم هربت منه ، بالليل والنهـــــــــار !

وكم ضللت عنه ، فى ظلمة السنين !

وكم ظللت أسعى ، فى وحشة القفـــار ،
وفى ضباب دمعى ، وفى صدى الأنين
وقلت على أنسى ، فى خمرة اللـــذات ،
ويستريح قلبى ، بمشــــــرق الآمال

فأغمضت عيونى ، عن كل رعب يأتى ،
لكن رأيت نفسى ، فى حفـرة الضلال

وفجأة سمعت خطوات أقـــــــدام ..
تسعى ، وتسعى خلفى بوقعها الرهيب
وفوقها يدوى ، فى الليل والظـــلام ،
صوت يناجى نفســـى ، بنغم عجيب :

" هل تختفى ، هل تختفى ، عن عين فاحص جوهرك ؟
يا مـن رفضــت إطاعتـــى ، كل المخابئ تظهرك ..
هل تختفى ، هل تختفى ، عـن عيـن عـارف حاجتك ؟
يا مـن رفضـت محبتـى . لا شـئ يشبـــع رغبتك !

" يا أيها الهارب منــى ما مذاق البعد عنى ؟ "
هلا فى البعـد عـذاب وصراع وتمنـــــى !
هل على نفســى تقسو أو على ذاتك تجنـــى
أنا قيثار حياتـــــك أنا أنغام وجــــودك
" أنا ينبوع سلامـــك أنا مفتاح نشيـــدك "

أيهاب الهارب مهلاً	من تظن اليوم نفسك ؟
هل تناسيت شروراً	قد فعلتها بأمسك ؟
مَنذ مخلصٌ فى	حبه يرحم بؤسك ؟
فنزعنا عنك خُبزى	ريثما تسعى إليا
كى تجينا فتراه	ناضجاً بين يديا

وفى هذه الصورة يجرى " فرانسز " ويلهث ، ويواصل الجرى ، وإذا بالمُطارد الإلهى يجرى وراءه ويصل فرانسز طريقه وإذ به يسمع صوتاً رقيقاً يناديه بروح العتاب حيناً ، وبروح التذكير حيناً آخر ، وبين هذا وذاك يسمع صوت الأقدام التى تسعى وراءه ! .

ثم حاول الشاب (فرانسز) أن يصم أذنيه ، ويبتعد محاولاً الهرب ، فيقع صريعاً لتجارب الغواية التى تتركه حطاماً ، ومن خلال حطام شبابه يتطلع الشاب إلى مُطارِدِه ، فإذا به يناديه بصوته الحنون :

أيها الهارب منى	ما مذاق البعد عنى ؟
أفلا فى البعد عذابٌ	وصراع وتمنى ؟
أعَلىَّ نفسك تقسو	أم على ذاتك تجنى ؟

ويسترسل الشاب الشاعر فى رسم صورة العناية الإلهية التى تنتصر فى النهاية فتجذبه إليها بالتوبة ، وأقلع عن تعاطى المخدر .

غير أن صحته لم تتحسن ، وفى صيف عام ١٩٠٧ حل فرانسز ضيفاً على " بلنت " وكان كاتباً وشاعراً ومحرراً بجريدة " إنجلترا المرحة " حيث خصص له كوخاً ريفياً خاصاً ، وبين أحضان الطبيعة قضى الشاعر التائب " فرانسز " أيامه الأخيرة راقداً على سرير صغير لم يمنعه من الإستمرار فى كتابة شعره وغالبية ما كتب عن علاقة الإنسان بربه ، وقد أطلق على نفسه : شاعر الرجوع لله ! .

وفى شهر تشرين ثان (نوفمبر) ١٩٠٧ أصيب بنزيف رئوى حاد نُقل على إثره للمستشفى بلندن ، وهناك لفظ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وصفاء نفس ! .

(٢٦) إرفين كيفين

كيف صرت نجماً ؟
من الشارع المظلم إلى أضواء الملاعب

فى عالم الرياضة أبطال صعدوا
وفى عالم الرياضة أبطال هبطوا
وفى الصعود نجاح وسعادة وشهرة
وفى الهبوط إخفاق وتعس ودرسٌ للآخرين !
وعالم الرياضة ملئ بقصص الأبطال والبطلات
الذين ينطبق عليهم : إما الصعود أو الهبوط ! .

• محمد على :

ولعل (محمد على كلاى) الذى حاز لقب أعظم ملاكم فى التاريخ ، والبطل الذى خسر لقبه العالمى كبطل للوزن الثقيل ، وإسترده ٣ مرات - هو النموذج الصارخ لهبوط النجم اللامع ! . وذلك لما غامر بكل أمجاده وإنجازاته وتحدى قدرات غيره ، وإستجاب لنوازع لا تخفى ، فقبلَ وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره أن يلعب مع حامل اللقب (لارى هولمز) ؛ ليخسر بشكل مأساوى فى مشهد حزين كانت له آثار ، وبين هذه الآثار قرار ولاية نيڤادا بسحب رخصة البطل الأسطورى السابق فى اللعب على أرضها .

وقصة محمد على كلاى البطل الأسطورى الهابط يعرفها الجميع ، فقد تعلقت به العيون والقلوب بطلاً لامعاً ، وأصبح قدوة ومعلماً لكثيرين من محترفى وهواة الملاكمة للوزن الثقيل ، ثم هوى النجم ، ولاكته الألسنة ، وإتهمته بالطمع

والغرور ، وأصبح النجم اللامع مبعثاً للشفقة ، فكثيرون منا لم يقو على الإستمرار فى مشاهدته فى آخر مباراة له وهو يقف شبه مخدر يتلقى الضربات المسددة إليه ! .

• ألكسييف :

ومن قصص الهبوط الشهيرة أيضاً قصة أقوى رجل فى العالم ، وبطل وزن فوق الثقيل لرفع الأثقال الذى تحدى الطبيعة ، وقبل أن يشترك فى دورة موسكو الألومبية وعمره ٣٨ عاماً ، وأراد أن يستعرض عضلاته ، ففوت ثقلاً وراء ثقل فى رفعة الخطف إعتزازاً بقوته وبدأ بالرفع من حيث كان يجب أن ينتهى ، فلم يتحرك الثقل من الأرض ، وصُدم الكسييف فى نفسه ؛ إذ وجد نفسه غير قادر على رفع الوزن فى محاولاته الثلاث ، وإضطر للخروج من البطولة منكساً دون أن يرفع كيلو جرام واحداً .

ولم يصدق أحد من جمهور المتفرجين أن هذا هو ألكسييف الذى سبق أن رفع ٢٥٦ كيلو جرام ! .

• نادية كومنشى :

ومن النجمات الصاعدات التى هوت " نادية كومنشى " الرومانية ، النجمة التى تألقت فى دورة مونتريال فى الجمباز ، فقد حاولت فى دورة موسكو أن تكرر ما حققت من إعجاز ، ولكنها وقعت فى مسابقة المتوازى وإختل توازنها فى مسابقة عارضة التوازن ، وإكتفت بالمركز الثانى بعد داڤيدوڤا الروسية .

كثير من القصص فى عالم الرياضة عن سقوط " الأساطير " وذبول زهرات رياضية يانعة وإعتزال وهبوط .

• إرفين كيفين :

أما " إرڤين كيڤين " فهو نموذج آخر !

لم يكتسب " إرڤين " - لاعب كرة السلة العالمى - شهرته الحاليه إلا بعد قصة من التخبط فى متاهات الشارع المظلم للإدمان .

كان وهو دون العاشرة يهوى مشاهدة مباريات كرة السلة ، وتمنى أن يصبح يوماً لاعباً ناجحاً فى هذه الرياضة .

غير أن أصدقاء السوء جذبوه إلى تعاطى المخدرات وعمره أثنا عشر عاماً ! .

ولم يكتف إرفين بالتعاطى بل عمل وهو فى السادسة عشرة من عمره فى صناعة " الهيروين " وهو تلك المادة المخدرة التى تصنع من المورفين ، وبذلك أسهم إرفين فى تقديم ذلك " السم " لكل المتعاطين لهذا المخدر .

وظل " إرفين " على حبه لكرة السلة ، وكان يمارسها فى الشارع ، ثم فى المدرسة العليا فى " سبرنجفيلد " حيث قضى عاماً واحداً قبل أن يلتحق بجامعة فرجينيا فى عام ١٩٦٩ لكن عمره الرياضى فى هذه الجامعة كان قصيراً ؛ إذ أنهكت المخدرات قواه ، ولم يعد قادراً على اللعب بمهارة برغم أنه كان قد ذاع صيته كلاعب ماهر فى عدد من الجامعات الأمريكية ؛ كما أنه عجز عن مواصلة الذهاب لقاعة المحاضرات لتلقى دروسه ، بسبب إغراقه فى تعاطى المخدرات .

وفى إمتحان نصف السنة الأول رسب " إرفين " فى جميع المواد ! .

وإستمر إنحدار " إرفين " فى هوة التعاطى للمخدر إلى أن بلغ حد الإدمان وهو فى العشرين من عمره ، وعاش فى الشارع المظلم مع رفقاء السوء المدمنين مثله نحو خمسة أعوام .

وكان يجتمع فى كل ليلة وبعض أصدقائه لتعاطى المخدرات فى ركن مظلم فى أحد شوارع مدينة " كوينز " ، ومازال بعض هؤلاء الأصدقاء يجتمعون هناك للغرض نفسه على حين ألقى القبض على البعض الآخر بتهمة إرتكاب جرائم متنوعة ، وأودع عدد منهم السجن ! .

وفى سنة ١٩٧٤ دعته جامعة أوكلاهوما للإشتراك فى فريق كرة السلة ، وبدأ التردد يراوده : إنه بدون عمل .. إنه لا يعرف شيئاً عن أوكلاهوما .. ليست لديه الرغبة فى الذهاب ، لكنه فى النهاية قرر الذهاب إلى أوكلاهوما وكان هذا هو أجمل حدث فى حياته ..

كيف .. ؟

كان له زميلٌ فى فريق كرة السلة بالجامعة إسمه " وردل جيفرز " وجد فيه " إرقين " إنساناً آخر بخلاف كل من عرفهم من قبل ، وذات مرة دعا " جيفرز " زميله الجديد " إرقين " للذهاب معه إلى مدينة " توسك " لزيارة أسرته ، وسأله إرقين " عن سبب شعوره بالثقة والأمان الدائم .. فقال له : إنه الإيمان بالله الذى عمل فى حياتى الكثير - وفجأة شعر " إرقين " بحاجته إلى هذا الإيمان بالرغم من الإضطراب الذى عانى منه فى البداية ، ومنذ هذه اللحظة آمن " إرقين " بالله .

يقول " إرقين " : لقد شعرت فعلاً أن الله هو الذى يملأ كل فراغ فى حياة الإنسان ، إن الفراغ الذى حاولت ملأه من قبل بوسائل شتى ولم أستطع ، قد ملأه الله .

وأصبح " إرقين " عضواً فى القطاع الغربى من الجمعية القومية لكرة السلة ، ورفعه الله من الحضيض إلى القمة ، من متعاط للمخدرات إلى نجم كرة السلة ، طاف بالعالم متحدثاً لمئات الآلاف عن الإيمان بالله ، وكيف تخلص من السلبيات التى فى حياته بعد إيمانه ! .

ويقول " إرقين " : إنه حاول أن ينسى اليوم الذى كان يسير فيه فى أحد شوارع مدينة كوينز وفى حافظته بضع مئات من الدولارات ثمناً لمخدرات كان قد باعها ، وفجأة سمع صرخات مخيفة إرتجف لها قلبه ، وكانت هذه الصرخات تنبعث من ست سيارات للشرطة ..

خشى " إرقين " أن تكون متجهة نحوه ، وبدأ يفكر فى كيفية التخلص مما معه من مخدرات ! . إنه لا يستطيع أكلها ! .. ولكن إتجهت السيارات نحو مكان آخر .

وتألق نجم " إرقين " كنجم فى ملاعب كرة السلة ، وبدأ يشعر بوجود الله معه من خلال كل عمل ناجح يقوم به ، وأصبح الآن يتمتع بالأمان والطمأنينة التى كان قد رآها فى زميله من قبل ، وأصبحت لديه آمال عريضة للمستقبل . إنه اليوم شخص جديد .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٧) ريتشارد فاجنر

الذى تألم وقدّم السعادة للآخرين !

هل يمكن أن يذوق الإنسان أنواعاً من العذاب والألم فى حياته ، ثم يبدع العذوبة والرقة ، ويقدم السعادة للآخرين ؟ .

لعل الإجابة العادية تقول : لا ، فكيف يعطى الشئ من ليس له ؟ .

أما حياة هذا الفنان فإنها تقول : عكس المألوف فى هذا المجال ، فقد تألم ذلك الإنسان فوهب للآخرين السعادة ! .

ولد الطفل " **ريتشارد** " فى عام ١٨١٣ ميلادية فى ليبزج بألمانيا ، وقد تفتحت عيناه على نزيف الدماء وإشتداد المعارك فى أثناء الإحتلال الفرنسى لألمانيا ، ثم مُنى الصبى " **ريتشارد فاجنر** " بوفاة والده متأثراً بمرض التيفود ، ولم يترك له ولوالدته وأخواته الثمانى إلا القليل مما كسب من عمله المتواضع ككاتب حكومى ، فإضطرت أمه أن تتزوج مرة أخرى ، وكان زوجها يعمل بالمسرح .

وكان الزوج يصطحب " فاجنر " معه دائماً إلى المسرح ، حيث أسره هذا العالم الغريب عنه ، ولكن العزف على البيانو شده إليه أكثر ، فواصل تدريبه على البيانو ، كى يصبح عازفاً ماهراً ، وتعلم كتابة النوتة الموسيقية وحرص على حضور حفلات الفرقة الموسيقية العسكرية فى حديقة المدينة .

وفى سن السادسة عشرة ألفّ أول أعماله وهى مأساة شعرية ، وألفّ بعدها مسرحية (لو بولد وأديلاند) ، وقد ظهر فى هذين العملين تأثره بمآسى شكسبير الخالدة ! .

ولكن النزعة الموسيقية تتحرك داخله ، وتتغلب عليه ، فقرر أن يؤلف الموسيقى ، وأذكى هذا الإحساس فيه وقواه سماعه لسيمفونيات بيتهوفن التى كان

يعيش لما يسمعها مشاعره الخاصة إزاء بؤسه وحرمانه وشعوره بالضياع ! .

وبدأ " ڤاجنر " فى الإنكباب على قراءة كتب الموسيقى ، وتعلم العزف على الكمان والأرغن .. ودراسة قواعد التأليف الموسيقى ، كما إنتسب إلى جامعة ليبزج كطالب فى الفنون الموسيقية ، وسرعان ما أصبح رئيساً للأوركسترا ، حيث طور وظيفة الأوركسترا من مساندة الأعمال الغنائية فقط إلى المساهمة فى العرض المسرحى كجزء حى ..

وألفّ حين ذاك أول أوبرا له وهى (الزفاف) المستوحاه من روائية شكسبير (روميو وچولييت) ؛ كما كتب أوبرا (الجنيّات) مصوراً الصراع بين البشر والقدر ..

وبرغم تراكم الديون عليه وفقره الشديد فإنه إستمر فى التأليف حيث ألفّ أوبرا (الحرمان من الحب) .

ولكن عمله الذى يلاقى نجاحاً كبيراً هو أوبرا (الهولندى الطائر) حيث يعجب بها الجمهور ، وترشحه ليكون رئيس الأوركسترا فى دار أوبرا دريد .. ويكتب أيضاً أوبريتات (كانهاوزر) ، (هنجرين) ولكنهما لم تحظيا بالنجاح نفسه .

يغزو الحب قلبه فى صورة ممثلة المسرح " **مينا** " ، وكانت فاتنة الجمال ، وتكبره بأربع سنوات .. وبعد قصة حب عنيفة تزوجها ، إلا أنها تكفر بهذا الحب كله ، وتهرب مرتين مع عشاقها ، لتعود نادمة ؛ مستغفرة ، ويقبل توبتها ، ويصفح عنها ، إلا أن حياة الجفاف تتسلل بينهما إلى جانب تراكم الفقر والديون ، وتتركه ، وتذهب للإستشفاء فى إحدى المصحات حيث عاشت بقية حياتها إلى أن ماتت ..

ووسط هذا الشقاء يكتب أوبرا (رينزى) التى تنادى بفلسفة القوة ، وبالرغم من تنوع عذابه وآلامه فإنه يصل بهذا العمل إلى قلب الجماهير ، حيث حملته الجماهير بعد عرض الأوبرا ، وطافت به على أعناقها ، ويذهل من هذا النجاح ، وتمتلئ عيناه بدموع الفرح ، ولا يتصور كيف يأتى إليه النجاح بعد هذا الفشل الطويل والعذاب المضنى الذى قاساه ؟ .

ولكن سيمفونية أخرى تحيط به هى سيمفونية الفشل والنجاح : فبينما نجحت أوبرا (رينزى) تسقط أوبرا (المركب الشبح) سقوطاً ذريعاً ، ويهاجمه كبار

النقاد بعنف وبينهم مندلسون وشومان ، وينتابه شعور المرارة والإضطهاد ، ويظل يطارده هذا العشور ! .

ويكتب فى هذا الجو الكئيب أوبرا (تانهاوزر) حيث يصور فيها حياته ، ويواجه قوى الموت والفناء وصراعه بين الخطيئة والفضيلة ..

ولكن الجمهور الذى لم ينضج النضج الكافى بعد يستقبل هذا العمل بفتور وبرود ويخذله ! . وبالرغم من مرارة الإخفاق فإنه يؤمن بدوره فى خلق المتفرج المثالى والإرتقاء بمستواه الفنى .

وحين إشتعلت الثورة فى سكسونيا سنة ١٨٤٨ شارك " ڤاجنر " الأهالى فى ثورتهم ، ولكنه يحارب بسلاحه الخاص " بفنه وموسيقاه " ، فيكتب مؤلفاته (أوبرا لومنجرين) ، أوبرا (مأساة فريدريك باربروس) ، ولكن سلطات بلاده تربصت له ، وأوعزت للمسرح برفض مؤلفاته ، ثم صدر أمر بإعتقاله ، فهرب إلى سويسرا حيث بدأ مرحلة جديدة من حياته الفنية : فكتب مقالات عن الفن والثورة ، وألفّ كتباً عن الأوبرا والدراما ..

ويسقط مريضاً من الإجهاد .. ووسط تعليمات الأطباء بالراحة يكتب عمله العظيم (خلقة بنيلونج) .

وكانت " لڤاجنر " تجاربه العاطفية بعد وفاة زوجته ، وقد شغف حباً بزوجة أحد التجار ، لدرجة أنه خلدها فى بطولات أعماله حيث كانت بالنسبة له الحب النقى السامى ، وقنع منها بالذكرى الجميلة والأحلام النورانية حيث كان من المستحيل أن تخون زوجها ، أو تهجر بيتها وأولادها ! .

كما أحب " كوزيما " إبنة الموسيقار " فرانز ليست " ، وكان يكبرها بسنوات كثيرة ، وتزوجها وهو فى الخمسين من عمره وأنجبت له بنتين وولداً .

ويواصل " ڤاجنر " كتابة روائعه ، فيكتب (تريستان) و (أساطين الغناء) .

ولكن الفقر والعوز والديون تضطره للهروب من النمسا إلى براغ بتشيكوسلوڤاكيا ثم إلى زيورخ بسويسرا ، وأخيراً إلى برلين بألمانيا .. كان ما يحلم به هو توفر لقمة العيش ! .

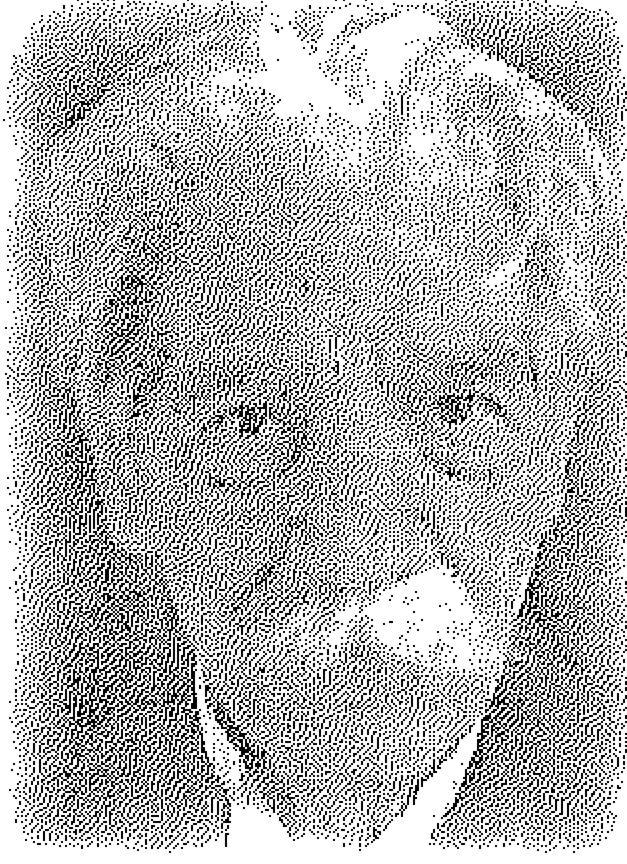
وكان يقول فى يأس : إنه من المستحيل أن أعيش من مرتب متواضع يمنح

لعازف الأرغن ! . أهو طلب مجنون أن أحصل على ذلك الفتات من الترف المحيط بى ؟ .

وينقذه ملك بافاريا وعاشق الموسيقى حيث يقدر أستاذيته وعبقريته ويعوضه عن كل سنوات البؤس والحرمان ، فيمنحه منزلاً فى ميونخ بألمانيا ، ويعهد إليه بإدراة المسرح والأوركسترا ، فيشعر أخيراً بالإستقرار والأمان مع زوجته كوزيما ، وتعود إليه قوة الإبداع والعبقرية .

ولكن المأساة تطارد العبقرى الموهوب ، فيتكاتف عليه حسد الفنانين ورؤساء الأوركسترا والمسرح والساسة وبعض الموتورين ، ويحاصره الجميع ناقمين من شهرته ونجاحه ، ويتهمونه كذباً بالتآمر ، فيأمره الملك لويس الثانى بمغادرة ميونيخ ! .

ويذعن " ڤاجنر " للأمر الملكى ، وتبدأ رحلة الشقاء من جديد .. حيث تطارده أحزان الغربة والنفى ، ولكن السماء تخفف عنه بعض آلامه عندما يبنى مسرحاً يحمل إسمه فى بلدة بايروت ببافاريا ، ويفتتح بمؤلفه (حلقة بنيلونج) هذا العمل الذى إستغرق منه ربع قرن من الزمان حتى أتمه .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٨) ألبرت شفايتزر

الرجل الذى أحب مرضى الجذام

قالوا : أهرب من الجذام ولا تهرب من الأسد ! .

ليس من الحتمى أن تكون طفولة شخص ما غير عادية ، لتدل على مستقبل غير عادى لرجل عظيم ! .

عندما ولد " ألبرت " فى قرية " جونسباخ " بالألزاس العليا فى عام ١٨٧٥ - كان طفلاً عليلاً هزيلاً .

كما عُرف عنه فى مطلع حياته الدراسية أنه بطئ فى القراءة والكتابة ! . فكان طالباً ضعيفاً فى تحصيله ؛ مما كان يصعب على أى فرد من أهله أو معارفه التكهن بمستقبل باهر له ! .

غير أن " ألبرت " كان يتمتع بقلب طيب نقى كالذهب ؛ فقد كان فى صلواته اليومية يرجو الله أن يمنح الحماية والبركة والرزق والنوم الهادى كل المخلوقات أى : البشر والطيور والحيوانات ! .

وإذا ما رأى حصاناً أعرج يُلهبه صاحبه بالسوط يظل متألماً عدة أيام ! . وحدث أنه خرج يوماً لصيد الطيور مع عدد من أصدقائه ، لكنه تألم لألم الطيور التى تقع فريسة لنباله مع أصدقائه ، فتركهم يصطادون وحدهم ، وعاد لبيته غير مبال بضحكاتهم الساخرة منه ! .

تمتع " ألبرت " فى طفولته بحنان والديه وسط ظروف رَغدٍ من العيش ، وكأنهما أرادا أن يعوضا فى إبنهما ما ضاع منهما من سلام فى المعارك بين ألمانيا وفرنسا على المنطقة التى عاشا فيها (الألزاس واللورين) ، وعلى الرغم من أن منطقة الألزاس تميل إلى الثقافة الألمانية على حين تميل اللورين إلى الثقافة الفرنسية - فقد جمع " ألبرت شفايتزر " عناصر الثقافتين ! .

وأحب " ألبرت " الموسيقى وهو فى الخامسة من عمره ، وتمكن وهو فى تلك السن من العزف على البيانو الذى ورثه عن جده ، وفى التاسعة من عمره أجاد العزف على البيانو ، وأثار دهشة الكبار والصغار من سكان قريته جوسنباخ ، بل إنه تمكن من نظم أنشودة وهو فى الثامنة على حين لم تكن ساقاه تصل بعد إلى مسند القدم فى البيانو ! .

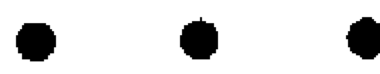
وأحس " ألبرت " بجمال الطبيعة فى بلدته ، وكان يتمشى فى الغابات ، ويسبّح بحمد الله من أجل عظمة خلقه ، كانت طفولته ومطلع شبابه أنشودة حب للطبيعة ، للطير ، للحيوان وللمحيطين من حوله ، وخصوصاً الفقراء منهم ! .

وقد كانت أمه تحرص على أن يرتدى ملابسه الصوفية فى الشتاء وفوقها معطفٌ ومعه قفاز ، لكن الصبى ألبرت كان يرفض إرتداء المعطف أو إستخدام القفاز ، بل كان يفضل أيضاً إنتعال (قبقابه) الخشبى ؛ ليكون فى مستوى غلمان القرية الذين كانوا لا ينتعلون أحذيتهم إلا فى أيام العطلات ! . فقط . أحبَّ الفقراء فحرص على مشاعرهم .

وتجسد معنى الفقر والحاجه فى نظره فى تمثال ضخم لشاب أفريقى فقير متألم ، وكان ذلك التمثال فى أحد ميادين مدينة " كولمار " بالألزاس .

وقد تعود سكان المنطقة إقامة المهرجانات والحفلات العامة فى ذلك الميدان ، وكانت المئات من السكان تنتقل لذلك الميدان للإستمتاع بالمهرجانات ، أما " ألبرت " فقد كان يقصد الذهاب لذلك الميدان ، ليتفرس وجه ذلك الأفريقى الأسمر المتألم ، وتمنى لو أمسك بمنديله ، ومسح عن وجهه علامات الأسى والألم ! ، كما تمنى لو إخترق صلابة الحجر المنحوت منه ذلك الشاب الأفريقى ، ليطوقه بذراعيه ، ويخفف عنه ! .

أراد " ألبرت " أن يعبر جسر الألم مع ذلك الشاب الأفريقى ومعه كل المتألمين الفقراء بأن يصنع خيراً من أجلهم .



وبدأ " ألبرت " فى إعداد نفسه ، ليؤهل نفسه لمسح الألم من حياة المتألمين ! . وتفتحت مداركه فى مطلع شبابه ، وتعددت مواهبه ، وإتجه نحو ثلاث مهن فى وقت واحد ! .

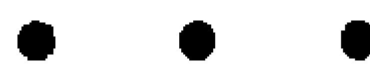
درس الفلسفة فى جامعة ستراسبورج ، ونال أول درجات الدكتوراه فى رسالة عن الفيلسوف الألمانى " كانت " ، ودرس اللاهوت حتى أصبح فى عام ١٩٠٠ وهو فى الخامسة والعشرين قسيساً لإحدى كنائس ستراسبورج وحرص على عزف الأرغن .. وما إن بلغ السادسة والعشرين حتى حصل على الدكتوراه فى كل من الفلسفة والموسيقى واللاهوت ! . وقد ألف كتاباً عن الموسيقار باخ ، والمسيح ، وتاريخ الحضارة .

كما عرف عن " ألبرت شفايتزر " أنه أحد أكبر خبراء العالم فى تركيب الأرغن ، ودرس على مستوى التخصص أسرار حياة حيوانات المنطقة الإستوائية ، وأصل الإنسان ، والزراعة ، والنجارة ، والبناء ، والطب البيطرى ، وبناء القوارب ، وطب الأسنان ، والرسم ، والميكانيكا ، والصيدلة ، وفلاحة البساتين ! .

أصبح " ألبرت شفايتزر " رجلاً جامعاً شاملاً ! .

وفى سن الثلاثين تعمق فى دراسة الطب لثمانية أعوام حتى أصبح طبيباً وهو فى الثامنة والثلاثين ، وكانت هذه السنوات من أصعب السنين وأكثرها إرهاقاً له : فمع أن دراسة الطب مرهقة فى ذاتها ـ فقد ظل ألبرت يواصل تدريس الفلسفة وممارسة نشاطه كقسيس بلدته خلال فترة دراسته بالطب .

وتزوج " ألبرت " عام ١٩١٢ إبنة مؤرخ شهير فى ستراسبورج ، وقد درست زوجته التمريض ، لتكون قادرة على مساعدته فى مهمته الإنسانية بين المتألمين فى أفريقيا .



وبدأ " ألبرت شفايتزر " حياته بين المتألمين الذين شعر بندائهم : " أعبر إلينا وأعنا ! " . سمع صراخ المرضى فى قرية " لامبارنييه " على بُعد ٥٠ ميلاً جنوب خط الإستواء بالكونغو .

ويقول " ألبرت " لدى أول نظرة يلقيها على القرية : إنها تشبه بداية العالم : فالسحب والنهر والغابة تذوب كلها فى منظر أشبه بما كان قبل الطوفان وفى أغلب أيام العام يبدو الهواء وكأنه بخار متصاعد من ضباب أخضر .. ! .

إلى تلك البقعة وصل " ألبرت " وزوجه عام ١٩١٣ حيث وجد غابة تقطنها

وحوش لا تصادق أحداً مثل الأفاعى والغوريلا والتماسيح .. والسكان هناك أقوياء البنية لكنهم مثل تمثال ذلك الأفريقى الأسمر الذى شعر " ألبرت " بحاجته لمنديله ؛ ليمسح عن وجهه الألم ! ..

فكثيرون منهم مرضى .. ومرضهم صعب الشفاء .. وخصوصاً لو أهمل بعد مرحلته الأولى ... **مرضى بالجذام ... ! .**

وكان " ألبرت " يعرف أن عمله صعب ، وأنه عُرضه للعدوى ، فالمخالطة لمريض الجذام تحمل إحتمالات للإصابة بالمرض نفسه .

وبدأ فى إعداد مستشفاه من أكواخ من البوص والطين على أرض إنتزعها من أشجار الغابة بيديه ، وساعده بعض الوطنيين .

لم يصدق المرضى فى بادئ الأمر أنهم سيشفون من مرضهم ، فهم يعرفون أن الداء الذى يصابون به مُميت فكانوا يتعجلون العلاج الذى يصفه ذلك الطبيب الأبيض القادم لهم من أوروبا : فبعضهم يأكل المرهم الذى يوصف لأمراض الجلد ! . كما كان بعضهم يتعاطى فى جرعة واحدة زجاجة الدواء التى يُفترض أن يستمر بضعة أسابيع ! ، أو يحاولون تسميم غيرهم من نزلاء المستشفى ! .

وكان " ألبرت " يشعر أحياناً بالضجر واليأس بسبب بعض تصرفات نزلاء قرية الجذام التى أسسها هناك بين الأدغال والأحراج ، لكنه ظل يتمتع بصفاته التى كان يراها الناس من حوله : فهو الرجل العريض المنكبين ، ذو أنف معقوف قوى ، وشارب أشهب ، وعينين تشعر أنهما مثبتتان عليك ، وقد وضع فوق رأسه قبعة للوقاية من الشمس ، وإرتدى قميصاً أبيض اللون مفتوح الصدر ، وسراويل رثة مهلهلة وحذاء أسود ثقيلاً .

تنعكس على وجهه الملئ بالثقة القوة والإطمئنان والقيادة ، إنه وجه معبّر عن رجل جليل .

كان " ألبرت " يبدأ يومه وينهيه بالعمل ، وخصوصاً زراعة الخضراوات والفاكهة بأرض قرية الجذام ، وكان يطلب من بعض المرضى مساعدته ، فمرضى الجذام ليسوا فى حالة تمنعهم من العمل ، بل يستتبع المرض نوعاً من الخمول وعدم الإكتراث ! .

كانوا يقيمون فى الأماكن التى خصصها لهم فى قريتهم هذه التى أقامها فوق

مرتفع منحدر من الأرض ، وتحوى ٤٥ أو أكثر من الأبنية ، وكلها شُيدت ببساطة وطريقة تكفل تأدية الغرض منها .

وليس بالمستشفى - أو قرية الجذام - طرق ممهدة أو ممرات ماء جار أو كهرباء ما عدا غرفة العمليات وأشعة إكس .

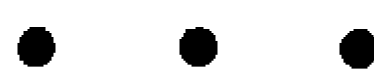
ويحوى المكان عدداً من الحيوانات : ففيه نحو ١٥٠ عنزة ومخلوقات أخرى كالببغاوات والنسانيس ، وقردٌ مربوطٌ فى شجرة ، وأربعة من غزلان جميلة تقف فى حظيرة مقامة من الأسلاك ، ويتولى الدكتور " ألبرت " إطعامها بعد العشاء كل ليلة .

ولقد إستطاع " ألبرت " أن ينقذ آلاف المرضى بعلاجهم من ذلك الداء ومن أمراض أخرى برغم قلة معدات قريته ومعاناتها من نقص العقاقير والأربطة .

وحدث أن فوجئ أحد زوار القرية بأن شاهد مريضاً عارياً تماماً يرقد فوق مائدة العمليات وقد غرق بطنه فى سائل " الميكروكروم " الأحمر ، وكان الطبيب يقوم بإجراء عملية " فتاق " له .. وبعد ساعة جلس الطبيب يتناول الغداء ، ولا تزال ذراعاه قرمزيتين من أثر السائل الأحمر ... ! .

والحياة فى المستشفى تتركز فى مكان مكشوف مزدحم على مقربة من قاعة الطعام حيث يأتى الأهالى ببعض إنتاجهم لبيعه أو لإهدائه لنزلاء القرية ، على حين تجلس بعض نساء القرية يجدلن سعف النخيل لعمل أسقف حجرات جديدة بالمستشفى ، فى الوقت الذى تنهمك فيه بعض النسوة فى الحياكة لعمل ملابس جديدة للنزلاء ، ويقوم بعض الرجال بالكى بمكواة الفحم ، وبين هؤلاء يقوم دكتور " ألبرت " بالمرور ، ليطمئن عليهم وعلى أن العمل يسير بإنتظام وكأنه قائد فرقة حربية على الحدود ! .

ويتبع " ألبرت " فى المستشفى نظاماً حازماً وإن كان ينفذه بصورة غير مباشرة ، وإذا وقع أى خطأ دعى المتنازعون إلى مكتب الدكتور " شفايتزر " للفصل فى الأمر وإعطاء التوجيهات .



وواصل " شفايتزر " رسالة " مسح الألم " عن مرضى الجذام حتى جاوز الثمانين من عمره ، وأصبح يعاونه عدد من الأطباء وعدد من الممرضات .

وكان على " شفايتزر " أن يشجع الأهالى على إستثمار وقتهم ، فغالبيتهم لا يفكر فى عمل شئ ، بعد أن ينتهى عمله بعد ظهر كل يوم ، فلا يفكر أحدهم مثلاً فى أن يصيد السمك من النهر مع أنهم فى حاجة ماسة إلى الكثير من البروتين ، وإذا حصل أحدهم على أى قدر من التعليم فإنه يهرع إلى المدينة ، ليحاول الحصول على عمل كتابى ! .. وذلك فى الوقت الذى لا يجد فيه " شفايتزر " نجاراً ماهراً أو رجلاً يستطيع رعاية الأرض المزروعة .. وكثيراً ما كان يردد :

- إننى الفلاح الوحيد هنا ! .

وكان " شفايتزر " يزرع كل أنواع الفاكهة والخضراوات ، ليحقق كفاية إستهلاك النزلاء ، وهو مضطر أن يزرع ويرعى كل أشجاره بنفسه بسبب خرافة يعتقدها الأهالى هناك ، وهى أن الرجل الذى يزرع شجرة فاكهة سوف يموت قبل أن تثمر تلك الشجرة ! .

وقد حرص " شفايتزر " على تناول الطعام بين أطباء وممرضى المستشفى وعدد من نزلائه ، وقبل كل أكلة كان يرفع صلاته شكراً للخالق صاحب العطايا ، وعقب تناول العشاء - ولا تستغرق الأكلة هناك أكثر من نصف الساعة - يرفع صوته بتسبيح الله وهو يعزف اللحن الخاص بالتسبيحة على معزف صغير جاءه هدية ليواصل معها حبه للموسيقى ، ثم يتناول الشاى ، وقبل أن يغادر قاعة الطعام يملأ جيوبه بقطع مختلفة من الطعام ليهديها للغزلان .

وبعد أن يأوى كل نزلاء القرية للفراش ليلاً - يظل هو يعمل إلى ما بعد منتصف الليل ، يكتب ويرد على بريده ، وقد دهش موظفو (الجمارك) فى ميناء بوردو الفرنسى لمـا شاهدوه يركب السفينة وهو يحمل معه بريده الذى لم يرد عليه ، وكان يملأ أربعة جوالات من البطاطس ! .

وقد ذاع صيت " ألبرت شفايتزر " فى أرجاء الدنيا ، ودعى لإلقاء العديد من المحاضرات بالمحافل الدولية ، ونال تكريماً من جامعات عديدة ، ومنح جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٢ .

وعُرف عنه مرحه وبساطته فى العيش ، فإذا زرت حجرته الخاصة بالمستشفى تجد مجموعة من الكتب والصحف ، والآلات مثل : منشار ملقى بين المخطوطات ، وعلب صفيح فارغة ، وأكوام من " النوتات " الموسيقية ، وبعض أدوات النجارة ! .

وكان " شفايتزر " لما ينتهى من كتابة فصل من أحد كتبه العديدة التى ألفها - يمرر خيطاً من خلال الصفحات ، ثم يعلقها فوق مكتبه وكأنها دجاج برى تم إصطياده ! .

وظل " شفايتزر " يعطى من نفسه مرضاه ومحبيه فى قرية الجذام التى صنعها حيث شفى الله على يده الآلاف من مرضى ذلك المرض ، حتى أدرك يوماً أنه هو نفسه أصبح نزيلاً فى مستشفاه ! .. فقد إنتقلت إليه العدوى ، فعاش الألم الذى ظل يمحوه عن أصحابه أكثر من نصف قرن ! .

وتوفى الرجل وهو شبعان حياةً ، وشبعان نجاحاً ورضا ، وكانت الناس فى بلده قد سخرت منه فى مطلع رسالته بين مرضى الجذام فى أواسط القارة العذراء فقد وصفوه بأنه هارب من المسئولية أمام مواطنيه ! . ولكن كثيرين الآن منهم ومن الآخرين ينحنون أمام سيرته ، سيرة رجل الخير والمحبة العملية بين المحتاجين إليها من البشر .



شخصيات لا تنسى ..

(٢٩) جان دارك

فتاة وسط النيران !

مع مطلع اليوم السادس من شهر كانون ثان (يناير) ١٤١٢ م ، وكان يوماً قارس البرد يفرض على الناس البقاء في منازلهم - ولدت طفلة في قرية " دوميرمى " بمقاطعة اللورين بالقرب من شاطئ نهر " الموز " بفرنسا .

ولما ولدت " **چان** " فرحت أمها " **إيزابيل** " ووالدها " **چاك دارك** " الفلاح الفقير الذى كان يملك بضعة هكتارات من الأرض يفلحها ، ويعيش من خيرها فى كوخه الخشن مع زوجته الراضية المدبرة .

وبرغم برودة وهدوء اليوم الذى ولدت فيه " چان " فقد كانت أيام مولدها ساخنة بسبب الإضطرابات الدموية التى عمت فرنسا ، إذ كانت حرب (مائة العام) بين فرنسا وإنجلترا دائرة منذ ما يقرب من نحو ٧٥ عاماً ، وكانت إنجلترا تطالب بعرش فرنسا ، وكان " دون بورجانديا " حليف إنجلترا يحكم غالبية أراضى فرنسا ، أما بقية فرنسا فقد كانت خاضعة لشارل وريث العرش الفرنسى الذى لم يكن قد توج بعد .

فى هذا الجو المشحون بالحروب والأطماع والخلافات نشأت " چان " ، فوجدت فارقاً ضخماً بين حياة البيت التى تظللها تقوى الوالدين والسلام العميق برغم لقمة العيش اليابسة فى كوخهم البسيط وبين الحياة العامة فى البلاد من صراعات وأطماع ، بل كانت ترى بعينيها عصابات الرجال المسلحين ، وهم يمرون على الجسر المقام فوق النهر القريب من كوخها .

وكثيراً ما سمعت الصغيرة والدها وأفراداً من أبناء بلدها وهم يندبون ضعف ولى العهد الذى لن يقوى على تنصيب نفسه ملكاً ، ويجعل من البلاد التى تفتقد القيادة أمة موحدة .

وشاركت الطفلة بمشاعرها المرهفة من حولها من أبناء وطنها وبناته فى العطف على وطنها والحقد على الإستعمار الإنجليزى الذى أحتل وطنها ، وإستباح كل شئ لمصلحته ، وإحتقر وازدرى أهل البلاد ، وإستغل موارد البلاد لمصلحته ، وأشاع الفوضى والظلم فيها .

ومثل كل الفتيات الصغيرات كانت " چان " تجلس إلى أمها ؛ لتصنع لها رداء لعروسها الدمية ، وتحكى لها قصص بطولات وحكايات دينية إنتصر فيها الخير على الشر ، وإستمتعت الصغيرة بتلك القصص ، وأمعنت فى معانيها ، وتشربت منها بسعادة غامرة وإستغراق .

وفى سن السابعة كان على " چان " أن تشارك والديها فى عملهما ، فكانت ترتدى معطفها الصوفى الخشن ، مع حذائها الخشبى - الغليظ ، وتخرج إلى الحقل لتساعد والدها فى زراعة أرضه ورعى الأغنام .. وقد كانت تحب فى فصل الربيع أن تنطلق للتمتع بجمال الطبيعة بين الزهور والأشجار وخصوصاً أشجار التفاح التى تنمو بكثرة فى تلك المنطقة ، وتحبها " چان " ؛ كما تحب ثمارها ...

ولما بلغت " چان " الثانية عشرة من عمرها - كانت فتاة متينة البنيان ذات شعر أسود متدينة ، تجد فى رعى الأغنام متعة وراحة ورضا ، فهى تساعد والدها فى ذلك ، كما تخلد للطبيعة التى تحبها ، تنطلق بقطيعها بين الغابات ، حتى المناطق التى كان يخشاها غيرها ظناً منهم أنها مسكونة بالعفاريت ! .

وكانت " چان " قوية بإيمانها .. شجاعة بطبيعتها تفضل إرتداء ملابس الرجال ، مما أغضب والدها عليها ، وجعله يأمرها بإرتداء ملابس الفتيات مثيلاتها .

كانت " چان " تحترم والديها وتحبهما ، وإحتراماً وحباً لوالدها أطاعته ، وإرتدت الملابس المبرقشة مثل الفتيات من عمرها فى اللورين لكنها كانت ترتدى تلك الملابس إرضاءً لوالدها ، وليس لإقتناع فى داخلها ! .

إن قضية بلادها هى شغلها الشاغل فى تأملاتها وتفكيرها ؛ إذ كيف يحتل الإنجليز بلدها العزيز منذ عام ١٣٣٧ ؟ ... لماذا لا تصبح فرنسا حرة أبية ؟ .

وحدث فى صباح أحد أيام فصل الربيع لعام ١٤٣٤ ، أن " چان " كانت

تجول بين أشجار التفاح وهى تتأمل وتصلى وترتل فإذا بها تسمع صوتاً يناديها :

" چان .. چان .. أيتها الفتاة المؤمنة ، أنت إبنة الرب ، إختارتك العناية الإلهية لعمل عظيم ، حافظى على طهرك ونقائك ، ونحن معك " .

وحاولت " چان " رؤية مصدر الصوت ، فلم ترَ سوى ضوءٍ باهرٍ ، ثم تكرر ذلك الصوت بين يوم وآخر أربع سنوات وهى تحفظ سر تلك الظاهرة ، ولم تبح بها لمخلوق وهى مقتنعة تماماً أن ذلك صوت إلهى .

وفى عام ١٤٢٨ ضرب الإنجليز حصارهم حول مدينة " أورليان " وقد كانت " چان " قد بلغت من العمر ١٦ عاماً ، وسمعت الصوت يحدد مهمتها وهى تخليص المدينة من حصار الإنجليز ونجدة ولى العهد .

ورددت " چان " : لقد أرشدنى الصوت للتوجه إلى " روبرت دى بودريكور " قائد مدينة " فوكولور " الذى سيعطينى رجالاً يصاحبوننى ، وذهبت إلى فوكولور التى على بعد ١٦ كيلومتر من قريتها دوميريمى ، وأخبرت قائدها بأن العناية الإلهية عينتها ؛ لتقود ولى العهد حتى مدينة " ريمز " حيث يتم تتويجه ملكاً .

غير أن قائد المدينة طردها ، وأمر بإبعادها عن مقره فعاودت الزيارة مرة ثانية ، وكان إبعادها فى هذه المرة الثانية أكثر خشونة ! . غير أنها لم تيئس ، وعادت إليه ثالثة ... ! .

وأذعن قائد المدينة لطلبها ، وأعطاها حصاناً والحرس الذى إحتاجت له ، كما زُودت بملابس الرجال التى طلبتها ، وقصت شعرها ، وسمعت الأصوات تقول لها : " **إمضى إلى الأمام بشجاعة** " .

ومضى حصانها مسرعاً مبتعداً بها عن كل الأماكن المألوفة لها ، إنها تمضى الآن ليلاً نحو مصيرها .. عبر مناطق يسكنها العدو ، وتوقفت " چان " عند " شينو " حيث يقيم ولى العهد ، وأرسلت إلى داخل القلعة جندياً يبلغه قدومها .

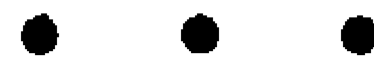
كان " شارل " ولى العهد شاباً متردداً ضعيف الإرادة ، سمح لچان بالدخول ، ولكنه تخفى فى رداء متواضع وسط الجمع حتى يخدعها ! .

وخطت " چان " داخل القاعة الفخمة التى تنيرها المشاعل ، وتغص برجال الحاشية ، وتوجهت مباشرة نحو ولى العهد وركعت أمامه ؛ فقال شارل وهو يشير إلى واحد من رجال الحاشية محاولاً تضليلها : " هذا هو الملك " .

ولكن " چان " كانت ثابته العزم فقالت له : " بإسم الله ، إنك أنت أيها الأمير النبيل ، وليس أحداً آخر " ، وأخبرته چان أن الله قد أرسلها كى تساعده ، وتنقذ مملكته ، وتراه يُنصّب ملكاً .

وتابع الجميع بإنبهار شديد الحديث المنفرد بين " جان " والأمير ، فكان وجهه يتألق كلما أجابته ، ولكنه ظل متردداً خوفاً من أن تكون مأجورة أو ساحرة ، فأمر بالتحقق من أمرها حتى تيقن أنها فتاة ريفية خيِّرة .

وضاقت " چان " بالأمير لتباطئه ، فحذرته بإلهام عجيب من أنها لن تعيش إلا عاماً وبعض العام ، وأن عليها أن تعمل بهمة خلال فترة حياتها .



جمع الأمير شارل جيشاً ، وأعطى " چان " حلة مدرعة من الصُّلب المصقول ، وصنعوا لها علماً أبيض مطرزاً بالحرير ومزيناً بالزنابق ، وإنطلقت " چان " تقود قواتها صواب أحد المواقع الرئيسية التى كان الإنجليز يحاصرونها منذ نحو ستة أشهر وهى مدينة أورليان التى كانت تعتبر مفتاحاً لوادى نهر اللوار ، وقد بنى الإنجليز حولها إثنى عشر حصناً ، وكانت إستحكامات كل حصن تتكون من حائط كبير من الحجر يبلغ إرتفاعه ٩ أمتار تعلوه أبراج قوية .

وعندما وصلت " چان " إلى ذلك الحصن أملت خطاباً وربطته فى سهم ، وأطلقته فوق الحائط ، وجاء فى الخطاب :

" إن ملك السموات والأرض يرسل لكم عن طريق " چان " العذراء رسالة وإنذاراً كى تتخلوا عن حصونكم ، وترحلوا إلى بلادكم . وإلا فإننى سأعلنها حرباً عليكم لن تنسوها أبداً ! " .

ولما لم تستجب لها القوات البريطانية بدأت " چان " معركتها وهى مثل كل معارك القرون الوسطى من قتال بالإلتحام بالأيدى والتراشق بالرماح والسيف والعصا الحديدية .

ونجحت " چـان " ورفاقها فى مهاجمة أحد الإستحكامات وبعد يومين فقط من

بدء المعركة تمكنت مع رفاقها من مهاجمة القلعة الرئيسة ، وفى أثناء تسلقها سلماً على جدارها مرق فى الهواء سهم منطلقٌ من قوسه ، فأصابها فى صدرها ، وحملوها بعيداً عن الميدان ، ودوى صوت النفير بالإنسحاب ، ولكن " چان " إستجمعت قواها ونزعت السهم بيدها من صدرها ! . وسرعان ما رأى الجنود رايتها مرفوعة بيدها خفاقة ، وسمعوها تصيح " إنه يومكم ، تقدموا ! " ، وشاهدوها تندفع نحو السور وتتسلقه .. وسقط الحصن ، وتم إنقاذ مدينة أورليان ! .

ضمدت جراح " چان " ، ثم سارت فى الشوارع على رنين الأجراس التى أعلنت إنتصار الفرنسيين فى معركة أورليان بقيادة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان ذلك النصر باعثاً للروح المعنوية للجيش الفرنسى وتغييراً لمجرى حرب " مائة العام " .

غير أنه بعد هذا الإنتصار لجأ الأمير شارل إلى عقد الإجتماعات والمجالس واللجان فى بلاطه حول سير الحرب و" چان " الفتاة الملهمة وخطورة الموقف .

وساء " چان " توانى الأمير شارل فحثته على عدم التردد وعدم تضييع الوقت فى إجتماعات اللجان وإتخاذ خطوة عملية بأن يتم تتويجه فى مدينة ريمز أقصى المناطق الفرنسية التى بينها وبين أورليانز مواقع كثيرة تحت سيطرة الإنجليز ، وبعد فك الحصار عن أورليانز وعملية التتويج المرتقبة فى ريمز يعنى الأمر سيطرة الأمير شارل على إمتداد تلك الربوع .

ولم تخف " چان " السيطرة القوية التى يفرضها الإنجليز على المواقع بين أورليان وريمز ، ورفعت علمها خفاقاً وهى تصيح فى الجنود : " أمضوا ولا تخافوا شيئاً ؛ فكل الأمور تسير على ما يرام " ! .

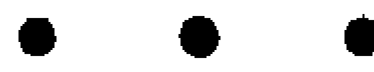
وإستعدت مدينة ريمز لإستقبال ولى العهد الذى أتى إليها على صهوة جواده فى ١٧ من تموز (يوليو) عام ١٤٢٩ ، وتم تتويجه فى إحتفال كبير ، ووقفت " چان " إلى جانب عرشه ، وهى سعيدة بتحقيق هذا النصر لبلدها ، ولم يمر على بدء كفاحها سوى نحو خمسة أشهر منذ أن غادرت قرية دوميريمى .

عرض عليها الملك أن تختار هدية مقابل تتويجه ، فطلبت إعفاء قريتها من الضرائب ويقال : أن أهل تلك القرية الفرنسية معفوون للآن من الضرائب ! .

وبعد أن توج الأمير شارل السابع ملكاً على فرنسا - لم يعد يشعر بالحاجة إلى " چان " ولم يعد يؤيد خطاها ، فقد كانت تخطط للزحف إلى باريس لدحر القوات الإنجليزية ، إلا أن مستشارى الملك الجديد المملوئين حقداً وغيرة من " چان " جعلوه يتردد ويتلكأ ، ثم وافق على مضى حملة " چان " إلى باريس ومضت " چان " على رأس قوات الملك تسترد مدينة تلو الأخرى ، لكن هجومهم لتخليص قلعة باريس فشل ، وأصيبت " چان " فى فخذها بسهم .

وفى شهر نيسان من عام ١٤٣٠ حذرتها الأصوات من أنها ستقع أسيراً إذا ما تمادت فى معاركها ، لكنها واصلت الزحف حتى حوصرت بين الإنجليز والبورجنديين فى إحدى المعارك ، وأسرت " چان " مما أسعد الإنجليز الذين ذاقوا على أيديها مرارة الهزيمة ! .

والحقيقة أن أسر " چان " جاء نتيجة طمع وخيانة بعض الفرنسيين الذين باعوها بمبلغ كبير من المال ، ووضعوها فى الأسر بقلعة " بوريفوار " وهى قلعة أحد النبلاء البورجنديين ، وحاولت القفز من القلعة ، لكنها لم تستطع الهرب .



وأمام محكمة شُكلت خصيصاً لچان - وقفت تلك الفتاة القروية الأمية فريدة بعد أن تخلى عنها الجميع تواجه ضغوط القضاة من الكهنة .

وقصَّت " چان دارك " قصة حياتها القصيرة الغريبة وهى تؤكد أن كل ما فعلته كان بمشيئة الله وبإرشاد منه ، وأظهر القضاة لها آلات التعذيب المنذرة بالشر ، إلا أنها أصرت على موقفها وقالت : " لو أردتم أن تمزقونى إرباً إرباً فإننى لن أقول شيئاً آخر ! " .

وهددوها بحرقها ، فقالت : " إننى لو واجهت النار فسأظل أردد كل ما قلته من قبل " ! .

حاولوا التحرش بها عدة مرات ، لكنها لم تهتز مرة واحدة عن العقيدة التى كانت تحكم حياتها .. وقالت چان :

" إن لى سيداً خيِّراً إنه إلهنا ! . وإليه أتطلع ولا أحد سواه " .

غير أن هيئة المحكمة لم تغير ما أضمرته للفتاة " چان " .. وفى يوم من أيام السوق فى أواخر شهر آيار (مايو) أقتيد ذلك الشبح الشاحب فى ملابسه السوداء وعيناها تتطلعان ، لتسمع الحكم الصادر ضدها .

وقد تضاربت أقوال شهود العيان فى وصفهم لما حدث بعد ذلك :

فقد طلب رئيس القضاة منها توقيع وثيقة الحكم ، وأبلغها أن بالوثيقة حكماً بحرقها بالنار .

فقالت له : " إننى سأموت بسببك ، وبنعمة الله سأكون فى الجنة الليلة " .

وقيدوا " چان " بالحبال ، وحلقوا شعرها ، وإقتادوها إلى ميدان السوق فى مدينة روان فى صباح يوم ٣٠ من آيار عام ١٤٣١ م وملأت الجموع كل الطرق ، وتلا رئيس القضاة حكم الموت ، ثم وضعوا غطاء من الورق على رأس " چان " وقد كتب عليه بحروف كبيرة هذه الكلمات :

" مهرطقة - عائدة إلى الخطيئة - مارقة - ملحدة " ! .

كانت هذه الكلمات هى قرار الإدانة الذى أصدرته المحكمة الدينية على " چان " .

وبينما ترن أصداء هذه الكلمات فى آذان الجماهير المحتشدة فى ميدان السوق حجبت ألسنة النيران المتصاعدة جسد " چان " عن الجموع الساكنة : وتخلل السكون صلاة ، ثم أنين ، ثم صرخة مدوية مفعمة بالحب وألم الإحتضار ، وكلمة أخيرة أطلقتها چان : " يا رب " .

(٣٠) جان فرنييه

العقل الإلكترونى والقروى الأسمر

المكان : مدينة ليون الصناعية بجنوبى شرق فرنسا ، وبالتحديد المركز النفسانى التابع للجيش الفرنسى ، وقائد المركز : الكولونيل " رينيه جليس دى لاريفييرا " يتفحص نتائج إختبارات معدل ذكاء المجندين الجدد وعددهم تسعون جندياً .

رفع الكولونيل حاجبيه ، وإتسعت عيناه وهو يحدق فى نتيجة الكشف على ذكاء أحد هؤلاء المجندين ؛ فقد أوضحت النتائج التى قامت بتقديرها العقول الإلكترونية لعملية كشف درجات الذكاء التى إستغرقت تسع ساعات أن ذكاء أحدهم على أعلى مستوى إذ إن أرقامه لم يمر مثلها من قبل على الكولونيل ! .

وبعد فترة من التمعن والدهشة والحيرة طلب الكولونيل ملف " **جان فرنييه** " لعله يجد معطيات فى مسوغات ذلك الجندى تؤهله لهذه الدرجة الخارقة من الذكاء ! .

لكن دهشة الكولونيل زادت لما قرأ محتويات الملف الخاص بذلك الجندى " **جان فرنييه** " إذ وجد أنه فلاح فى التاسعة عشرة من عمره ، ولم يحصل إلا على قدر ضئيل من التعليم فى إحدى المدارس الصغيرة بقرية نائية .

وكرر الكولونيل قراءته لنتيجة إختبارات الذكاء بالنسبة لذلك المجند القروى الشاب ... ثم إستغرق فى تفكير طويل أفاق منه بتوجيه خبطة قوية بكلتا يديه على المكتب أمامه وهمَّ واقفاً وهو يقول :

" لابد أن العقل الإلكترونى قد أخطأ ، ثم إستدعى أحد أطباء الأمراض العقلية العسكريين لإبداء رأيه ، ووافقه الطبيب على أنه لابد أن العقل الإلكترونى قد أخطأ " .

وإستدعى " جان " - وهو شاب أسود الشعر نحيل - للحضور لإعادة إختباره ، لعل هذه المرة لا تخطئ العقول الإلكترونية فى تحديد قدر الذكاء الذى يتمتع به .

وعندما عاد " جان " إلى الثكنات سخر منه زملاؤه وقال أحدهم : " لعل درجاتك كانت منخفضة جداً حتى إنها حطمت الآلة ! " .

وبعد أن ظهرت نتيجة الإختبارات التى أجريت للمرة الثانية لجان ، إتضح للكولونيل ولمجموعة الخبراء المتخصصين معه أن العقل الإلكترونى بخير وأن العقل البشرى الذى حبا الله به " جان " عقل عبقرى لحد الإعجاز ! .

وإجتاز " جان " مجموعة أخرى من الإختبارات تتضمن إختباراً يعطى للمرشحين لتدريبات الضباط وهو إختبار متقدم جداً يتكون أساساً من ٢٠ عبارة من مقتطفات العلماء والفلاسفة أمثال ديكارت وبيكون وبيرجسون ... ويهدف ذلك الإختبار إلى قياس القدرة على فهم وتفسير الآراء ، وإستخدام العبارات ، والربط بين نظم التفكير المترابطة ، ويضم الإختبار ٢٠ نقطة .

وكان المرشح المتوسط لرتبة الضابط يحصل على ١١ أو ١٢ نقطة ، أما الذى يحصل على ١٥ نقطة فهو فوق العادى .

وقد حصل " جان " فى إختباره الأول على ١٧ نقطة ، وعندما أعيد إختباره حصل على ١٩ نقطة ! .

وهنا علق الكولونيل " دى لاريفييرا " بقوله : **" بين أيدينا فتى غير عادى فماذا نفعل معه ؟ " .**

وأرسل " دى لاريفييرا " تقريره عن " جان " مع توصيات الخبراء المتخصصين إلى وزارة القوات المسلحة الفرنسية فى باريس وأصر على أن يمنح " جان فرنييه " إجازة من الجيش ويرسل إلى المدرسة على نفقة الحكومة ، وعندما صدر القرار ، لم يستطع أحد العثور على إستماره مناسبة لكتابة الأمر عليها ، فلم يسبق أن أتخذ قرار مماثل من قبل ، وطلب إلى " جان " التوجه إلى مدرسة (نورمال) فى ليون .

وكان سرور " جان " عظيماً لأن موقع المدرسة قريب من الحقل الذى يعمل فيه ليساعد والده وأسرته .

لقد ترك " جان " المدرسة والتعليم وهو فى الرابعة عشرة من عمره لكى يتفرغ للعمل فى حقل أسرته الفقيرة ، إذ كان والده عاجزاً عن إعالة أسرته من الحقل برغم أن سبعة من أولاده الأحد عشر قد تزوجوا ورحلوا عن البيت ، وإضطر الأب آسفاً للعمل فى أحد المصانع القريبة لسبك المعادن ، وكان متوسط أجره نحو ٩٠٠ فرنك ، أما " جان " فكان يحرث الأرض ويحلب الأبقار ويزرع ويغرس البطاطس ويرعى الكروم .

وإحتلت أنباء إخلاء سبيل مجند فرنسى من الخدمه العسكرية لأنه " أذكى من أن يكون نفراً بالجندية " عناوين الصفحات الأولى المثيره من الصحف .

وتزاحم الصحفيون حول حقل الأسرة ، وإنتقلت عدسات التلفاز إلى هناك لتنقل على الشاشة الصغيرة لجمهور المشاهدين قصة ذلك المجند الشاب العبقرى ! .

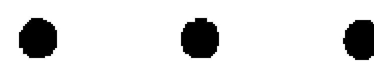
وتلقى " جان " مئات من رسائل المعجبين والمعجبات ، وبينها عشرات من الطلبات الجادة من فتيات للزواج منه ! .

وحاول بعض الصحفيين أن يجد فى عبقرية " جان " مجرد أكذوبة أو وهم ، على حين حاول البعض الآخر منهم وضعه فى مصاف العبقريات العالمية .

إلا أن " جان " - بإتفاق الجميع - شاب خارق الذكاء ومع ذلك فإنك عندما تقابله تجده شخصاً غير معقد ، متواضعاً وبسيطاً جداً . لدرجة أنه أبدى دهشته من إذاعة أنباء تقارير صحفية وتلفزيونية عن ذكائه .

وقال عنه بعض المتخصصين إن مفتاح شخصيته يتمثل فى أن حياته خالية من التحدى العقلى ، حتى إنه كان لا يدرى حقيقة قدراته .

وصرح "جان" : " لقد كنت مقتنعاً تماماً عندما أُخرجت من الجيش بأننى سأدرس لأكون ميكانيكياً للمحركات ، وأعتقد الآن أننى قد أصبح عالماً فى الطبيعة " .



وقد أدهش " جان " كل معلميه بالمدرسة ، فقد أتم خلال ستة أشهر منهاجاً يتطلب نحو ست سنوات من الطالب الكفء وكانت تقديراته تتراوح بين جيد جداً وممتاز ، هذا فضلاً عن أنه كان يدرس ٦ ساعات يومياً على أيدى أساتذة من مركز الأبحاث الذرية فى ليون . وعلق أحدهم عليه بقوله :

" إن لفرنييه أعجب ذهن رأيته حتى الآن ؛ فهو يقفز من قمة جبل إلى قمة أخرى ، فى الوقت الذى يكون فيه الباقون منا مضطرين للتفكير فى شق الطريق بجهد للنزول على سفح أحد الجبال عبر الوادى ، ثم نتسلق المنحدرات فى طريقنا إلى الخاتمة الأخيرة .. وعندما نصل إلى هناك نجد فرنييه فى إنتظارنا منذ بعض الوقت ! " .

ويعتقد " جان " أن نشأته الريفية أتاحت له الفرصة للإشتراك فى العلاقات الإنسانية الحارة . وقد ذكر أنه منذ أن أجرى إختباراته فى الجيش أخذ الناس يأسفون لأنه لم يولد بالمدينة حيث كان من المستطاع أن يتلقى مزيداً من الثقافة فى وقت مبكر . ولا يوافق " جان " على ذلك الرأى ويقول : **" قد تشعر بالملل فى الريف ، لكنك تجد فرصة لتنمية علاقاتك العاطفية بالناس المحيطين ، وعلاقتك الروحية بالله " .**

وكان إخوة " جان " العشرة يجعلون منه قائداً لهم ، أو يرفهون عنه ، وكانوا يحبونه أحياناً ويغيظونه أحياناً أخرى ، وكان يحترم حياته الأسرية ويحبها وقال عنها :

(إن الأسرة هى كل شئ .. فلا شئ يهم إذا لم تكن لك أسرة ؛ لقد جاهدت أمى وكدحت طوال حياتها ، ومع ذلك فقد كانت تجد دائماً الوقت للتحدث مع كل منا وبحث مشكلاته ، وأحاطتنا بحبها ، وتدليلنا بأسمائنا " الصغيرة " وكانت تطلق علىَّ إسم " جانو ") .

ولو حدث أنك زرت قرية لونج مهبط رأس العبقرى " جان " ستجد العربات تزحم الطرقات تجرها الجياد ، والثيران مربوطه إلى المحاريث بالحقول ، ومدرستها ذات غرفتين ، وبيوت القرية عبارة عن حفنة أو إثنتين من البيوت ، وليس بها مكتبة عامة ولا صيدلية ، ولا حانوت لبيع الكتب .

وتعيش أسرة " فرنييه " بمنزل مبنى من الحجر وسقفه فى حاجة إلى إصلاح .

أمه سيدة فى الحادية والستين من عمرها ذات عينين سوداوين حادتين ، تضع على رأسها غطاء رقيقاً يغطى جزءاً من شعرها الأسود وقد عقدته من الخلف ، ترتدى " ماريول " أحكمت ربطه خلف ظهرها على ثوب من الصوف الأسود الخشن .

وردت على أحد الصحفيين بقولها :

" أنـا لا أؤمن بكل هذا الحديث عن العبقرية ، ولكن عندما كان جان في الرابعة من عمره ، قام بفك أجزاء الساعة الوحيدة التي نملكها ، ولما نهرته قال لي : " لا تقلقي يا أماه فسوف أعيد تركيبها " وهددته بأنني سوف أضربه إذا لم يعد أجزاءها إلى بعضها ، وقد نجح بالفعل . لكن هذا ليس ذكاء .. إنه مجرد طفل مطيع يعرف ما فيه صالحه ! " .

وأكدت الأم ضرورة العقاب للمخطئ من الأبناء ، وتذكر أن أغلب أطفالها تعلموا المشي وهم في الشهر الثاني عشر أو الثالث عشر من عمرهم ، وبدأوا يتكلمون في الشهر الخامس عشر أو الثامن عشر ، وذكرت أن " جانو " كان أبطأ قليلاً من إخوته الآخرين ، كما أنه لم يكن من التلاميذ المتقدمين في المدرسة ، ولكنها تعتقد أنه كان يستطيع الحصول على أرقام أفضل لو أنه كان أكثر إهتماماً بالإستذكار .

وكل أطفال أسرة " فرنييه " يتعاونون في أداء الواجبات المنزلية من الدروس ، وحدث يوماً أن عاد أحدهم ومعه مسأله حساب عويصة ، فإشتركت الأسرة كلها في حلها حتى منتصف الليل .. وتخلى واحد بعد الآخر عن المحاولة في خجل على حين واصل " جان " وحده المحاولة لحلها وأخيراً قال " لا يمكن حلها فالفرض فيها غير صحيح " وقد كان على حق إذ تبين أنه حدث خطأ في وضع المسألة نفسها ! .

وترجح الأم أن سبب التفوق الذهني لإبنها هو القراءة التي يهواها ومحبته للكتب في المجالات المختلفة .

ووسط نظرات الإعجاب بجان ، وبعد ما حظى به من شهرة وإجراء أحاديث صحفية معه .. كانت كلماته :

" أرجو ألا يصيبني الغرور .. فأنا أعرف أن الله وحده هو الكامل . وكل مديح وكل مجد إنما ينسب له وحده .. فالإنسان مهما بلغ من مرتبة ، غير كامل وفي حاجة دائماً إلى مساعدة الله " .



شخصيات لا تنسى ..

(٣١) أونوريه دى بلزاك

وأحس الرجل بخيانته لها !

طالع الرجل الخطاب وهو مذهول ، لم يصدق أن هناك إمرأة يمكن أن تفكر فيه على هذه الصورة ، ويمكن أن تكتب إليه بمثل هذا الأسلوب ! . وكان الأسلوب متدفقاً حاراً ، تضطرم فيه عاطفة محتجزة ، وتشع منه عبارات مجلجلة خالصة الحماسة والصدق فى الإعجاب والتقدير ! ، وكانت المرأة تقول :

إنها أفتتنت بإحدى قصص الرجل ، وإن القصة ألهبت خيالها ، وأيقظت مشاعرها ، وهدتها عالماً رائعاً من الشعر الواقعى الحى لم تكن لتحلم بوجوده أبداً ! .

وظل الرجل يتلو الخطاب ، وينعم النظر فى عباراته ، ثم يتأمل التوقيع فى سهوم وشرود وحنق ! .

لم توقع المرأة الخطاب بإسمها ، بل ذيلته بثلاث كلمات فقط هى : " **الأجنبية الروسية المعجبة** " ، فعاد الرجل يتفرس فى التوقيع وقلبه يخفق ، وبدنه يرتجف ! .

كان قد تسلم عشرات الرسائل من معجبات ، ولكنه لم يحس حيال أية رسالة نسوية بما يحس به الآن ! .

لقد بهرته فتنة العبارة ، وخلبته بلاغة الأسلوب ، وسلبت لبه حماسة الإعجاب والتقدير ، وزادت فى إنجذابه تلك العاطفة الخفية المتغلغلة بين السطور ، والمقرونة بغموض شخصية المرأة ، وبسحرها البعيد المجهول ! .

هز كتفيه ، وألقى بالرسالة جانباً ، وحاول أن يعمل ، وينسى ، بيد أنه لم يكد يمضى فى كتابة قصته الجديدة ؛ حتى تاه فكره ، وتشوشت خواطره ، وعاد طيف

المرأة " الأجنبية " وجثم أمامه ! ، فنهض من فوره ، وجعل يذرع الغرفة وهو مكروب ، ثم جاشت بغتة عواطفه ، وإستعر فضوله ، فأسرع ، وكتب إلى رئيس تحرير جريدة فرنسية كانت تصدر فى روسيا ، وطلب منه نشر إعلان صغير فى صحيفته ، وذيل الإعلان بالأحرف الأولى من إسمه ، وطلب فيه إلى المرأة المجهولة أن تكشف له عن عنوانها كي يستطيع أن يراسلها ! .

وما أن ترك البيت ، وهبط الشارع ، وألقى بالخطاب فى صندوق البريد - حتى تنفس الصعداء ، وتألقت عيناه ، وأنطلق يمشى فى شوارع باريس مفتح القلب مثلج الصدر خفيف الخطا ، كأنه كان على ثقة من نفسه وعلى ثقة من أن المرأة الساحرة الغريبة لابد أن تكشف له فى الغد عن شخصها ، ولابد أن تلبى نداءه وترد عليه ! .

وبالفعل جاءه منها خطاب آخر بعد أيام . فعرف أنها سيدة من أسرة عريقة ، وأن زوجها يكبرها بأكثر من عشرين سنة ، وأنه مخلوق فظ مستبد مدمن على الخمر ، يعذبها ويضربها ، ولا يهتم إلا بضيياعه وأملاكه الواسعة ، وأن إسمها هو " **الكونتيس إيفيلين هانسكا** " ، وأنها تعيش فى مجاهل أوكرانيا بروسيا ، وأن قلبها وعقلها وروحها وكل شئ فيها يهفو إلى رؤية الرجل العظيم الذى ألهب بقصصه كيانها ، وهداها دنيا الشعر والعاطفة ! .

وأحس الرجل وهو يتلو الخطاب الثانى أن حلمه الأبدى فى العثور على إمرأة مثالية قد يتحقق ، وأن هذه المرأة قد تكون هى التى ينشدها ، وأنها لو كانت فوق ذكائها الخارق وثقافتها الوافرة جميلة - فالله يكون قد رضى عنه ، ورحمه ، ومنحه وهو فى غمرة جهاده وعذابه ما يستحق من راحة وسعادة ونعيم .

مضى يراسلها ، فتم التعارف بينهما ، وإستراح كل منهما للآخر ، فإشتد حبهما على مر الزمن ، وإستحال إلى إندماج معنوى مطلق لا ينقصه سوى لقاء الحياة المشتركة بالزواج ! .

وهكذا أحب الرجل بالفكر والخيال طيفاً ، وظل يحب الطيف أعواماً ، ولا يطمع إلا فى أن يرى فى يوم ما وجه هذا الطيف حقيقة ملموسة واقعة .

وكان هذا العاشق العظيم هو القصصى الفرنسى العبقرى " **أونوريه دى بلزاك** " لم يكن قد عرف من الحب غير النزوة العابرة التى تكرب نفس المفكر وتذيقه بعد قضاء ما يبغى طعم الرماد ! . وكان لفرط إشمئزازه من الغوانى ،

وشدة حاجته إلى المال وتراكم الديون عليه - يقبع في حجرته ، ويرتدى جلباباً أشبه بمسوح راهب ، يشتغل ثلاثة أرباع يومه وهو يجرع أقداحاً متعاقبة من القهوة ، ويكتب القصة تلو القصة ، عساه أن يفي بديونه ، وأن ينسى في غمرة العمل حسرته على إفتقاره لحياة الحب والعاطفة والسعادة الحق ! .

فلما فاجأته العاطفة وهو يائس منها ومندفع في الكتابة يريد أن يصور الطبيعة البشرية ، ويخلقها خلقاً ثانياً ، ويبدعها - أحس أن المرأة المجهولة قد أشرقت على حياته ، فتشبث بها ، وتلهف على شئ من الراحة قربها ، وظل يتوسل إليها في رسائله أن ترحمه ، وتقبل عليه ، حتى أجابته إلى سؤاله ، فإلتقيا في سويسرا عام ١٨٣٣ ، وحدق فيها ذاهلاً مبهوتاً وإرتجف ! . أبصر إمرأة رائعة الجمال ، ذات جبهة عالية ناصعة ، وشعر أسود غزير ، وعينين واسعتين رقيقتين ، ونظرة حالمة وسنانة ندية أشبه بواحة صغيرة تلمع فيها المياه ، وتتراقص الظلال ! .

وإستوثق من أنها هي ضالته المنشودة وأمله المبتغى ، فهام حباً بها ، وكذلك هي عشقته عشقاً مبرحاً مازجت فيه بين الحب والإعجاب ، ورصدت عليه كل حياتها ! .

أخلصت للعبقرى إخلاص المرأة المضطهدة المحرومة التي تبحث عن حب واحد ، ورجل واحد ولا تطمع في أكثر من أن يقابلها حبيبها ولاء بولاء وإخلاصاً بإخلاص ! .

مكثا في سويسرا بضعة أيام ، ثم سافرت " مادم هانسكا " إلى بلادها ، ثم لج بها الشوق ، فإلتمست هي من " بلزاك " أن تراه ، فعادا وإلتقيا في ڤيينا بالنمسا حيث أبدع الروائي في ضوء المرأة وتحت تأثير الوحي المستمد منها قصته الرائعة " **أوجيني جرانديه** " .

وأحس الرجل المبدع الخلاق أن هذه المرأة هي حافزه ومثار قوته ، فازداد حباً لها ، وتعلقاً بها ورغبة في إبقائها إلى جواره بالزواج ، فتأثرت بعمق عاطفته ، ولكنها أبت أن تحطم حياة زوجها ، فوعدت الروائي بأن تتزوجه لو شاء القدر وتوفى العجوز قرينها ! .

إمتثل " بلزاك " لمشيئتها على مضض ، وعادت هي إلى روسيا ، ورجع هو إلى باريس ، وملأ نفسه الأمل في أن يلقاها في أوروبا مرة ثالثة .

وهنا وقعت المأساة ! .. أصيب زوج (الكونتس) بمرض عضال ألزمه فراشه ، فإضطرت المرأة للمكث بقربه ، والعناية بصحته عامين طويلين ، ولم تستطع إلا أن تراسل " بلزاك " وهى تحن إليه ، وتتمزق ! . وكانت رسائلها فى تلك الفترة تفيض حباً ! .

بيد أن " بلزاك " الذى كانت تصوراته قد إمتلأت بها ، والذى كان يعيش ويعمل وهو مشرئب العقل والقلب إليها - لم يطق بُعدها الطويل عنه ؛ فأحس أن حياته خاوية وروحه ظامئة إلى المجتمعات الكبيرة ، فإتصل بالسيدات المترفات ، وإنجذب إلى واحدة منهن تدعى " الكونتس دى فيسكونتى " ، وإرتمى فى بؤرة الشهوات ، ثم حزم أمره ذات ليلة ، فقطع فى لحظة كل صلة له بالمرأة وإبتعد ! .

إبتعد وندم وتاب ، ولكن بعد أن كانت " مدام هانسكا " قد عرفت خيانته ! . ترامى إليها نبأ الخيانة من إحدى صديقاتها فى باريس ، فثار ثائرها ، وتفطر قلبها ، ونهشت صدرها الغيرة ، فكتبت إلى " بلزاك " رسالة مريرة فى حسرتها ، قاسية فى صراحتها تنبئه فيها أنه لن يتلقى بعد الآن كلمة منها ، وأن كل شئ بينهما قد أنتهى ! .

وعبثاً حاول الرجل أن يسترحمها ، عبثاً حاول أن يقنعها بأنه قد تعذب بهفوة جسده ، وكفر عنها ! . أبت أن تسمع ، وأبت أن تكتب ، وأبت أن تصدق أنه مازال يحبها ! .

وهكذا كفت عن مراسلته ، فظل هو يكتب إليها ، ولكنها ترفعت عليه ، وصدت عنه ، وثبتت فى موقفها سبع سنوات ، سبع سنوات لم يرها فيها " بلزاك " مرة واحدة ، سبع سنوات لم تتفضل عليه فيها بكلمة واحدة ! . فأحس الرجل أنه بخيانته قد إستحق هذا العقاب ، فلم يحقد ، ولم ييئس ، وظل يحب (مدام هانسكا) ، ويخلص لها ، ويكتب إليها ، ويعف عن النساء ويأمل رحمتها وعودتها وصفحها وهو يتمثلها ، ويصرخ فى وحدته كمعتوه ! .

وإنطلق " بلزاك " يكتب مضحياً بنفسه منتقماً من ذاته مكفراً عن خيانته بالعمل المتواصل المرهق الشاق ، فوضع فى تلك السنوات السبع أكثر من ثلاثين قصة كبيرة ، فإستفاضت شهرته ، ولكن صحته كانت قد إعتلت ، وبدأت الأمراض تهاجمه ، فيئس كل اليأس من عودة حبيبته إليه ، وفكر أن يكف عن الكتابة ، ويدخل إحدى المصحات ! . وعندئذ تسلم من (مدام هانسكا) خطاباً

أنبأته فيه بأن زوجها قد توفى ، فأخذته من فرط الدهشة والأمل فرحة مخبولة ، وكاد يغشى عليه ! .

أيقن وهو يقرأ الرسالة الأولى التى تلقاها بعد سبع سنوات من الصبر والحرمان والعذاب - أن المرأة ما تزال تحبه ، وأنها قد غفرت له خيانته ، وأنها مادامت قد كتبت إليه اليوم وهى حرة - فهى إذن تريده ، وهى إذن تطلبه ، وهى إذن تود أن تصل حياتها بحياته ! . فأسرع وأفضى إليها فى خطاب رائع بكل ما قاساه وهو بعيد عنها ، ثم عرض عليها الزواج ، وسافر إلى بطرسبرج وإلتقيا معاً ، وكانت المرأة قد إكتهلت ، وخط شعرها الشيب ، وكان هو قد إكتهل أيضاً ، وشحب وجهه ، وضمرت تقاطيعه ، وأنهكته أمراض المعدة والقلب ، ولكنه لم يشعر بما طرأ على المرأة من تحول وكذلك هى لم تشعر بما بدا عليه من إنهاك ! .

رأى كل منهما الآخر بعين قلبه وشبابه ؛ فإستفاق حبهما ، وإنبعث فى مثل لمح الطرف جارفاً عاتياً كما كان ! .

بيد أن المرأة ظلت مترددة وقلقة ! . خافت الزواج بحبيبها ، لأن غريمتها " الكونتس دى فيسكونتى " كانت تعيش على مقربة منه فى باريس ، فإنخلع قلب بلزاك ، وأكد لحبيبته أنه قد قطع كل صلة له بتلك السيدة ، وأنه قد عف عن النساء جميعاً ، ولم يعرف طوال تلك السنوات السبع أية إمرأة ! . ومع ذلك فالطمأنينة لم تحل فى نفس (مدام هانسكا) إلا بعد أن شاء القدر ، وهجرت غريمتها فجأة باريس ، وإستقرت هى وأهلها فى إيطاليا ! . وإذ ذاك أطلقت المرأة العنان لحبها ، ووثقت كل الثقة بحبيبها ، ووعدته بالزواج راضية ومختارة ، على أن تسافر قبل ذلك إلى بلادها ، وتؤدى ما عليها لإبنتها (الوحيدة) من واجب مقدس .

وسافرت والعزم يحتويها ، وإرادة السعادة بعد طول العذاب تحثها وتدفعها ، فزوجت إبنتها ، ونزلت لها عن الضياع والأملاك التى ورثتها عن زوجها ، وإكتفت بأن ضمنت لنفسها دخلاً كل شهر ثابتاً ، ثم عادت إلى باريس بعد نحو عامين وملء صدرها اللهفة على تحقيق حلمها ! .

ولكنها ما إن إلتقت هى " وبلزاك " ، وما إن وقعت عيناها عليه ؛ حتى إرتعدت فرائصها ، وأصابها من فرط الرعب شبه ذهول ! .

أبصرت الرجل متداعياً هرماً ، حطمه جهده الخارق فى العمل والإنتاج ، رجلاً أصفر الوجه ، غائر القسمات ، أحسر البصر ، يجر نفسه إليها جراً ، ويتحسس طريقه نحوها فى لوعة وأسى ، باكياً على نفسه ، يصرخ ويردد أن جسده الجبار قد تقوض ، وبصره الوضاء قد تلبد ، وأنه لم يعد فى وسعه أن يقرأ ويكتب ، ويبدع للناس أيضاً أروع الأعمال ! .

وتجاه هذا المشهد الفاجع ، تجاه الرجل الصُلب المكافح الذى غاض جماله ، وإنطفأ سحره ، وإستحال فجأة إلى هيكل عظمى - لم تتبدل المرأة ، لم تتراجع ، لم يخالجها أى إحساس وضيع فى شبهة من تردد أو نفور أو إشمئزاز ! ، بل إضطرم حبها ، وإشتعل حنانها ، وتمزق قلبها شفقة ورحمة على الكاتب العبقرى الذى لم يكن قد أكمل عامه الواحد والخمسين ! .

وقررت ألا تتخلى أبداً عنه ، وأن يكون شريكها فى الحياة ، حتى تلفظ النفس الأخير ! .

وتزوجته وخدمته ، وبذلت المستحيل كى ترد إليه وقدة الصحة والنشاط والفرح ، ولكن العبقرى المسكين كان قد إستنفد قواه ، وكان يكافح ويصارع ويأمل على غير جدوى ! . فلم يعش مع حبيبته غير خمسة أشهر ، خمسة أشهر فقط ! . ثم مات بين ذراعيها وهو يقبلها ، ويلثم يديها ، ويبتسم ! .

شخصيات لا تنسى ..

(٣٢) الأم تيريزا



المرأة التى أحبت كثيراً

إنى أتوق إلى أن أظهر للناس جميعاً عظمة الفقراء ، وحاجتنا إلى الفقراء توازى حاجتهم إلينا ، بل إن إتصالنا بهم يزيدنا قوة ، ويجعلنا أفضل !

فى مدينة سكوبى بيوغسلافيا ولدت طفلة جميلة لأبوين ألبانيين : كان والدها صاحب متجر بالمدينة ، وكانت أمها سيدة البيت الشابة التى تنتظر عودة الأب من عمله طوال اليوم وهى منكبة على ما يلزم بيتها من عمل وإعداد للطعام ورعاية الطفلة التى رزقتها ، وأخذت تعنى بها ، وتتابع تطور نموها وأول إبتسامة لها .

سعد الأبوان بطفلتهما وهى تحبو على أعتاب الحياة ، كانت طفلة سعيدة ، نشيطة الحركة ، متعلقة حباً بأمها ، وما إن يدخل أبوها البيت حتى تتعلق برقبته تنظر إليه وتبتسم ، وتطلق ضحكاتها الطفولية البريئة وكأنها تقول له : مرحباً يا أبى بعودتك ! .

وكثيراً ما كان يحضر لها بعض الحلوى ، وكانت هى تسعد بقطع الحلوى ، لكن سعادتها كانت أكبر لوجوده ، وخصوصاً حين تعتلى كتفه ، وتحاول أن تمسك ببعض الحمائم القيشانى المعلقة بسقف حجرتها للزينة ، فتحدث رنيناً جميلاً ، على حين كانت الأم تداعبها من حول كتفى الأب يمنة ويسرة والصغيرة تكتشف أين تقف الأم ، وتطلق ضحكاتها المتهللة دون أن تنزل عن كتفى أبيها ، وكأنها تريد التشبث بهذا الحنان الجارف الذى يدفئ كيانها الطفولى فى أروع تكوين بوجود الأبوين معها وحولها ! .

وهكذا شبت " تيريزا " على الحب ، رشفته مع كل ساعة وكل يوم من طفولتها الندية ، ثم صباها حتى أصبحت صديقة لأمها التى علمتها بالمثل والنموذج كيف يكون الحب ؟ . ووجهت عينى الإبنة وضميرها إلى حب الله ،

وكيف يكون حب الله نبعاً لا ينضب لحب الآخرين ، وخصوصاً المحتاجين للحب . . . الذين لا يعثرون عليه ؟ .

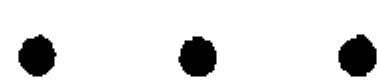
تعلمت " تيريزا " المحبة على يدى أبويها ، ومن رجال الدين ببلدتها . ومن قراءاتها أيضاً عرفت أن للحب نوعين :

الحب الحالم الذى يدفع صاحبه إلى التعبير عنه بصورة مباشرة سعياً وراء الإستحواز على إعجاب الآخرين ؛ حتى إننا قد نجد شخصاً على إستعداد للتضحية بحياته بشرط أن يتحقق ذلك على مرأى ومسمع من العالم ، وكأنه يقف على خشبة المسرح ؛ حتى تقام له حفلات التأبين ، وتنثر على قبره الزهور !

أما الحب الفعال فيتطلب من الإنسان عملاً شاقاً متواصلاً وجداً طويلاً ، وذلك هو الحب الحقيقى ، حب الإنسانية ؛ وقد يأتى الوقت الذى يشعر فيه المرء أنه برغم عمله وصبره يبعد عن هدفه الحقيقى بدلاً من الإقتراب منه ، ولكنه فى الحقيقة يكون قد حصل عليه ! .

ذلك أنه سيدرك فى لحظة ما أن هناك قوة تصل إلى حد الإعجاز ، هى قوة الله ، تلك التى لم تتوقف لحظة عن رعايته وحبه وارشاده نحو هدفه ، إنه حب الله ، الحب الذى إذا دخل قلباً ملأه بحب البشرية كلها .

أحسّت " تيريزا " الشابة بنداء داخلى يشدها إلى العطاء ، عطاء حبها لكل المحتاجين إليه من المعذبين المعوزين ، من الذين يموتون وتأكلهم الفئران وقت احتضارهم ! .



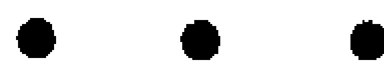
وفى الثامنة عشرة من عمرها استأذنت والديها لتلبية رغبتها فى أن تصبح اليد الممدودة ؛ لترحم المحتاجين للرحمة .

وقضت الشابة الجميلة بضع سنوات فى الدير ، ثم أحست بدافع قوى إلى تركه للعمل فى أحياء الفقراء ، فذهبت إلى بلدة " باتنا " بالهند حيث بدأت هناك بالتدريس لفتيات الطبقة الراقية فى كيفية خدمة المجتمع .

وفى تلك الأثناء لاحظت الفرق الشاسع بين المترفين الذين يتلقون العلم من بنات الطبقة الراقية وبين حياة الفقراء المعدمين الذين يعيشون على الكفاف ، وشعرت أنه أصبحت لزاماً عليها أن تخدم المرضى المعدمين ، فدرست

التمريض فى عام ١٩٤٨ ، وأقامت مدرسة فى أحد الأحياء الفقيرة ، وإنضمت إليها بعض الراهبات من تلميذاتها ، وبدأن يعملن فى صبر وجلد فى التدريس لجيل من الفتيات لخدمة المعدمين المعوزين ! . ولم تكن حالتهن أفضل كثيراً من حياة تلميذاتهن ؛ فقد كان لديهن من الخبز ما يكفيهن يوماً بيوم ! .

ولم يفارق " تيريزا " إيمانها بأن الله سوف يعينها على القيام بالواجب الذى نذرت نفسها له ، ثم تحسنت حالتهن قليلاً حين تم تدبير مكان أفضل للمدرسة يكون مركز إنطلاق لخدمتها مع مجموعة من المتعاونات معها بين فقراء الهند .



وبعد عامين من العمل الشاق والتدريس - بدأت " تيريزا " ومن معها فى العناية بالذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، وكان هذا عملاً جديراً بالإعجاب حقاً .

وبين ما رأت " تيريزا " فى أثناء خدمتها سيدة تحتضر فى الطريق وقد تكاثرت حولها الفئران ونهشت بالفعل جزءاً من قدميها وهما مازالتا تدميان ، فنقلتها إلى المستشفى ، وأصرت أن يجدوا مكاناً لها ، ولم تتركها إلا وقد اطمأنت إلى أنها تلقى الرعاية اللازمة ، ثم اتجهت مباشرة إلى مجلس المدينة ، وطلبت من المسئولين فيه أن يعطوها مبنى لتنقل إليه مرضاها وجرحاها حيث إنها وجدت كثيراً من الحالات المشابهة لتلك السيدة .

وظلت " الأم تيريزا " تقوم بمهمتها هذه طيلة ربع قرن نقلت خلالها المحتضرين فى الطرقات والأزقة إلى ذلك المبنى الذى خصص لذلك ، وبرغم أنها لا تحتفظ بسجلات فقد قدر عددهم بنحو خمسين ألفاً ! .

وهؤلاء المحتضرون ضحايا العوز والجوع أو ضحايا المعارك التى تنشب بين الحين والآخر لأسباب تقديس الأبقار عند طائفة دون الأخرى هناك ! .

وكلما إنحنت " الأم تيريزا " على متألم فى الطريق كانت تنحنى وتحنو على نموذج للإنسان المتألم فى هذه الدنيا بغض النظر عن ديانته أو مذهبه ! . كانت تعطى ما يمكنها ، وتتحنن دون تردد على هؤلاء المساكين دون تفرقة ! .

وكان شعارها فى العناية بالمحتضرين مع زميلاتها " كرامة الموت " حتى لا تنكل ظروف الحياة الضيقة الضائقة بالإنسان المحتضر ، ولضمان ظروف لائقة باقتراب المنية للمثوى الأخير ! .

وفى الوقت الذى كانت تمنح فيه " الأم تيريزا " عنايتها للذين يفارقون الحياة إهتمت أيضاً بالذين يقبلون على الحياة من المعوزين ، فأخذت على عاتقها جمع اللقطاء من الطرقات وهى تردد صلاة :

" يارب يا من تعطى الجميع ، تعطى زنابق الحقل والطيور ، فثقتى أنك تعطى هؤلاء الأطفال الضحايا الأبرياء " .

وكانت " تيريزا الأم " تجمع هؤلاء اللقطاء فى مركز خاص حيث تعاونها وافدت من بلاد أخرى ، وفتيات من أهل البلدة فى تنشئتهم وتعليمهم .

واتسع قلب " تيريزا " المحب أيضاً لمرضى الجذام ، فكان المرضى بهذا الداء يأتون إليها لاجئين بعد أن تضيق بهم الحياة عندما يطردون من أعمالهم ! . فكانوا يجدون المأوى والرعاية والحنان عند الأم تيريزا فى الوقت الذى يلفظهم فيه المجتمع ، وينفر الناس من حولهم خوفاً من العدوى عملاً بالمثل القائل : " إهرب من المجزوم ، ولا تهرب من الأسد ! " .

ورعاية " تيريزا " للمجذومين كان للعلاج ، ثم التأهيل المهنى لمن يشفى منهم ، واهتمت حكومة الهند فمنحتها أرضاً مساحتها ٣٤ هكتاراً أقامت فوقها مركزاً للتأهيل المهنى ، وكانت تقول : إننا نعمل لتأهيل من شفى من مرض الجذام ؛ ليتعلم مهنة يكسب منها عيشه بدلاً من أن يمد يده إلى الناس ! .

لم تتأفف " تيريزا " من حياة الذين وهبت لهم حياتها من سكان الأكواخ بالأزقة الموحلة ، ولم تتوان عن منح حنانها للمعدمة التى جلست تحت أشعة الشمس تنظف شعر طفل أشعث ! . ولم تتردد فى زيارة أطفال المدرسة المجاورة لذلك الكوخ ، وهى مدرسة من غرفتين ، صنعت جدرانها من حُصر الخيزران المطلى بالقطران ، وصممت مزاريبها من صفائح زيت الصويا القديمة ، فدخلت وحملت الهدايا البسيطة للقلوب الصغيرة وهى ترتدى ساريها الأبيض كملك يحمل الرحمة ، ويقدم السلوى ! .

و " تيريزا " لم تبدأ خدمتها بثروة طائلة ؛ فقد كان كل ما معها وقت قرارها بخدمة فقراء الهند دولارين ! ، أما بقية ثروتها فكانت غنى فى القلب ورحمة تملأ جوانحها للمحتاجين ، فطرقت أبواب الأكواخ توزع من تلك الثروة التى لا تقارن بمال ، وأحاطت بذراعيها القويتين أطفال الهند الحفاة ، وعلمتهم تحت

شجرة أو داخل كوخ أو على حافة نهر ! . وقضت من سنوات خدمتها بعض السنين فى كلكتا حيث علّمت الصغار الذين يصادفونها ، وتنجح فى جمعهم - قواعد الصحة والنظافة ، وقدمت الدواء للمحتاجين إليه من المرضى والطعام للجائعين ! .

وبقدر ما كان عطاؤها سخياً بمشاعرها ورغبتها الصادقة فى الخدمة بقدر ما كانت إستجابة بعض الأهالى من الهنود أيضاً ، بالإضافة إلى معاونة الحكومة الهندية : فخصصت إحدى العائلات طابقاً من منزلها ، وأهدت لها عائلة أخرى أثاثاً إضافياً يكفى رفيقاتها الإقامة .

وتذكر إحدى الراهبات من رفيقاتها أنها رافقتها فى جولة دلتها خلالها على بيوت الموسرين ، وعلمتها كيف تطرق أبوابها ؛ كى تطلب طعاماً للأطفال الذين تأويهم ؟

وتتذكر تلك الراهبة فتقول :

" لقد غمرنى خجلٌ قاتل ؛ إذ لم أكن أرغب فى ذلك ، لكن الأم تيريزا قالت لى : أيتها الأخت ، إن ذلك واجبك ؛ فبعض الناس يفضل عندهم طعام كثير ، على حين يتضور الكثيرون من الصغار والكبار جوعاً ! " .

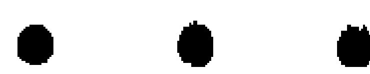
وأضافت زميلتها الراهبة : **" كثيراً ما كان أصحاب البيوت الغنية يرمون إلىّ الطعام على الأرض ، ويوصدون أبوابهم فى وجهى طالبين منى ألا أعود ! ، لكن كنت دائماً أقول لنفسى : سوف أعود من أجل الرسالة التى وضعها الرب على كتفنا : إشباع الجياع من فقراء الهند " .**

وكانت " الأم تيريزا " تمر على منازل الأثرياء مع زميلاتها طالبة الطعام والكساء للنزلاء الذين ترعاهم من لقطاء ومجذومين ومحتضرين ومعدومين . . . إلخ .

كانت " الأم تيريزا " تؤمن بأنه على المرء أن يفعل كل ما هو ممكن ، لا يبخل بجهد ، ولا يضيّع وقتاً من أجل تأدية رسالته . وإذا قام المرء بأداء هذا الممكن فإن الله يكافئه بأن يصنع له غير الممكن فى نظره .

لقد بدأت " الأم تيريزا " خدمتها بنحو الدولارين فأعطاها الله عدة مراكز ومنشآت وبيوت لتأوى آلافاً من المحتاجين للرحمة ! .

تعودت ألا ترد طلب أحد للمعونة ، مهما كانت كبيرة ، فإذا إحتاج نزلاء مراكزها إلى الطعام وكان مخزونه قد نفذ فإنها لا تتردد فى أن تطرق أبواب الأغنياء ! . وإذا إحتاج شاب فقد إحدى ساقيه إلى ساق صناعية طلبت من أحد الدبلوماسيين فى كلكتا السعى لتلبية حاجته ، وإذا طلب رب أسرة تعيش على رصيف الشارع إيواء بناته لا تتأخر فى تدبير المكان الملائم ! .

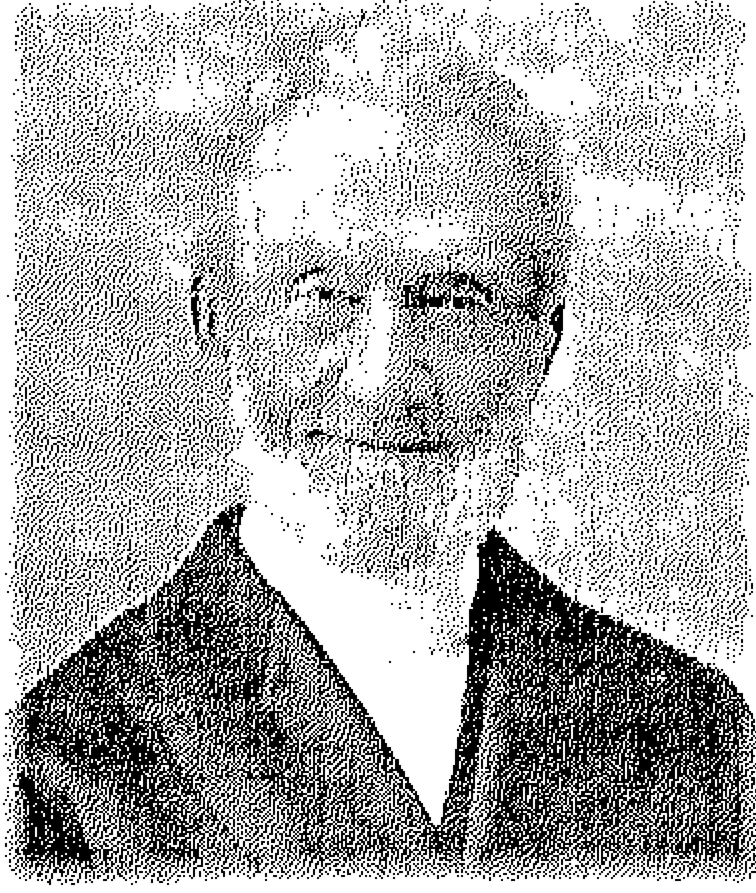


وفى عام ١٩٧١ دُعيت " الأم تيريزا " إلى روما حيث تسلمت جائزة السلام الدولية من بابا روما آن ذاك يوحنا الثالث والعشرين ، بالإضافة إلى جائزة قدرها ٢٤ ألف دولار ! . ففرحت بالمبلغ ، وعادت فوراً إلى الهند حيث أقامت مجمعاً نموذجياً لرعاية مرضى الجذام فى جنوبىّ البنغال ، كما خططت بيوتاً جديدة للمحرومين ! .

وذاع صيت " الأم تيريزا " فى أنحاء الهند بل فى أنحاء العالم ، وحصلت على جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٧٩ .

وبالإضافة إلى جائزة السلام الدولية وجائزة نوبل للسلام حصلت تلك المرأة على جائزة تنافس فى عظمتها جبال الهملايا ، ثروة تملاء قلوب الملايين من البشر ، ثروة حب كبير للمرأة التى أحبت كثيراً ، ووهبت سنوات شبابها وحياتها كلها للمحتاجين للحب والمعونة وهى تقول :

" إن إتصالنا بهم يزيدنا قوة ، ويجعلنا أفضل ! " .



شخصيات لا تنسى ..

(٣٣) جورج موللر

فى الوقت المناسب

يا فتاح يا عليم .. يا رزاق يا كريم .. عليك توكلت . نعم .. عليك توكلت ؛ فهذا صباح جديد فى سلسلة أيامك المتماثلة يا (جو) .

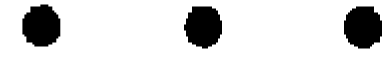
هكذا حدّث يوسف نفسه وهو يتثاءب ويقفز من فراشه فى الحجرة الصغيرة المظلمة التى يسكنها فى إحدى ضواحى مدينة برستول . وفى دقائق معدودات كان قد وضع سترته الجلدية العتيقة ، وحذاءه ذا الرقبة العالية ، وأمسك بعصاه وقبعته ، وإندفع نحو الطريق .

كان يوسف رجلاً فى منتصف العمر ، يعيش خارج المدينة ، ويعمل سائقاً - أو بالأحرى حوذياً - لدى شركة من شركات الألبان ، يقود عربة كبيرة تجرها البغال . وفى الطريق إلى العمل أخذ يوسف يؤنس نفسه بالغناء تارة وبالصفير أخرى ، على أنه فى كلا الحالين كان يدب على أرض الشارع بحذائه العتيق ، الذى أحاط نعله بطوق من الحديد ، حماية له من التمزق .

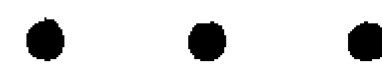
وقبل أن يحيى يوسف شرطى الحراسة الليلية ، بادره الشرطى قائلاً : إخفض صوتك يا يوسف ، وكُف عن هذا الضجيج المزعج ، ألست تعلم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً ؛ فلماذا صحوت اليوم مبكراً والناس نيام ؟ ، وضحك الشرطى وهو يضيف قائلاً : قلت لك ألف مرة أن غناءك لا يحتمل ، فلماذا تقدم لنا هذه الهدية الإجبارية فى كل صباح ؟ . صحيح أن الناس هنا طيبون متسامحون ، لكن هذا لا يبيح لك أن توقظهم فزعين من هذا الصوت الـ ... ها ها .. الجميل .

وضع يوسف يده فى يد الشرطى محيياً وهو يقول : لا تؤآخذنى يا جاك ، فلم أكن أعلم أن الوقت مبكر هكذا ، فأنا لا أحمل ساعة فى جيبى ، وبالطبع لا أملك ساعة فى بيتى . إن ساعتى هى أم إبراهيم - زوجتى ، وهى عجوز مثلى ، وربما

أصـابها تلـف فـى أحـد (تروسـها) ، فأصـبحت تـؤخر تـارة ، وتقـدم أخـرى ! ، وضـحك يوسـف ملء شدقيه وهـو يقول فـى سـعادة بالغـة : علـى أنهـا - علـى أى حال - ساعة ذهبية .



وأكمـل الحـوذى طريقـه علـى مهـل ، بعـد أن أكتـشف أنـه بـدأ رحلتـه اليوميـة مبكـراً . قـال لنفسه : سـاعة كاملـة ! . كـان بإسـتطاعتى أن أنامهـا فـى الفـراش الدافئ .. سـامحك الله يـا أم إبـراهيم ، لا فائدة الآن من العتـاب ، سـأذهب الآن إلـى العمل مبكراً ، ولعلنـى أجد " روبـرت " الكسول قد فتح أبواب الأسطبل ، وأعد البغال ؛ فإذا تيسر لـى أن أبدأ جولتى مبكراً ، فسأنعم بالراحـة - سـاعة كاملـة - فـى وسط النهار . أما إذا كان " روبـرت " لا يزال نائمـاً ، فـأرجو أن لا يملكنـى الغيظ فـأفلق رأسـه الكبيـر ، ألا يكفـى أننـى لـم أنـل قسطاً وافـراً مـن النـوم ، فـضلاً عمـا تحملتـه اليوم مـن سـخرية الـشرطى مـن صـوتى . آه لـو لـم يكـن شرطيـاً ، لجعلتـه يعتـرف بحلاوة صـوتى راضـياً أو مرغمـاً - هذا البليد الـذى ينـام طـول النهـار ، ولا يفعل شيئاً بالليل سوى الوقوف هكذا كلوح من الخشب . علـى أى حـال - دعنـى مـن هذا وذاك ، فها أنا قد بلغت باب الشركة .



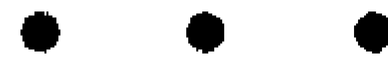
فـى فنـاء الـشركة ، كانـت العربـات ذات الفنطـاس قـد ملئـت بـاللبن ، وأعـدت لرحلاتهـا اليوميـة إلـى حيث تـوزع علـى الحرفـاء (الزبـائن) ، ومراكـز التوزيـع الصغيرة فى المناطق البعيدة .

وإتجـه يوسـف نحـو العربـة رقـم (٧) - رفيقـة عمـره . فـدار حولهـا دورتـين ، فحصـها بعين مدققة ، وقطـب وجهـه حين رأى إنبعاجـاً بسيطاً فـى أحد جوانبهـا ، فضلاً عن تقشير فى الطلاء حول الصنبور . وتملك يوسـف الغضب ، فإندفع نحـو عنبر التعبئة ، صـاح فـى وجـه العمـال والمشرفين ، وإتهمهم بالإهمـال فـى سـحب العربة . وأراد أن يجد الدليل ، فأخذ يفحص حـوائط العنبـر ، ومصـراعى البـاب ، وخُيل إليـه أن هنـاك أثراً مـن طـلاء عربتـه فوق مقبض البـاب المفتـوح . فـأرغى وأزبد ، ولعن وأقسم وهدد ، لكن أحداً لم يقبل دعاواه .

قال أحدهم : إذا كانـت العربـة قد إصطدمت بالبـاب ، فـلا بـد أن يكـون ذلـك قـد حدث بسبب حماقة بغلتك الرعناء أو سائقها ! . وهـاج يوسـف أكثـر مـن ذى قبـل ،

فهو لم يحتمل إهانة عربته وهى جماد ، فكيف به يحتمل إهانة بغلته وهى من دم ولحم ، ولها عينان واسعتان تعبر له بهما عن معانى الألفة والود الشديدين .

وأدرك أحد المسئولين بالشركة أن يوسف قد يخرج عن صوابه ، وقد يدفعه غضبه إلى عمل متهور من أعمال الحماقة التى تجد طريقها إلى أمثاله من العمال البسطاء الكادحين ؛ فأسرع إليه يستسمحه ويسترضيه ، ويعده بمساءلة المخطئ ، وإصلاح العربة بعد عودته فى المساء .



قبل أن يجر يوسف العربة ، ربت على ظهر بغلته السوداء ، أخرج منديله ومسح به وجهها - كان يريد أن يعتذر عن إتهام العمال لها . قال لها : إذا كنت قد سمعت شيئاً مما دار فى داخل العنبر ، فلا تغضبى ، إنهم عمال أجلاف غلاظ ، أما أنت يا بغلتى السوداء ، فقلبك يختلف عن جلدك ، إنه أبيض كاللبن الذى تحملينه .

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة حين تحرك يوسف بعربة اللبن نحو المدينة البعيدة . ولم يستطع أن يأخذ مكانه على المقعد الصغير فى مقدمة العربة كعادته ؛ إذ كان لا يزال متشككاً فى صلاحيتها بعد الصدمة التى تعرضت لها . كان الإنبعاج واضحاً على جانبها ، وتقشر الطلاء عنها ، وهذا قد يؤثر فى سلامة اللحام فيتسرب اللبن . قال يوسف لنفسه : لو لم يكن ما أحمله فى العربة سائلاً ، ما كنت لأشعر بكل هذا التوتر ، فليست مهمتى اليوم مراقبة الطريق فحسب ، بل مراقبة العزبة أيضاً ، وفحصها كلما إهتزت فوق عجلاتها الخشبية على الأرض الخشنة .

ولم يُكذب ظن يوسف ، فقد لمحت عيناه رذاذ اللبن المتدفق على أحد جوانب العربة . بدت النقاط وهى تنهمر من شق الصغير . خيل إليه أن عربته العتيقة تبكى ، وأن ما يراه ليس سوى دموعها البيضاء ! .

مسح الحوذى بيده رذاذ اللبن ، أغلق بكفه الشق الصغير ، توقفت النقاط إلى حين ، لكنها عادت تغمر كفه وتجرى على ساعده وتسقط من مرفقه .

وضغط الرجل بكفيه على جانب العربة ليوقف نزف اللبن ، وهاله أن رأى اللبن ينهمر بغزارة من الشق الذى إتسع من أثر الضغط عليه . وأسقط فى يده ،

فليس له الآن حيلة فى هذا الأمر . ولم يجد ما يفعله سوى أن يسقط اللعنات على عمال الشركة .

وإنحرف يوسف بالعربة إلى جانب الطريق ، صعد بها إلى رصيف الشارع ، فإندفعت العربة نحو فناء واسع ، وإتجهت البغلة إلى أحد الأبواب ، على حين ظل الحوذى خلف العربة يوقف بكفيه سيل اللبن ويتمتم بكلمات غير مفهومة .

وما أن لمح يوسف حارس المبنى حتى سأله عن هذا المكان الذى إقتحمته الدابة بلا إستئذان معرضة إياه للحرج . لكن الرجل لم يعبأ بسؤاله أو إعتذاره ، أو على الأرجح لم يفهم ما يعنيه ؛ فيوسف حين يضطرب لا يكون كلامه واضحاً ، والقليلون هم الذين يفهمونه فى كل الأحوال .

أعاد يوسف سؤاله ، فربت الرجل على كتفه وقال : نعم .. نعم ، إنه هو . كنا فى إنتظارك ، وقد جئت فى الميعاد ! . هذا هو المطبخ ، وسيفرغ الطباخون الحمولة حالاً ، أما أنت فأذهب وإغتسل فى الحمام المجاور .

قال يوسف : مهلاً يا سيدى ، يبدو أننى أخطأت طريقى ، فدخلت إلى هنا عفواً .

قال الرجل : لا .. لا .. بل إنك عرفت العنوان بسرعة ، ووصلت فى موعد مناسب رغم ما أصابك وأصاب العربة من دمار . والحقيقة أننى كنت أشك فى إمكان وصولك ، لكن الله صنع معجزه ، فإستطعت أن تصل فى هذه الساعة المبكرة ، وعليه فإن موعد الإفطار لن يتأخر دقيقة واحدة .

ولم يفهم يوسف شيئاً مما قيل ، بل إزداد حيرة وإرتباكاً . وبعد تلعثم وتردد قال : أسمح لى يا سيدى أن أقول لك شيئاً هاماً ، فالحقيقة أن البغلة هى التى إندفعت نحو الباب ، ولم أكن أقصد ذلك قط . ورد عليه الرجل بإبتسامة طيبة وقال : بكل تأكيد .. لابد أن تكون البغلة هى التى إندفعت نحو الباب فحطمت جانب العربة ، وهل يعقل أن تكون أنت الذى دفعتها ، أو أن يكون لك يد فى ذلك ؟ . لا تهتم فنحن نقدر موقفك .

وبينما كان يوسف يهرش رأسه بحثاً عن كلام مفيد ، جاء حشد من العمال ، ودفعوا العربة نحو المطبخ وفكوا أربطة البغلة . فصاح يوسف فى يأس : يا

إلهى .. أنا لا أكاد أعلم أو أفهم شيئاً مما يدور حولى ، بل إننى لا أدرى أين أكون الآن ؟ .

وإلتقط واحد من الواقفين سؤاله الأخير ، فأجابه قائلاً : أنت الآن فى الفناء الخلفى ، وإذ كنت تريد دورة المياه ، فهى إلى يسارك ! .

وجلس يوسف على الأرض بعد أن بلغ من الحيرة ما أعجزه عن التفكير والتصرف . قال يوسف لنفسه ، ما هذا اليوم المشئوم ؟ . هل وقعت فى يد جماعة من النصابين أو قطاع الطرق ؟ . إن ملامحهم لا تدل على ذلك ، لكن إندفاعهم نحوى ، وحركتهم السريعة ، ومعاملتهم الطيبة ، شلت تفكيرى ، وأخرست لسانى . وأنا - وإن كنت حوذيا ماهراً - إلا أننى لا حيله لى فى هذه المجتمعات الراقية ، وبين كبار القوم ، وفى داخل البيوت الكبيرة كهذه . الأرجح أننى غبى لم أحسن التصرف فى أول النهار . كان ينبغى أن أقصف رقبة واحد أو إثنين من عمال الشحن فى الشركة ، وأرفض الخروج قبل إصلاحه العربة ، أما أن أخرج بها وأفقد جزءاً منها فى الطريق والباقى هنا ، فهذه مصيبة فادحة . أبعد هذ العمر الطويل أتهم بتبديد اللبن ؟ . يا ويلك يا أم إبراهيم .. كيف أيقظتنى اليوم لهذا المصير ؟ .

وبينما كان يوسف مستغرقاً فى أفكاره السوداوية الحالكة ، إذ برجل مهيب الطلعة بإسم الثغر ، يشع من عينيه نور وصفاء ، وتكشف إبتسامته عما فى قلبه من محبة وسلام ، يتقدم نحو يوسف ، ويحنو عليه ، ويبادره بالقول : يبدو أنك فى حيرة وإرتباك شديدين يا أخى ، فهل أخبرتنى من بعثكّ إلى هنا ؟ .

وقال يوسف : لم يرسلنى أحد إلى هنا . بل جاء بى سوء طالعى ويومى المشئوم .

وضحك الرجل الوقور وقال : **بل أرسلك الله يا أخى ؛ ففى الخامسة صباحاً - أو قبل ذلك بقليل أخبرنى مدير المطعم أن ما لدينا من اللبن قد نفد عن آخره ، وأن الأطفال والصغار لن يجدوا لبناً للفطور فى هذا الصباح . وطلب أن يؤجل موعد الطعام حتى يسعى لإحضار بعض الجالونات من الحوانيت المحيطة . ورفضت أنا هذا الإقتراح ، فهو يحتاج لتحقيقه ساعات كثيرة ، ولا أظن أن الله يرضى أن يجوع الأطفال حتى نشترى اللبن ! .**

لذلك فقد أمرت أن تعد الموائد وقاعات الطعام وتوضع الأوعية الفارغة ، وتجهز الغلايات . فقد كنت واثقاً أن الله سيرسل اللبن - هكذا دعّونى الله على مر السنين . وذهبت كعادتى أتحدث إلى الله وأذكر حاجتنا . قلت له :

يا رب - أريد اللبن فى موعده وبكمية كافية ومجاناً ، فليس لدينا نقود . ووصلت إلى قلبى إشارة سمائية أعرفها جيداً ، تقول : سمعت طلبتك ، جاءتنى وما بها علم . وذهبت أنا لأنام هادئ البال ، على حين رن جرس الإنذار الإلهى ليوقظك مبكراً ويدفعك مع بغلتك وعربتك إلى هنا ! . أنظرها أنت ترى صفاً من الأطفال الأبرياء يتدافعون فى سعادة نحو المطعم ، فهل يعقل أن يترك الله هؤلاء الملائكة يجوعون ؟ .

كان الحوذى مأخوذاً بحديث الرجل الوقور حتى نسى مشكلته هو ، لكنه تنبه حين رأى الأطفال وأكواب اللبن فى أيديهم . قال : سمعتك يا سيدى تتحدث عن الأطفال والصغار ، فهل هذه مدرسه ؟ .

وضحك الرجل قائلاً : يمكنك أن تعتبرها مدرسة - إنها على الأقل - مدرسة لى أتعلم فيها كل صباح درساً عن أمانة الله ومحبته وسخائه وعطاياه وإستجابته للدعاء . ولكن هذا المكان " **ملجأ جورج موللر** " .

• • •

وعندما سمع الحوذى هذا الإسم ، قفز فى مكانه متهللاً ، وقال :

سيدى : هل أنت " جورج موللر " الذى تعول ألفى طفل وشيخ بلا معونة أو دخل إلا بالصلاة ؟ .

إنى على يقين الآن من أن صلاتك الواثقة فى أمانة الله تفعل المعجزات حقاً . فقد تذكرت الآن أن صاحب الشركة كان قد طلب منى أن أحضر إلى هذا الملجأ عربة من اللبن حين يتيسر لى الوقت ، لكننى لم أعط الأمر إهتماماً ، وها هى صلاتك قد أرغمتنى على التنفيذ فى الوقت المناسب .

(وقائع هذه القصة مأخوذة من إختبارات • جورج موللر • (١٨٠٥ - ١٨٩٨) الذى أشتهر بإسم الفقير الغنى ، فقد كان فقيراً فى ذاته غنياً فى إيمانه وثقته بالله فصنع الله به المعجزات ، وسكب على يديه الخير لألوف المحتاجين) .

(٣٤) روجر هرلنج

نور يخترق الظلام

أصيب هذا الرجل بالعمى مرتين ! .

هذا بالإضافة إلى متاعب صحية أخرى ، ومن خلال المرض والمعاناة واليأس والظلام ، لمس حكمة الله فى الشفاء والألم ، وتحمل ولم يفقد قدرته على الإبتسام ، والضحك من الأعماق ! .

عندما تتعامل مع " روجر هرلنج " تجد نفسك منجذباً إليه ، ذلك أنه يتمتع بطابع الشفقة والإهتمام التلقائى بمرضاه ، مع الحساسية المرهفة كمرشد روحى . وكمراقب حاذق للطيور يتعرف على أنواعها المختلفة من الخصائص الدقيقة لكل نوع منها ، كذلك ينظر إلى الناس بعين تدرك قيمتهم ، وتميز كل فرد منهم على حدة .

طرق المرض باب " روجر " عندما كان فى السابعة عشرة من عمره ؛ فقد أصيب عندئذ بمرض السكر ، ومع ذلك واصل دراسته للطب بحماسه السابق ، وتزوج فأنجب ثلاثة أطفال ، وأخذ يعمل فى عيادة مزدحمة ويستأنف دراسته ويقود مجموعة من الشباب ..

لكن طبيعة عمله المرهقة جعلت من الصعب عليه أن يحافظ على غذائه ومستوى السكر لديه بدقة ، فترك العمل ليدرس الرعاية الطبية وعلم النفس وبعد عشر سنوات خسر ذلك أيضاً ، إذ أصابه العمى .

بعد جراحة دقيقة مضنية أسترد بصره ليصاب بضربة شديدة أخرى ، فقد أشترى له إبنه قطعة جبن فرنسى كهدية ، حملت إليه " حمى مالطا " ، فقضى أربع سنوات فى حمى متقطعة وآلام شديدة بالمفاصل ورشح أنفى وأوجاع عامة بالجسم ، وصلت إلى مرحلة الأزمان ، وجعلته عاطلاً بعد أن فقد الأمل فى

الإلتحاق بعمل جديد كمحلل نفسى ، وهو العمل الذى كان يناسب طبيعة قدراته وإحتياجاته ودراسته .

عندئذ فقد بصره للمرة الثانية ، وإختبر العمى من جديد . لكن ترى ماذا كان قصد الله من هذا المرض ؟ . لقد أعادت إليه جراحة أخرى بصره جزئياً فى إحدى العينين فتملكته رغبة قوية ليكتب كتاباً عن " **مغزى المعاناة من خلال المرض** " .

• الشفاء مع الألم :

بحلول ربيع ذلك العام كان " روجر " قد أصدر كتابه وسماه " **كأشجار يمشون** " . ومع أن عمره كان ٤٩ عاماً فقط عندما كتب سيرته الذاتية تلك ، لكنها كانت الطريق التى خطا عليها داخلاً إلى البحث فى فلسفة إحتمال المرض وطلب الشفاء تمشياً مع إرادة الله .

وكطبيب إشتمل كتابه على رؤيا ذاتية ، مع دراية وخبرة طبية بهذا الموضوع . كما حوى الكتاب خلفية كتابية عميقة (مشتقة من الكتاب المقدس) ممتزجة بإختبار حى ذاتى جمع فيه تفهمه العميق للألم وترقبه للشفاء .

• ضربتان :

" بينما كنت أقرأ الصفحة الأخيرة من كتاب (النائبة) لجون فولز فى إحدى العطلات الخريفية ، بدأت الأحرف تضمحل أمامى حتى إختفت . كانت عينى اليسرى عمياء منذ ١٨ شهراً ، والآن ذهب بصر الأخرى ، كنت أعلم من الناحية البشرية أنها مسألة أشهر حتى أصبح أعمى تماماً ، وشعرت ساعتها بالألم يعتصرنى وأنا أتصور أنى سأعيش فى الظلام باقى عمرى .

كنت قد قرأت فى المجلات الطبية عن عملية ربط الأوعية الدموية النازفة خلف شبكية العين ، لكننى تصورت أنها عملية رهيبة لا تطاق " .

إستطاع " روجرز " أن يقرأ أول كلمة بعد ثمانية أشهر من العملية ، وكانت الحروف تسيل أمام عينيه كالماء . وإستمر نزيف عينيه لمدة أربعة أشهر بعد العملية ، وإستغرق أربعة أشهر أخرى حتى زالت آثاره . وبإستعادة بصره بدأ

يستجمع خيوط الحياة من جديد ، فبدأ يقرأ ويفلح الحديقة ، ويتنزه ويتكلم مع الأصحاب .

ولكن لم تمض بضعة شهور حتى أصيب بمرض غامض فى صورة نزلات تشبه الرشح ، مع إعياء وآلام فى الظهر ، وحرارة وسعال جاف . وبدأت زوجته تجيب على المحادثات التليفونية بدلاً منه ، وتلغى المقابلات والمواعيد السابقة وتبدد الأمل فى العمل بعد أن كان قد تجدد ، وتفرق الزملاء ، وكاد المال ينفد . ولم يكن سهلاً على " روجرز " مواجهة هذه الآلام ، مع أنه كان قد أختبر كيف يفتح الله الأبواب ويغلقها . وتبين أن ما يعانى منه هو أحد رجعات مرض " حمى مالطا " - التى أصابته جرثومتها بسبب قطعة الجبن المهداة له من إبنه سيمون ، الذى أصابه نفس المرض ، لكنه لم يزمن معه كما أزمن مع أبيه .

أمكن لروجرز المتعب أن يستفيق مؤقتاً من مرضه ، فذهب فى رحلة خلوية مع زوجته " جوى " إلى إحدى جزر إسكتلندا فى خريف ١٩٧٩ .

يقول روجرز :

" ذهبت إلى إحدى المقاهى فى مساء يوم حار ، ثم عدت وزوجتى لننام فى إسترخاء بعد تلك الأمسية الهادئة . وعندما إستيقظت فى الصباح فتحت عينى ، لكننى لم أر شيئاً ، وأغلقت عينى ثانية وقلت لنفسى : " لابد أنك تحلم " . وإنتظرت طويلاً قبل أن تواتينى الجرأة لأفتح عينى ثانية لأرى بحراً من الظلام . لقد عاودنى نزيف عينى ثانية " .

إنتظرت وقتاً طويلاً قبل أن أجرؤ على مصارحة جوى بما حدث لى ، وبكينا معاً طويلاً . فى ذلك الصباح تناولت الإفطار فى غرفتى بالفندق ، فقد كنت أكره مواجهة النزلاء الذين رأونى من قبل مبصراً . ومضينا معاً بأيدى متشابكة لا نقوى على الحديث ، بإحساس شديد بأن الله قد ظلمنى . كنت أقول لنفسى : لماذا لم ينتظر الله علىَّ بضعة أيام فى هذه الأجازة حتى أستمتع بمناظر إسكتلندا ؟ ، أليس هذا مسموحاً به ؟ " .

وبدأت " جوى " الحديث مع زوجها فى طريق العودة إذ أخذت تقرأ بصوت مرتفع من كتاب " **الآلام** " لمؤلفته " **إديث شيفر** " ، بينما إنتابت زوجها شتى الأحاسيس المرة . ولم يكن يحس إطلاقاً بأدنى رغبة فى التماسك أو تعزية

النفس ، غير أن مشاعر العزاء المنبعثة من أحاسيس الكاتبة أعطته شيئاً من التفكير يستند عليه حتى لا يغوص فى بحار اليأس . ولأن فكره كان يجول لسنوات طويلة فى موضوع " إحتمال الآلام " ، بدأ " روجرز " يتأقلم مع الأزمة . أنقذه إحساس الشكر لمن حوله وروحه المرحة من الغرق فى مرارة النفس . فعندما كان طالباً بعد ، لم يجد أى غضاضة فى تعلم إعطاء حقن الأنسولين لنفسه أو مراقبة غذائه . وكتب فى كتابه : " كأشجار يمشون " :

" كان لى كثير من العزاء والتعويض فيما أعطانى الله من بلوى ، فقد أدركت أنه تأنيب رقيق حقاً وممكن إحتماله بفضل قوة الله المؤازرة . وكان قد مر بأزمة روحية فى أثناء حضوره أحد المعسكرات الصيفية وهو بعد طالب بكلية الطب ، عبر عنها بقوله : " إقتنعت حينئذ عقلياً وعاطفياً بأن قصد الله من وراء حياتى هو الخير ، وأن كل مواقف حياتى ستئول لصالحى فى أى موقف أجتازه " .

• الأسرة تسانده :

مرت هذه الخواطر بذهنه فطيبت نفسه ، لكنه كان مهموماً من جهة أخرى ، إذ سرعان ما سيواجه أبناءه الثلاثة ووالديه بأنه صار أعمى من جديد ، عندما يعود من أجازته . وعندما عاد إلى عائلته التى إعتادت مرضه ، أظهرت إبنته الكبرى " سارة " ذات الخمسة عشر ربيعاً تعاطفها مع الموقف بصمت رقيق ولمسات حنونة من آن لآخر ، بينما تبنى " سيمون " إبنه البالغ أربعة عشر عاماً مسئوليته كرجل للبيت بالعناية بنظافة الحديقة وعمل مقاعد خشبية جديدة للجراج . أما " راش " البالغة عشرة أعوام فقالت لوالدها : " لقد قرأت لى كثيراً فيما مضى . والآن جاء دورى لكى أرد لك الجميل وأقرأ لك الكتب " . وسرعان ما بدأت القراءة والمناقشات بينهما .

ويلمع وجه " روجرز " وهو يتحدث عن عائلته قائلاً : **" رغم أننى إناء ضعيف ، أقعده العمى بطريقة مأسوية ، إلا أن سلوك زوجتى وأولادى من حولى بدل الموقف تماماً " .**

وعاد " روجرز " إلى كامبردج من جديد لعملية ربط أخرى للأوعية الدموية النازفة فى قاع العين . وكان يتأرجح ما بين العمى والإبصار ، بما تتطلبه كل

مرحلة من هاتين المرحلتين من تأقلم جديد ، فمن القراءة وتدوين الملاحظات عندما يبصر ، كان يتحول ثانية إلى سماع الشرائط وتسجيل ملاحظاته على الشرائط عندما يفقد البصر . وهكذا صار يتقلب ما بين الإعتماد على نفسه والإعتماد على الغير . وكان دعاؤه حينئذ :

" يا رب إننى أقبل العمى منك أو البصر . لكن أعطنى أحدهما فقط ، لا الإثنين ، فقد تعبت من عدم الإستقرار " .

وأصابت العملية نجاحاً كبيراً ، فعاد " روجرز " يبصر تماماً من جديد ، فعدل عمله وبدأ تدريجياً يتحول من ممارسة الطب إلى الكتابة ، فتميز أسلوبه بإستخدام الشرح الطبى ، متأثراً بخبرته كمرشد نفسى بأسلوب شجي رقيق . وما زال يقدم كتاباً بعد الآخر فى فن الإرشاد والمشورة .

• طلب الشفاء :

إستمد " روجرز " كثيراً من الراحة من رسالة الرسول بولس الثانية إلى أهل بلدة كورنثوس التى بالكتاب المقدس ، حيث يتحدث عن النور والظلمة ، عن **" شوكة فى الجسد "** . ومن ثقة بولس فى نعمة الله الكافية التى كانت وستستمر ، فيقول : **" السيادة لله دائماً ، ففى حياة الملك حزقيا كان شفاؤه فى الحال ، أما النبى أيوب فإنه صبر طويلاً لكى ينال نعمة الشفاء . لكن بولس عاش بشوكة الجسد إلى أن مات " .**

ويؤكد " روجرز " **أن المؤمن يجب أن يداوم على الصلاة . وهو يعلم أن إرادة الله السائدة على حياته هى التى ستقرر إن كان الله سيمنحه الألم أو الشفاء ، والله هو الذى يحدد وسيلة ذلك ، سواء كانت طبيعية أو طبية أو معجزية . وقد صلى هو نفسه كى يمنحه الله شفاء معجزياً ، لكنه أيضاً طلب قوة ليحتمل مرضه بإيمان ، وطلب أن يمنحه الله خدمة نافعة .**

وقد لاقى " روجرز " عتاباً رقيقاً من قادة كنيسته لأنه لم يركز فى خدمته على طلب الشفاء المعجزى من الله ، وركز رسالته بالأكثر على وجوب إحتمال للآلام بصبر وثبات . لكنه ما زال يؤكد دائماً على تجربة حزقيا وأيوب وبولس تحت يد الله الحكيمة .

وفى كتابه الأول " كأشجار يمشون " نرى إهتمامه القلبى العميق بالذين

يعانون المرض ولم ينالوا شفاء معجزياً ، وهم يعزون ذلك إلى قلة إيمانهم أو ضعف صلاتهم ، وهو حريص على أن يُلفتهم إلى الحال التي تقودهم إليها العلة ، إن أحسنوا التسليم لله ، وإلى المحتوى الإيجابي للمرض .

ويشرح " هرلنج " ، بإستفاضة الخبير ، الجذور النفسية والجسمية لإحساساتهم في فراش المرض . ويركز حالياً مجهوده في معونة المتألمين وتقديم المشورة لكافة طالبيها . كما أنه يشترك مع زوجته في مجموعات إرشاد المتزوجين ، باذلاً جهده في تذليل الصعاب النفسية التي تلاقيهم . وهو بهذا يساهم في إكثار الزيجات السعيدة التي لا تسعد طرفيها فقط ، بل أيضاً المحيطين والمجتمع . وإهتماماته بالعلاقات الإنسانية التي بدأت منذ دراسته وهو في سن الشباب ، وجدت الآن متنفساً كبيراً في كتاباته وإسهاماته العديدة في حل مشاكل المجتمع المحيط به .

وعندما يستيقظ " روجرز " كل صباح لا يعرف إن كان يومه سينتهي بسلام أو إن كانت أوجاع " الحمى المالطيه " ستعاوده . لكنه يقول دائماً إن زوجته هي شريكة كفاحه ، وإنها تحملت الآلام مثله وإن كان تحملها بطريقة مختلفة . إنهما بفضل نعمة الله متحابان وصابران وسعيدان .

ترى هل كنت ستضحك وأنت جوار شريك أعمى في منزل الزوجية ، تصنع له الكعك وتقدمه له وتأكلان فتضحكان كما تفعل جوى مع روجرز ؟ ! .

(قصة من الحياة : من مذكرات مكفوف)



شخصيات لا تنسى ..

(٣٥) دافيد لفنجستون

الحجر الذى عبر الصحراء

(الجزء الأول)

كانوا يلقبونه بـ " الحجر الحى " ، وأثبتت الأيام أنه يستحق أن ينادى بهذا الإسم ! . فقد كان شجاعاً جريئاً ذكياً متوقد الذهن صلباً قوى الإرادة .

لكن هذا لم يكن أعظم ما فيه ؛ فقد كان مثالاً غير مألوف لطيبة القلب والعواطف النبيلة ومراعاة الحقوق والمشاعر .

قال عنه المؤرخون : إنه طراز فريد من نوعه ، إنسان أسطورى يمثل أسمى ما يمكن الإيمان بالمبادئ أن يخلقه من الرجل ! .

• • •

قال نيل لزوجته ضاحكاً :

- إن إبنك هذا يجرى ويقفز ويتسلق الأشجار ؛ كما لو كان أبوه قرداً هندياً أو نسناساً أفريقياً ! . وهو حين يسبح فإنه يضرب فى الماء كواحد من أفراس البحر ! .

وإبتسمت الأم وهى تقول : دعه يلعب كما يشاء ؛ فهذه فرصته (الوحيدة) للعب قبل أن يذهب إلى العمل فى المصنع مثل أبيه وجده .

ورد نيل قائلاً : كم كنت أود أن يبقى فى المدرسة فهو يبدو ذكياً نابهاً ، لكن الحال كما تعلمين ! . ومن يدرى ؟ ، ربما يستطيع أن يتلقى بعض التعليم الأولى فى أوقات فراغه فهو مجتهد صبور .

قالت الأم فى دهشة :

- أوقات الفراغ ! . أضحكتنى يا زوجى العزيز ! ، ألست تعلم أن الصبيان فى

المطحن وفى مصنع القطن يبدءون أعمالهم فى السادسة صباحاً ، ولا يُصرَّفون قبل الثامنة مساءً ؟ . إنها ساعات كثيرة حتى بالنسبة للرجال ! ، فكم تكون ثقيلة على طفل فى التاسعة ! ، فليساعده الله .

لم يمض على هذا الحوار الهامس سوى أيام قليلة حتى شُوهد الطفل " داڤيد " خارجاً من المصنع بين مجموعة من الأطفال والصبيان ، وكان الأطفال يجرون فرحين ، ليتجه كل واحد إلى بيته ، أما " داڤيد " فكان يسير مسرعاً وقد حمل تحت إبطه كتاباً كبيراً كان قد إشتراه من حصيلة عمله فى الإسبوع الأول ، ولم يتجه " داڤيد " كغيره من الأطفال إلى البيت ، بل إلى أحد فصول تعليم اللغة ! .

كان الطفل قد وضع لنفسه منهجاً لم يحد عنه طوال عمره : لا يستسلم للتعب أبداً ، بل إنه يقاوم هذا الإحساس بمزيد من العرق والجهد ! لذلك فقد كانت مهمة أمه صعبة للغاية وهى تحاول فى كل ليلة أن تنتزعه من بين الأوراق وتدفعه للنوم ! . وإعتاد الأب أن يسمع هذه العبارة كل مساء حين تقول الأم لولدها : لقد جاوزت الساعة منتصف الليل يا " داڤيد " ، ولابد أن تنام الآن حتى تستيقظ فى الخامسة ، لتذهب إلى عملك ، إن الذين يعملون بين الآلات لابد أن يكونوا متيقظين دائماً يا ولدى ! .

والحقيقة أن " داڤيد " كان تواقاً للمعرفة بصورة ملكت عليه حياته ، فإلتمس الوصول إليها من كل طريق : فهو يجمع الأعشاب والأحجار ويجرى التجارب والفحوص ، إنه يدرس علم النبات والجيولوجيا وعلم التشريح مسجلاً ما يلاحظه تسجيلاً دقيقاً ، ولم يكن من السهل أن يعتمد على نفسه تماماً فى كل ما يدرس ، لذلك كان من الضرورى أن يلتحق بدراسة منتظمة ، ولأنه كان فقيراً فقراً مدقعاً ـ فقد إلتزم أن يعمل فى مختلف الحرف ليلاً ونهاراً حتى يوفر المال الذى يكفى إنقطاعه للدرس فى فصل الشتاء .

ليس عجيباً إذن أن نرى عامل المصنع وقد وقف بعد سبعة وعشرين عاماً على منبر جامعة أندرسون يتناول من عميدها شهادة التخرج فى كلية الطب ، وليصبح الدكتور " داڤيد ليڤنجستون " ! .

ولكنه لم يقنع أن يكون طبيباً فقط ، بل حصل على دراسات متنوعة فى اليونانية والفلك وعلم اللاهوت أيضاً ، بالإضافة للعديد من الحرف اليدوية .

والحقيقة أن " لفنجستون " كان يعد نفسه إعداداً خاصاً لمغامرة رائدة فى قلب أفريقيا " المجهول " التى كان قد سمع عنها الكثير من الغرائب التى تشبه الأساطير . **كان قلبه قد إمتلأ بالرغبه الجامحة فى أن يكرس حياته لخدمة الآلاف من السود البؤساء الذين يقاسون من شظف العيش وقلة المعرفة وقسوة الحياة ! . وفوق ذلك كله ما يعانونه من إنتشار الأوبئة والحميات المهلكة التى إجتاحت قلب القارة العذراء .**

• فليحرسك الله يا ولدى :

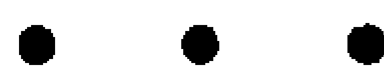
لم يكن السفر إلى أفريقيا فى سنة ١٨٤٠ م أمراً مألوفاً لدى عامة الناس فى إنجلترا ، بل لعله كان يشبه الرحلة إلى القمر فى أيامنا ، لذلك فقبل أن يتخذ هذا الطبيب الإنجليزى قراره النهائى فى أمر السفر - قضى وقتاً طويلاً يدرس الجوانب المختلفة ، ويسمع الآراء المتباينة ، كانت الأصوات تتداخل فى أذنيه ، فهذا يقول : أنت مجنون يا داڤيد ! ، هل تُلقى بشبابك بين أسنان المتوحشين الأفارقة ؟ .

وصوت ثان يقول : يا إلهى ! ، هذا الجسد القوى النضر تلتهمه الأوبئة والحميات فى الصحارى والأدغال الأفريقية ! .

وصوت ثالث يقول : لعل الطبيب الشاب يريد أن يعمل نخاساً يجلب العبيد ، أو يطمع فى كنوز العاج والأبنوس ! .

غير أن أرّق الأصوات التى كانت تهمس فى أذنيه ، فينخلع لها قلب داڤيد - كان صوت أبيه الشيخ إذ يقول :

- فليحرسك الله يا ولدى - أنت إنسان نبيل ، وأنا أعلم أنك قد وضعت حياتك على راحتك من أجل عمل نبيل مثلك ! . أنا محتاج إليك فى شيخوختى ، لكن دعوة الله لك لخدمة إخوتنا المساكين أجدر بطاعتك .



والحقيقة أن هذا اللقاء الأخير بين " داڤيد " وأبيه كان مليئاً بالعواطف الحارة التى تمزق لها قلب كليهما ؛ إذ كان قلباهما يحدثانهما أنهما لن يلتقيا مرة أخرى على هذه الأرض ! .

وفى المنزل المتواضع فى " بلانتير " وفى ليلة من شتاء سنة ١٨٤٠ إجتمع إخوة " داڤيد " من حوله فى حفل الوداع المتواضع البسيط ، ولم يكن لديهم من شئ يقدمونه له سوى الدعاء لله أن يكن معه ، وينجح طريقه .

وإبتسم الشاب إبتسامة الحب والثقة وهو يردد بعض الأدعية والصلوات :

" أرفع عينى إلى الجبال (إلى العلاء) من حيث يأتى عونى ،

معونتى من عند الله ، صانع السموات والأرض

لا يدع رجلى تزل

ويكمل الأب قائلاً :

الرب ظل لك

لا تضربك الشمس بالنهار ولا القمر بالليل

الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك ..

الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى أبد الدهر "

• • •

وفى الصباح خرب الأب يتوكأ على ذراع إبنه ، ويسير بخطوات ثقيلة إلى الميناء ، ليودع ولده العزيز .

ويا لهفى على قلب الأب المسكين بعد أن غابت الباخرة ليڤربول فى الأفق البعيد ! . ويضع الرجل الشجاع وجهه بين كفيه وينخرط فى البكاء كطفل صغير ، فقد كاد قلبه ينخلع من جوفه حين خطر بباله أن يكون هذا هو الوداع الأخير وشق عليه أن يعود إلى بيته وحيداً متوكئاً على عصاه .

• قلبه الكبير :

لعل الطبيب الشاب " لفنجستون " ، واحداً ممن قال عنهم الشاعر العربى المتنبى :

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت فى مرادها الأجسام

فلقد كان له قلب كبير إتسع لآمال عريضة إستنزفت جهده ، وأتلفت جسده ، لكن روحه ظلت قوية مضيئة عامرة بالحب والتضحية حتى الفناء ! .

فعندما وضع قدميه على أرض القارة السمراء أدرك أن هذا الميدان الفسيح لا يحتاج إلى طبيب أو رجل دين أو مغامر أو مكتشف أو فلكى أو جندى أو صانع أو فلاح ، بل يحتاج إلى رجل أسطورى له كل هذه المواهب وتلك الوجوه ! .

كان قدره - أو رسالته - أن يكون المعلم والطبيب والعالم والعقل المدبر ، وفوق هذا كله أن يكون الخادم الوفى الذى يستمد مثابرته على العمل الشاق من إيمانه برسالته النبيلة وثقته بأن هذا العمل تكليف سماوى يؤمن بأنه سيعطى عنه حساباً أمام ربه وسيده .

آمن " لفنجستون " أن هؤلاء الأفريقيين البسطاء إخوة فى البشرية ، قدر لهم أن يعيشوا فى حياة بدائية متخلفة عن ركب الحضارة ، لكنهم بشر لهم قلوب نابضة وأحاسيس إنسانية ، إنهم ليسوا وحوشاً كاسرة وإن إختلفت نظرتهم إلى الجريمة والقتل ! .

وإمتلأ قلبه الكبير بالحب لهم ، وكان لابد له أن يبنى الجسور والمعابر التى ينفذ منها إليهم مهما كان الأمر شاقاً .

وقد بدأ هو الخطوات الأولى : فتعلم اللغات واللهجات الدارجة ، وتعرف على العادات والتقاليد المتوارثة ، وإستوعب القوانين السائدة ، ودرس العبادات المقدسة وتابع جذورها ومصادرها ؛ حتى صَار كواحد من قبيلة " الباكوينا BAKWENA " ، وأدرك الرجل أن الجهل العميق وليس القلب الشرير - هو الذى يقف حائلاً بين هؤلاء المساكين والحياة الكريمة ، فكان عليه أن يفتتح فصولاً لتعليم الناس .

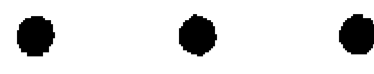
ولم تكن هذه المهمة سهلة ، بل هى أشبه بحفر بئر عميقة فى صخر نارى ! . وكان عليه أن يضع قواعد اللغة ، ويبسط العلوم ، وييسرها ، ثم كان لزاماً عليه أن يقنع الرؤساء والآباء وزعماء القبائل بجدوى هذا التعليم الذى سيضيع وقت الرجال والشباب فى شئ لا يعرفون له ضرورة أو سبباً ؛ إذ هم لا يعرفون الوظائف الإدارية أو الأعمال الكتابية عامة ! .

فلما إنتظمت الفصول كان عليه أن يقوم بدور المعلم والمدرب أيضاً ، فهو يعلم

القراءة والكتابة مع الفنون والحرف كافة ، ثم يقدم الجوائز والهدايا التى كثيراً ما كلفته قوته اليومى ! .

ونظم دراسات فى تنظيم البيت والحياكة للفتيات والنساء ؛ فقد كانت نوافذ النور مغلقة لسنين طويلة ، وكان لابد أن يفتح كل النوافذ المغلقة ! .

غير أن التعليم لم يكن ، همه الوحيد ، إنه ليس معلماً محترفاً ، وليس التعليم إلا واحداً من السبل التى تؤدى بالقوم إلى حياة أفضل ، لذلك فقد إهتم الرجل بحياة أصدقائه السود ومشكلاتهم الخاصة فى مزارعهم ومراعيهم .



ولعل قصة الأسد الشهيرة فى حياته تعكس جانباً من حبه وقلبه الكبير ، فضلاً عن شجاعته وإخلاصه النادرين : فقد علم أن أصدقاءه فى الوادى الساحر يعانون كثيراً من هجمات الأسود التى كانت تسطو عليهم ، وتأكل ماشيتهم . وفكر " دافيد " فى الأمر كثيراً . وبإحساس عميق بمسئوليته كإنسان نحو من يحبهم - خرج إلى الوادى الخطير ، وتتبع آثار الأسود المتوحشة ، وعرف أنها تكون تشكيلاً جماعياً له قيادة وخطة هجوم ثابتة . وكان يعرف من قراءاته المتنوعة أن جماعة الأسود لا تعود إلى منطقة هجومها إذا قُتل أحد أفرادها أمام أعينها .

كان المطلوب إذن أن يتقدم أحد أبناء القبيلة المسلحين نحو مجموعة الأسود ، فيختص أسداً منها ، وينازله ويصارعه وعليه أن يقتله أمامها ، ويظهر تفوقه عليه بصورة مقنعة ، ولم يكن هذا بالأمر المعقول أو المقبول ، فأنياب الأسود الأفريقية ومخالبها التى تمزق الصخر كانت معروفة لهؤلاء الأفريقيين معرفة الإختبار والمعايشة أكثر مما يعرفها الغرباء البيض ! .

وكان لابد للرجل الطيب صاحب القلب الكبير أن يتصدى لهجمة الأسود الجائعة . وكان اللقاء الدموى هو الذى فقد فيه الطبيب الشاب ذراعه وتهشم كتفه ، لكن الأسود هجرت الوادى الساحر إلى الأبد ! .

• حياة الرائد :

والرائد فى أى ميدان عليه تبعات كبيرة ، فهو إذا أراد أن يغسل ملابسه فعليه أن يجلب الماء من تحت الأرض ، وعليه أن يصنع الصابون أيضاً ! . وإذا أراد

أن يأكل فعليه أن يطحن ويعجن ويوقد النار " لينضج " خبزاً ! . وإذا أراد أن يبنى فعليه أن يقطع الخشب من الأشجار ، ويصنع قوالب الطوب ، ويصب الطوب ، ويبنيه بنفسه ؛ لأن " الباكوين والبشوان " لا يعملون الأشياء المربعة ، فأكواخهم البدائية نصف كروية ، ومع ذلك فقد أثار جهده الخارق إعجابهم وتقديرهم .

كان على الرائد أن يمارس الفلاحة والنجارة والحدادة وأعمال البناء .. إلخ .

على أن أهم أعمال الرائد المكتشف هى تمهيد الطريق لسواه ، وهذا ما وضعه " لفنجستون " نصب عينيه ، والذى من أجله تحمل من الآلام ما لا يتحمله بشر ! .

علم " لفنجستون " أنه لن يعيش طويلاً ، وهذا العمل الذى يقوم به لابد أن يكمله الآخرون ، ولكى يأتى الآخرون إلى هذه الأماكن الموحشة فى قلب أفريقيا ، وخاصة إلى مناطق المستنقعات والحميات - كان لابد أن يجد لهم طريقاً سهلاً : فالعبور إلى قلب أفريقيا حتى ذلك الوقت كان يمر بصحراء كالهارى الموحشة الشديدة الحرارة القليلة الماء التى تنتشر فيها المنخفضات السحيقة التى يسمونها " قدور الملح " .

وسافر الرجل على قدميه مئات الأميال ، وقطع المسافات الطويلة على ظهور الثيران وسبح فى الأنهار والبحيرات ، وخاض المستنقعات ، وبنى بنفسه القوارب الصغيرة ، بل وإشترى زورقاً وسفينه قديمة .

ونام " لفنجستون " فى العراء أو تحت الأشجار وعلى ضفاف الأنهار ، وهاجمته الوحوش والثعابين السامة وذباب التسى تسى ، لكنه إستطاع أن يعبر صحراء كلهارى من الجنوب إلى الشمال ، ثم قطع القارة من الشرق إلى الغرب فإكتشف نهر الزمبيزى ، ففتح بذلك الطريق إلى قلب أفريقيا دون ما حاجة إلى عبور تلك الصحراء الصعبة .

ولكنه فى الطريق أصابته الحمى المتقطعة ثلاثين مرة ، إلى جانب الدوسنتاريا والروماتزم .

وحين وصل إلى الساحل الغربى كان أشبه ما يكون بهيكل عظمىّ تغطيه خرق باليه ، وكانت هذه بعض أوجاعه الجسدية ، وما أكثرها ! .

• أوجاعه الكثيرة :

لم تكن قصة الأسد الذى حطم ذراعه ، أو الأمراض المهلكة هى كل الآمه ، بل كان هناك ما هو أكثر إيلاماً منها ، فقد تعرض لآلام نفسية ومعنوية أوجعت قلبه ، وأضنت روحه النقية ، فحياة الرجل ملحمة كفاح ! .

وعندما يقرأ المرء بعض مذكرات هذا الرجل - فإنه لا يعلم أى الآلام أوجعته أكثر من غيرها ؟ .

هل هو الجوع أو الأمراض المتوطنة أو هجمات الوحوش والحشرات ؟ .

هل كانت مشقة الأسفار والنوم فى الأحراج على أرض رطبة شهوراً متتالية أو الآم الحرمان ، أو فراق الزوجة والأبناء ؟ .

إن الرجل لا يتحدث عن هذه المتاعب كثيراً ، لكن أوضح آلامه كانت تلك الآلام النفسية التى كثيراً ما أوجعته برغم قوته وصلابته وإيمانه الشديد بالله ، ولم يكن ليستطع أن يقهرها لولا الصلوات الحارة التى كان يرفعها لله فى كوخه الصغير .

وقد ذكر مرة كيف تألم كثيراً حين توجه إليه جمع من الباكوينا يشكون من إنقطاع المطر وجفاف المزروعات ، ويرجونه أن ينزل الأمطار ؟ .

وعبثاً حاول الرجل إقناعهم بأن هذا فوق قدرته ، لكنهم لم يصدقوه ؛ فقد كانوا يعتقدون أن رئيس قبيلتهم كان يفعل ذلك من قبل ، لكن " لفنجستون " عاجز عن هذه القدرة السحرية ! .

وكان الرجل الطيب يتألم حين يكررون رجاءهم وإستعطافهم له ، ويحاول عبثاً أن يقنعهم بإرادة الله .

ومن الأشياء التى تألم منها كثيراً تلك الحرب التى شنتها ضده قوات البوير وهم من البيض المتمدنين الذين إفترض " لفنجستون " أن يكونوا أكثر إنسانية بحكم مدنيتهم ، لكنهم على النقيض من ذلك : كانت قلوبهم مليئة بالحقد عليه لا لسبب إلا لأنه يحب السود ، ويعيش بينهم ، ويحاول تعليمهم وتهذيبهم والإرتقاء بهم ! وأعتقد البوير أن " لفنجستون " قد تجاوز حدود الأدب والأخلاق ! .

لأنــه يـدعو الأفارقـة الـسود لهجـر عبـادة الأصـنام وعبـادة الله خـالق الـسماء والأرض علـى حـين يـرى البـوير الأفارقـة مجـرد وحـوش وبهـائم الأرض ! . مخلوقات لا قيمة ولا أرواح لها ، لكنها كائنات مخلوقة للخدمة والإستعباد ! .

لـذلك فقـد أسـتغل البـوير فرصـة غيـاب " لفنجـستون " فـى إحـدى رحلاتـه ، وهاجموا بيته ، وأحرقوا كتبـه ومذكراتـه وخرائطـه ومقتنياتـه الخاصـة ، وأحرقوا القرية والحقول المحيطة بها ، وسلبوا الماشية ، بل وقتلوا ستين رجلاً من أصـدقاء " لفنجستون " الـذين أحـبهم وعلمهـم ورعـاهم ! . وكـانوا يـستخدمون فـى ذلـك أسلحتهم المتقدمة ضد قوم بسطاء فقراء لا يملكون سوى أدواتهم البدائية ! .

وتألم الرجل كثيراً ، فقد كان كل واحد من هؤلاء الناس عزيزاً علـى قلبـه حبيبـاً إلى نفسه ، وعـز عليـه أن يفقدهم ، وأن يغتـالهم الغـادرون الـذين يدّعون التحـضر والمدنية ! .

ومن آلامه النفسية أيضاً ما أبداه بعض الناس من التعصب الأعمـى ، والـرفض الـدائم لدعوتـه ، فقـد كانـت روح القبليـة والعـصبية تـدفع بعـض رؤسـاء القبائـل لمعاداتـه ، حتـى أن بعـضهم قتلـوا ديـوكهم ، لأنهـم وجـدوا تـشابهاً بـين صـوت صياحها وعبارة " هلموا للصلاة " ! . كما ينطقونها بلغتهم ! .

غير أن أعظم الآلام التى تعرض لها الرجل العظيم هى المواجهة مع المـوت : فمع أنه شخصياً لم يكن يخشى الموت ، بل كان يواجهه بشجاعة وسرور - فإن تسلل الموت إلى بيته وأصدقائه الـسود حطم وأضنى روحـه ، وإن كـان قد زاده حباً لله وتسليماً لإرادته الصالحة .

مواجهة مع الموت

(الجزء الثانى)

الأشرار يخافون الموت ؛ فهو نهاية لحياتهم التى يعيشونها بوحى من غرائزهم وعلى حسب ما يروق لهم ، فإذا جاء ما ينهى تلك الحياة فإنهم يضيقون به ويرفضونه ويقاومونه ، ولو كان الأمر بيدهم لطردوا الموت أو قتلوه ! . وخاصة إذا كانوا يؤمنون أنه الطريق إلى العذاب ! .

وعلى العكس من ذلك من كان مدركاً لرحمة الله وموقناً بنهايته السعيدة - فإنه لا يجفل ، لأن الموت يضع نهاية للمعاناه والحياة الصعبة التى يعيشها فى الأرض ، ويفتح له أبواب الرحمة الواسعة .

وقد كان " لفنجستون " واثقاً أنه قد أرضى الله وعاش حياته : لا لنفسه ، لكن لرسالة إنسانية ملتمساً الرضا الإلهى ، والعاقبة الحسنة ؛ لذلك لم يجفل من الموت ، بل واجهه مرات كثيرة ، إذ لم يشأ أن يكون الخوف من الموت عائقاً دون إكمال مسيرته وتحقيق رسالته ! .

وقد تعرض " لفنجستون " للموت سبع مرات على يد بعض المتوحشين ، وتعرض للموت ثلاثين مرة بالحمى فى رحلة واحدة ، وتعرض للموت غرقاً عدة مرات ، بل لعله كان يبيت فى كل ليلة وهو لا يعلم : هل يبقى حياً حتى تشرق شمس يوم جديد ، أو يرحل قبل طلوع النهار ؟ . لكن الرجل العظيم كان له مواجهة مع الموت آلمته ومزقت قلبه وأهاجت عواطفه مرات كثيرة .

• الكرسى الخالى :

حين ولد داقيد فى " بلانتير " - فتح عينيه البريئة على الحياة ؛ ليفهم يوماً بعد يوم أنه واحد من فئة من الناس يطلق عليها تعبير " الفقراء " ، وأن والده واحد من الكادحين الذين لا يملكون من الحياة سوى أسمائهم ! .

ولكن " نيل لفنجستون " هذا الأب الفقير - كان يملك شيئاً آخر لا يستهان به ، ذلك هو أخلاقه العالية وشخصيته الصارمة المتمسكة بالآداب والسلوك الحسن والحياة المدققة .

أما أمه فكانت سيدة فاضلة رقيقة ، مرحة ، لم تعرف التذمر أو الشكوى ، بل على النقيض من ذلك حاولت أن تخلق من بيتها المتواضع شيئاً معقولاً ومقبولاً لزوجها ولأولادها .

ولابد أن " دافيد " الصغير قد ضاق كثيراً بتشدد والده وصرامته ، ولابد أنه إستاء من تدينه وإلتزامه بالممارسات الدينية التى كان يرفضها فى شبابه الباكر ! . لكن العلاقة بين " دافيد " وأبيه أصبحت مع الأيام علاقة ود وحب وعرفان بالفضل ؛ فقد كان الرجل نموذجاً للأمانة والإستقامة والحب الأبوى والإخلاص العائلى .

ومرت الأيام ، وفى حين كان " دافيد " يقرأ كتاباً بعنوان " فلسفة دولة المستقبل " إذا به يحس وكأن قلبه قد تغير ، وأن عقله يتجه نحو مفهوم روحى جديد كان مغلقاً عليه ! . وإمتلكه إحساس عميق بأن الله يدعوه أن يقترب إليه ، وتملكته رغبة عميقة فى الصلاة وما أن إنتهى من خلوته هذه حتى ملأه السلام النفسى واليقين أن الله قد منحه الغفران ، وأن سبحانه ليس إلهاً يعيش فى السماء ، بل إنه أيضاً فى قلبه ، ويملأ حياته حباً وعطاء ! .

ويقول داڤيد ليفنجستون :

" أحسست فى ذلك الوقت وكأننى شفيت من عمى الألوان ، فأصبحت أميز ألوان الحياة المختلفة : فهذا الذى كان باهتاً أصبح لامعاً ، وما كان غامضاً أصبح واضحاً ؛ وعرفت طريقى ؛ فإن يقينى بغفران الله الكامل لكل خطاياى أثار فىّ عواطف المحبة العميقة لله والناس " .

ومنذ ذلك الحين عرف " دافيد " أن هذا اللون من الحياة الذى كان يعيشه الأب الطيب - لم يكن من قبيل المظهرية أو التقليدية ، لكنه كان علاقة حب حقيقى بين الرجل وإلهه - وكان إلتزامه وتشدده وليداً لإيمانه وعلاقته بالله .

وكانت السنوات السبع التى قضاها " داڤيد " مع أبيه بعد تلك الليلة التى تغيرت فيها حياته - سنوات من العطاء المتبادل بينه وبين أبيه ، إنهما يتبادلان الإختبارات والأفكارو العواطف الدينية والبركات الروحية .

وحين قرر " دافيد " أن يذهب إلى عمق القارة الأفريقية كان الأب يودعه وقلبه يتمزق ، ويشجعه على الإستجابة لدعوة الله له للعمل بين الفقراء وخدمة

إخوته المحتاجين من السود الأفارقة . وبالرغم من ذلك فقد ذهب يودعه والحزن باد عليه ، وكان يتغلب على شوقه لإبنه بأن يقضى الساعات يدعو الله له ، ويسأله أن يعينه ويرشده ويرعاه . وظل الأب محروماً من رؤية إبنه ، وظل الإبن مشتاقاً لرؤية أبيه ، وبعد ستة عشر عاماً إستطاع أن يعود إلى بيته القديم ، وإستقبله إخوته ، لكن الكرسى القديم الذى كان يجلس عليه الأب كان خالياً ! . لقد توفى الشيخ قبل أن يرى إبنه ! .

وملأ الحزن قلب " داڤيد " وهو يسمع عن تلهف أبيه على رؤيته ، وإستفسر كثيراً عن مرضه وموته ، وسمع من شقيقته التى كانت إلى جوار أبيه فى اللحظات الأخيرة أنه قال لها : كنت مشتاقاً جداً لرؤية " داڤيد " ! . لكن بلغيه إننى سأعرف كل شئ عنه ! . وعرف " داڤيد " أن أباه الطيب تحسنت روحه المعنوية بعد ذلك ، وظهرت عليه علامات الفرح ، ثم إنطلقت روحه إلى بارئها ؛ فقد أغمض عينيه فى عالم الحزن والحرمان ليفتحهما على حياة السعادة الأبدية ! .

وسالت دموع الإبن وهو يصلى : " **تباركت أيها الرب إلهنا ـ نشكرك لأجل والدينا الذين عاشا فقيرين وتقيّين ، ونشكرك من أجل جميع الذين يرقدون بعد أن رحلوا عن الدنيا وهم على يقين من أنك غفرت لهم ، وقبلتهم لديك** " .

وكانت هذه واحدة من أحزان الرجل الذى لم تثنه عن العودة إلى عمله وخدمته وكفاحه العظيم .

• وفاة الزوجة :

أما المواجهة القاسية مع الموت فقد كانت فى عام ١٨٦٢ م لما مرضت " مارى ليفنجستون " أياماً قليلة ، وبعدها فاضت روحها وإنطلقت إلى الحياة الأخرى تاركة زوجاً وحيداً محطماً ! .

كان " ليفنجستون " قد عاش وحيداً فى الباخرة الصغيرة فوق مياه الزمبيزى أربعة أعوام لم يرى خلالها زوجه ، لكن شوقه لها وإنتظاره الطويل لمجيئها جعل لقاءهما أشبه (بشهر عسل) لعروسين جديدين ، ولكن سعادتهما لم تطل أكثر من ثلاثة أشهر ! . وعصف الحزن بالطبيب المكلوم " داڤيد " وهو يحاول عبثاً أن ينقذ حياة زوجه وشريكة عمره ! . فلما قضى الأمر ركع إلى جوار فراشها ،

وبكى بكاءً مراً ، وأخذ يناجيها كطفل صغير فقد أمه وتحطم قلبه تماماً ، وكتب ليفنجستون فى مذكراته عن ذلك اليوم :

" كانت هذه أول صدمة عنيفة فى حياتى ، أطاحت بقواى ، وتركتنى أقاسى مرارتها ولوعتها ! . لقد بكيت عليها كثيراً تلك التى كانت تستحق الدموع الغزيرة ! .

لقد أحببتها عندما تزوجتها ، وزاد حبى لها وتعلقى بها كلما مرت الأيام ! . وهاهى ذى تتركنى وحيداً فى هذا العالم بعد أن كانت جزءاً من نفسى وكيانى ! . إنى أتضرع إلى الله أن يصبّر أولادنا المساكين الذين كانوا جميعاً متعلقين بها ، وكانت هى تغمرهم برقتها وحنانها أما أنا فأرجو أن يقودنى الله بنعمته الغنية إلى التفكير الدائم فى السماء بإعتبارها وطنى وبيتى الأبدى ، لأذكر أن زوجى قد سبقتنى فى رحلتنا إليها ! .

إننى أنحنى أمام اليد الإلهية التى تؤدبنى وتصهرنى ، ليمنحنى الله نعمة لكى أتعلم الدرس الذى يريد أن يعلمنى إياه ، إننى أقاسى من الوحدة والوحشة ، لكن ينبغى أن نسلم لمشيئة الله ! " .

كان " ليفنجستون " الوحيد يحتاج فى غربته إلى من يواسيه ويشجعه ويعطف عليه ، غير أن جميع الأقرباء كانوا يبعدون عنه الآف الأميال ، لكن الله كان معه فى قلب الأحراج ، وفى مجاهل الغابات ؛ كما كان مع صغيراته فى بيتهن بإسكتلندا اللائى حرمن الأم بوفاتها والأب ببعده ! .

وأعطاه الله سلاماً ويقيناً بأنه سيرى زوجه لما تنطلق روحه فى نهاية أيامه ، فتشدد ليبدأ جولة جديدة فى شجاعة وصبر وشكر لله ! .

• لقاؤه الأخير مع الموت :

إحتفل " ليفنجستون " بعيد ميلاده الستين فى التاسع عشر من شهر مارس ١٨٧٣ وإتخذ من تلك المناسبة حافزاً جديداً لإنطلاقة قوية نحو تحقيق رسالته . كان يريد أن يصل إلى منابع النيل ، ويجلو الغموض عن القارة السوداء ، ويفتح الطريق للنور أمام أصدقائه الأفارقة الذين أحبهم . كان الرجل مثقلاً بالمتاعب والإعياء الشديد ، لكنه - على الجانب الآخر - كان يستعين على الإعياء بالإصرار الشديد ! .

لكن الحياة والموت لا يصنعهما الإصرار ولا تؤجلهما الإرادة الصلبة ، فلكل طريق نهاية محتومة ! . وكانت النهاية بعد أربعين يوماً من إحتفاله بعيد ميلاده .

فما إن بدأ شهر أبريل من سنة ١٨٧٣ م حتى بلغ " ليفنجستون " حالة من الضعف تدعو للإشفاق حقاً ، حتى إضطر رفاقه أن يحملوه على هودج صنعوه من فروع الأشجار . وساروا به على إمتداد شاطئ بحيرة تنجانيقا التى كان يرجو أن يصل إلى طرفها الشمالى .

كانت الأمطار تهطل بغزارة فوق جسده الواهن - على حين يغوص رفقاؤه فى الماء والطين حتى ركبهم وهم يحملونه إلى أن وصل إلى " موليلامو " ، وكتب هناك آخر كلماته فى مذكراته الكشفية .

وفى التاسع والعشرين من شهر مارس وضع الحمالون الرجل العظيم على الأرض تحت رذاذ المطر ريثما يعدون له كوخاً متواضعاً - يحمى جسده الهزيل ! .

وعلى فراش خَشن من الأغصان الجافة رقد " لفنجستون " ليلته الأخيرة ! .

وفى ضوء شمعة خافت نظر الرجال إلى الكوخ فى ساعات الفجر الأولى ، فوجدوا الشيخ الطبيب جاثياً على ركبتيه واضعاً رأسه بين كفيه يتمتم بكلمات صلاة خاشعة وإنتظروا حتى ينتهى من صلاته ، لكن إنتظارهم طال ؛ فقد ودع الرجل حياة الجهاد ، ورحل عن عالمنا وهو يصلى ! .

• العظماء يموتون موتا عظيما :

إذا جاز لنا أن نصنّف الموت ونجعل له أنواعاً - فإننا نستطيع أن نقول : إن الموت الذى إنتهت به حياة " لفنجستون " كان موتاً وقوراً ، فقد رحل عن الأرض التى إكتشفها فى هدوء وتواضع ووقار ! ، فلم تُدَق فى وداعه الأجراس أو تُطلق المدافع ! . ولم يُدهن جسده بالعطور ، أو يُوضع فى تابوت من ذهب ! . بل مات الرجل وحيداً صامتاً ؛ كما عاش وحيداً زاهداً ! .

كانت حياته عظيمة بعطائها الدّافق ، وكان موته عظيماً بسكونه الخاشع ؛ لم يصرخ الأطفال ، ولم تولول حوله النساء ! . بل وقف أمام جسده المسجى رجلان أسودان من أحبائه القدامى ، وفى خشوع وحب إنحنيا على صاحبهما

يودعانه بدموع حارقة وقلب كسير ! ، فقد كانت عواطفهما تجاهه كعواطف أم لطفلها الذى يحتضر ! .

وإستجمع الرجلان المسنان " سوسى " و " تشوماه " شجاعتهما ، إذ كان عليهما أن يقوما بمهمة قاسية على قلبيهما المحطمين فقد مات القائد والرائد والمعلم والصديق دون أن يوصى أحداً بشئ ، أو يطلب لتضحياته ثمناً ! . وعز على الرجلين أن يلقيا بالجسد فى النهر أو يتركاه للوحوش وأقلقهما أن تتناثر الأوراق والمخطوطات التى كتبها الرجل بعرقه ودمه وقبل أن تجف دموعهما كانا قد أعدا بعض الصناديق الخشبية الخشنة ، وجمعا فيها أوراق " لفنجستون " وحاجاته ، ثم أغلقاها بإحكام شديد ، حتى لا تتسرب إليها مياه الأمطار ، أو تلوثها الأوحال ! .

وبيد مرتعشة مد " سوسى " يده نحو الجسد الممدد ، فأدخل سكيناً كبيرة فى صدر الصديق الراحل ، وشق الجسد الرقيق ؛ ليخرج القلب والأحشاء ، فيودعها بطن الأرض التى تعلق بها قلب الراحل وعواطفه ، ثم نقل الجسد إلى موضع مشمس ليجف تماماً .

وظل الرجلان يحرسان الجسد ليلاً ونهاراً أسبوعين كاملين كانا خلالهما قد أعدا صندوقاً أسطوانياً من جذع شجرة ضخمة ، فأدخلا بقايا الجسد إلى جوف الصندوق وحملاه فى رحلة قاسية عبر المستنقعات والهضاب حتى وصلا به بعد تسعة أشهر كاملة إلى ميناء زنزبار فى رحلة كالأساطير محفوفة بالمخاطر والمصاعب والألم والجوع .

وبعد عام من موت " لفنجستون " كان الأطباء فى إنجلترا يفحصون جثمانه للتيقن من أنه بعينه بقايا العملاق الذى رحل ! . وتأثر الأصدقاء حين رأوا العظام المحطمة فى كتف " لفنجستون " ، إذ تذكروا قصة الأسد الذى حطم ذراعه وهو بعد فى صدر شبابه وقوته .

ومرت الأيام ، وأصبح الجسد تراباً من تراب الأرض ، لكن العظام المحطمة ظلت شاهدة على نفس شجاعة وروح خادمة مضحية ! .

فهرس الكتاب

شخصيات لا تُنسى

١ – شخصيات لا تُنسى ....
إدجار هولمز (جامع الروبابيكيا)
٢- شخصيات لا تُنسى ....
راءول فوليرو (يوم حرب من أجل السلام)
٣- شخصيات لا تُنسى ....
إجناز سيميلفايس (منقذ الأمهات)
٤ - شخصيات لا تُنسى ....
هيلين لانج (هيلين والأعمى)
٥- شخصيات لا تُنسى ....
دميان دى فوستر (فى جزيرة مولوكاى)
٦- شخصيات لا تُنسى ....
مارى سكلودوفسكا (فقراء فوق طن من القار)
٧- شخصيات لا تُنسى ....
ولبرفورس (العبيد أصبحوا أحراراً)
٨- شخصيات لا تُنسى ....
الكولونيل هارلاند ساندرز (كنتكى فرايد تشيكن)
٩- شخصيات لا تُنسى ....
جلاديس (آى ويه تيه)
١٠- شخصيات لا تُنسى ....
الأب ماريو بوريللى (شوجنيزى)

١١- شخصيات لا تُنسى ....
سارة بوش جونستون (زوجة الأب)
١٢- شخصيات لا تُنسى ....
ليونورا (ملحمة حب ووفاء)
١٣- شخصيات لا تُنسى ....
فريدريك شارنجتون (الرجل الذى صمم أن يكون جديداً)
١٤- شخصيات لا تُنسى ....
جيوفانى بوسكو (الفلاح الصغير صديق الفقراء ومربى اليتامى)
١٥- شخصيات لا تُنسى ....
ألين ريتشاردز (بيت وكيمياء)
١٦- شخصيات لا تُنسى ....
أينشتاين (خبير فنى من الدرجة الثالثة !)
١٧- شخصيات لا تُنسى ....
مارى فيرغيس (وترك لها يدين ماهرتين)
١٨- شخصيات لا تُنسى ....
يوهان جوتنبرج (الجبل الطيب)
١٩- شخصيات لا تُنسى ....
لدفيج فان بيتهوفن (شاعر النغم)
٢٠- شخصيات لا تُنسى ....
هيمنغواى (رسائل لم يكتبها هيمنغواى)
٢١- شخصيات لا تُنسى ....
برتا كينسكى (دعوة أقنعته)
٢٢- شخصيات لا تُنسى ....
ميشيل فاراداى (أحد باعة الصحف)
٢٣- شخصيات لا تُنسى ....
ويلما رودولف (العسل الأسود)

٢٤- شخصيات لا تُنسى ....
مارى موفات (تحت شجرة الباوباب)
٢٥- شخصيات لا تُنسى ....
فرانسز طومسون (الطريد)
٢٦- شخصيات لا تُنسى ....
إرفين كيفين (من الشارع المظلم إلى أضواء الملاعب)
٢٧- شخصيات لا تُنسى ....
ريتشارد فاجنر (الذى تألم وقدّم السعادة للآخرين !)
٢٨- شخصيات لا تُنسى ....
ألبرت شفايتزر (الرجل الذى أحب مرضى الجذام)
٢٩- شخصيات لا تُنسى ....
جان دارك (فتاة وسط النيران !)
٣٠- شخصيات لا تُنسى ....
جان فرنييه (العقل الإلكترونى والقروى الأسمر)
٣١- شخصيات لا تُنسى ....
أونوريه دى بلزاك (وأحس الرجل بخيانته لها !)
٣٢- شخصيات لا تُنسى ....
الأم تيريزا (المرأة التى أحبت كثيراً)
٣٣- شخصيات لا تُنسى ....
جورج موللر (فى الوقت المناسب)
٣٤- شخصيات لا تُنسى ....
روجر هرلنج (نور يخترق الظلام)
٣٥- شخصيات لا تُنسى ....
دافيد لفنجستون (الحجر الحى الذى عبر الصحراء)

المجموعة الكاملة لمقالات

" مبادئ إنسانية "

للكاتب الكبير والشاعر والأديب المعاصر " نعيم عاطف " .

والتى نُشرت بمجلة " هو وهى " - تم صدورها فى خمسة أجزاء :

١. الحب .. والزواج .. والأبناء .. والأسرة ..

(والجمال .. والنجاح .. والسعادة .. والسلام .. والأمل ..)

٢. طبائعنا البشرية .. وأشكالها .

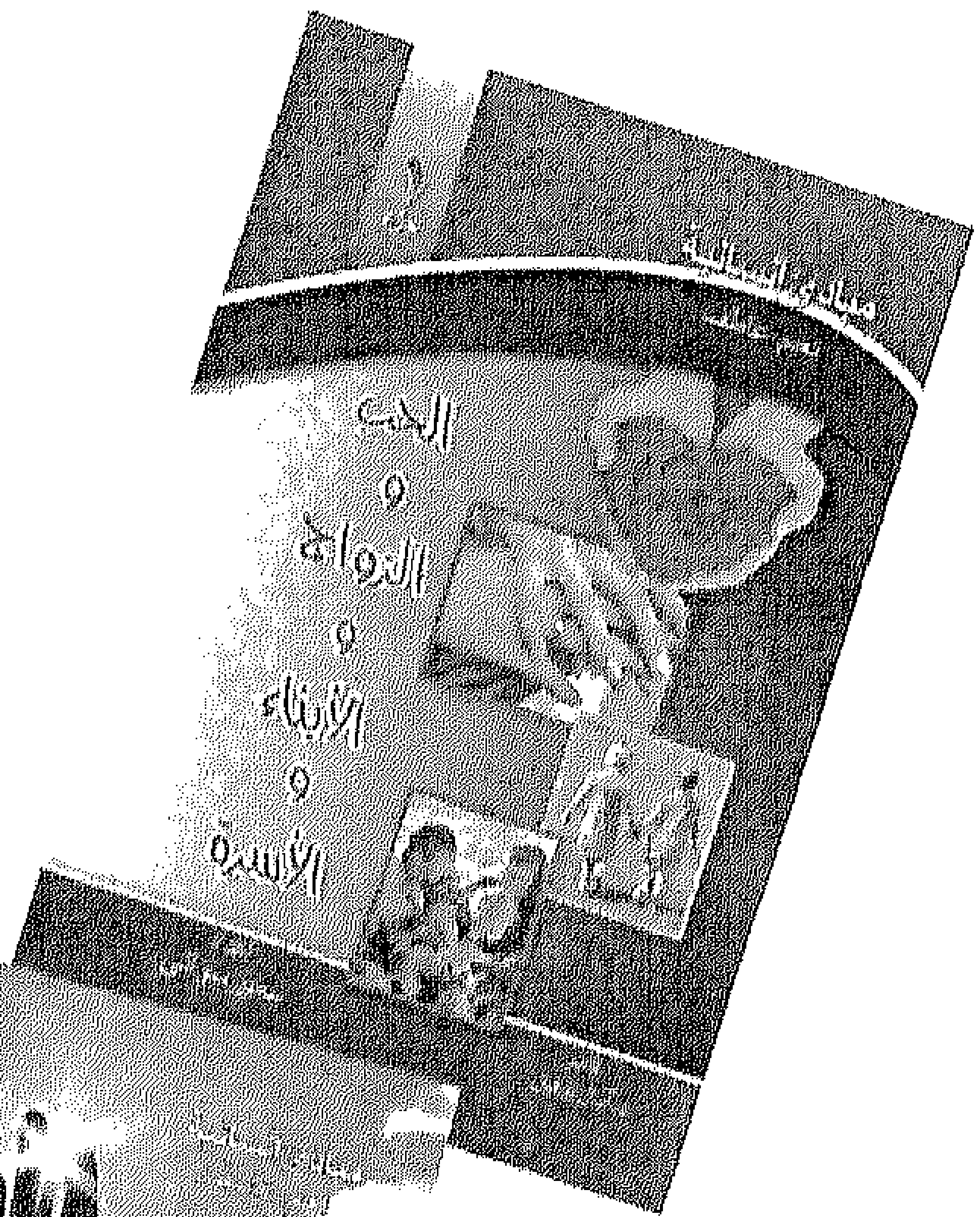
٣. الله : الحب والخير والدواء .

٤. أجمل الصور الإيجابية .. وأقبح الصور السلبية في حياتنا .

٥. خريف الحياة .. وربيعها .



مبادئ إنسانية
طبائعنا
البشرية
وأشكالها

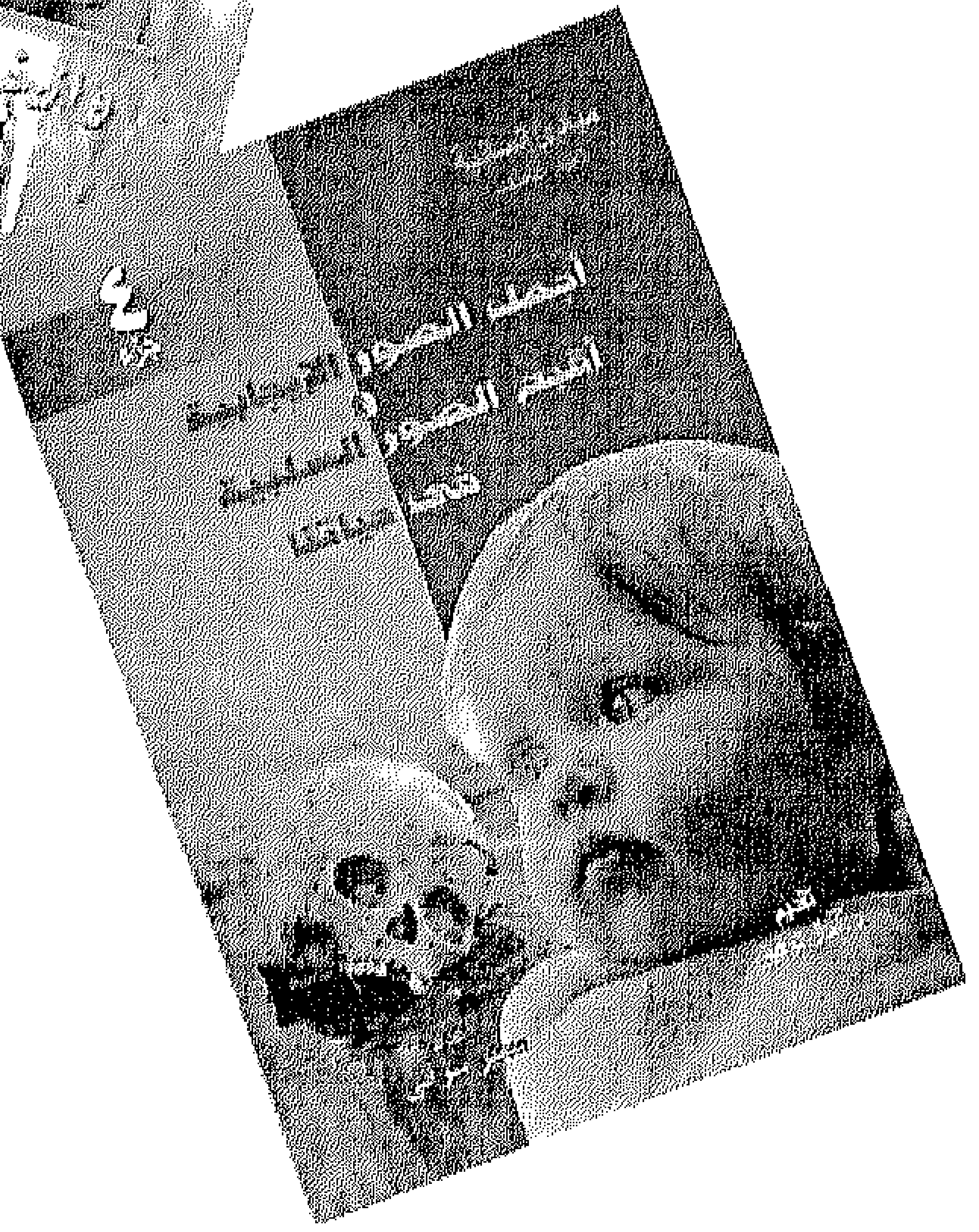


مبادئ إنسانية
الحب
و
الزواج
و
الأبناء
و
الأسرة





مبادئ إنسانية
خريف
الحياة
وربيعها



٤

إصدارات

سمير سوانى

١. كيف تهزم ذاتك .. وتصير متواضعاً .

٢. كيف تهزم .. ؟ ذوقاً صالحاً علمنى .

٣. ٣٥ كتاب × كتاب .

٤. عظات لا تقرأ ! . (جزء ١) .

٥. خلاصات وخبرات فى الحياة . (جزء ١) .

٦. من جعبة هؤلاء . (جزء ١) .

٧. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ١) .

٨. ألغاز وأحجية كتابية . (جزء ٢) .

٩. قصاقيص ورق . (جزء ١) .

١٠. قطرات الندى . (جزء ١) .

١١. يا رب .. (جزء ١) .

١٢. شخصيات لا تنسى . (جزء ١) .

١٣. شخصيات لا تنسى . (جزء ٢) .

١٤. إتيكيت .. الحياة اليومية .






شخصيات لا تنسى ..

لازال التاريخ يذكرها .. والإنسانية أيضاً .

إنها قصص واقعية ، تتناول حياة رجال ونساء معروفين ومجهولين حقق بعضهم شهرة واسعة ، على حين مات بعضهم الآخر مغموراً . ومع ذلك كان لهم دور بارز فى أحد الجوانب المؤثرة على المجتمع البشرى والإنسانية .

منهم :

- إدجار هولمز
- راءول فوليرو
- دميان دى ڤوستر
- الأب ماريو بوريللى
- سارة بوش جونستون
- چيوڤانى بوسكو
- ألين ريتشاردز
- أينشتاين
- لدفيج ڤان بيتهوڤن
- برثا كينسكى
- ميشيل فاراداى
- ريتشارد فاجنر
- ألبرت شفايتزر
- الأم تيريزا
- داڤيد لڤنج
- مارى موفا
- إجناز سيم
- ولبر فورس
- يوهان جو
- ليو نورا



